

تجارت مع الدقر
تلفون ۲۲۹۷۷



من روائع الأدب الفارسي

ليلي والمجنون أو الحب الصوفي

تأليف

الشاعر الفارسي عبد الرحمن الجامي

ترجمة وتقديم وتعليق

الدكتور محمد غنيمي هلال

ليسانس ودكتوراه الدولة في الأدب المقارن من السوربون
مدرس الأدب المقارن بجامعة القاهرة وإبراهيم

١٩٥٤

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)

مطبعة جند البياض القزويني

الشارع مشرق باب الشامى - القاهرة

استمراك :

اقرأ في الصفحة المقابلة س ٥ سعدى بدل (سعد الدين) و س ١٢ من نفس
الصفحة ١٤٤٦ بدل (١٩٤٦) ، للأخطاء المطبعية الأخرى راجع الصفحات
الأخيرة من الكتاب .

مقتله

عبد الرحمن الجامي

يتفق نقاد الأدب من الفرس على أن المكانة الأولى في الملحمة للفردوسي، وفي القصص الشعرى لنظامي الكنجوي، وفي شعر التصوف لجلال الدين الرومي، وفي الأدب الخلق والتعليمي لسعد الدين الشيرازي، وفي الغزل لحافظ، ويجمعون كذلك على أن الجامي كانت له الصدارة في هذه الأجناس الأدبية جميعاً (١).

ولد نور الدين عبد الرحمن الجامي في جام من أعمال مدينة هراة عام ٨١٧ هـ (١٤١٤ م) وكانت بلاد فارس تحتاز في تاريخها فترة عصيبة، عقب غارات تيمورلنك الثلاث (في أعوام ١٣٨٠، ١٣٨٤، ١٣٩٢)، تلك الغارات التي وحد فيها إيران بحمد السيف، ولكن ما لبثت أن تمزقت بعد موت ابنه شاه رخ (عام ١٩٤٦ م) الذي بذل جهد اليائس في الإبقاء على وحدتها في حياته. ثم خضعت البلاد لدويلات صغيرة انتشرت في عهدها الفوضى وكثرت الحروب الأهلية؛ وظلت على هذه الحال إلى أن توحدت من جديد على يد الصفويين في بدء القرن السادس عشر الميلادي. وكان العصر - على ما به من اضطراب - غنياً بإنتاجه الأدبي؛ فقد خلف لنا كتابه ميراثاً قيماً في التاريخ والتصوف والفلسفة والشعر. ولم يكن من بين شعرائه - على كثرتهم وخصب مواهبهم - من يقارن بالجامي في مكانته وشعره.

بعد أن تم الجامى دراسته فى جام ذهب يستكملها فى مدينة هراة ؛ وأظهر فى أثناء تلك الدراسة شغفه الشديد بالتصوف . وكان إمامه فيه سعد الدين الكشغرى^(١) أحد علماء العصر ، وشيخ الطريقة النقشبندية فى عهده . ولما مات سعد الدين عام ٨٦٠ هـ (١٤٥٥ م) اتخذ الجامى مسكنه بجوار قبره فى ضاحية من ضواحي هراة ، وهناك تعرف بمير على شير^(٢) الذى كان وزيراً فى بلاط السلطان حسين بيقرا آخر بنى تيمور .

ويحدثنا هذا الوزير عن حياة الجامى فى مقامه الهادى . فى تلك الضاحية ، ويقرر أنه كان كثيراً لاطلاع على العلوم الدينية والدينية ، وقد برز فى ذلك علماء عصره . ويذكر أنه كان دائم التفكير فى الذات الإلهية ، لينفذ من وراء الحجب إلى جمال الحقيقة ، وكثيراً ما كانت تعتريه لذلك حالات من الوجد الصوفى عَنِى بتسجيل خواطره فيها فى شعره . ويشهد ذلك الوزير أيضاً أن الجامى كان قد وصل فى العلوم إلى درجة ليس وراءها مزيد ، حتى إنه أصبح فى غير حاجة إلى الرجوع إلى كتاب اللجابة عن مسألة من المسائل فى أى فرع من فروع العلوم .

ويدل على مكانة الجامى بين معاصريه أن ابن بيقرا والى هراة ، أقبل يوم وفاة الجامى مع رجال حاشيته فى ملابس الحداد ، ليودعوا الشاعر إلى قبره . وكان رجال الحاشية - كما يحكى على شير - يتناوبون حمل النعش ، وقد وقفوا طويلاً يبكون على قبر الشاعر ، بجانب قبر شيخه سعد الدين

(١) يتحدث عنه الجامى فى كتابه : نفحات الأنس ، مخطوطة فارسية بمكتبة جامعة القاهرة ورقة ٢٠٣

(٢) قد ألف هذا الوزير كتباً بالتركية عن حياة الجامى عنوانه خمسة المتجربين ، وهو من

أهم المراجع لحياة الجامى ، وقد ترجم فقرات منه فى Belin فى Journal Asiatique 1861 ، ويذكر فقرات منها أستاذى هنرى ماسيه فى مقدمة H. Massé : Béharistan de Djami, Paris 1925 وقد رجعنا إلى هذه المراجع ومراجع غيرها لهذه المقدمة .

الكشغرى ، فى جمع غفير من الشعب ازدحمت به الشوارع ، حتى كان يتعذر فيها السير بالجنازة ، مما اضطر الأمراء إلى الاشتراك مع رجال الشرطة فى شق طريق السير . ولم يكن الجامى ذا حظوة لدى بنى وطنه فحسب ، بل كان كذلك موضع التقدير من ملوك العصر . وقد بقيت لنا رسالتان وجههما إليه السلطان بايزيد الثانى من القسطنطينية^(١) .

* * *

ومن بين مؤلفات^(٢) الجامى الكثيرة نخص بالذكر اثنين : هما قصة يوسف وزليخا وقصة ليلى والمجنون^(٣) ، وهما من إنتاج الشاعر فى أيام كهواته . إذ كانت سنة إذ ذاك قد ناهزت السبعين . وفى كلتا القصتين نرى أثر ثقافته الإسلامية والعربية ، فقد أخذ القصة الأولى عن القرآن ، والثانية عن الأدب العربى . ويزعم الجامى فى مقدمته ليوسف وزليخا أنه أول من نظم القصة^(٤) ، ولكنه فى مقدمة ليلى والمجنون يذكر أنه اطلع على قصتين ألفتا قبله فى الموضوع : أولاهما لنظامى الكنجوى ، وثانيهما لأمير خسرو^(٥) .

(١) راجع : Browne : Lit. History of Persia, III p. 422—423

(٢) للجامى مؤلفات كثيرة دينية وأدبية وصوفية ، وقد ألف كذلك فى النحو والعروض والموسيقا : المرجع السابق ص ٥١٢ — ٥٤٨

(٣) قد تم نظمها للقصة الأولى عام ٨٨٨ هـ (١٤٨٣ م) وللقصة الثانية عام ٨٨٩ هـ (١٤٨٤ م) انظر المرجع السابق ص ٥١٦ .

(٤) ولكن الفردوسى كان قد سبقه ، راجع مقدمة يوسف وزليخا مخطوطة بمكتبة جامعة القاهرة ، ويرجح أن الجامى لم يطلع على قصة الفردوسى راجع : Bricteux, op. cit. p. XI

(٥) مات الأول عام ١٢٠٢ م والثانى عام ١٣٢٥ م ، وسند ذكر ملخص القصتين ، ونبين التأثير العربى فيهما فى كتاب : الحب العذرى وحب المتصوفة أو ليلى والمجنون فى الأدب العربى والفارسى (تحت الطبع)

الدهلوى . ولكن أثر الجامى ظهر واضحا فى صبغه القصتين بلون دينى وفلسفى اكتسبنا به طلاوة وطلافة .

وفى الحق قد كان لنظامى من قبله الفضل فى أن جعل من ليلي والمجنون قصة احتلت فى الأدب الفارسى مكانة لا تقارن بها فى الآداب الأوربية إلا قصة روميو وجوليت أو قصة تريستان وإيزوات . ومنذ نظامى والموضوع فى الأدب الفارسى مجال لخيال الشعراء عامة والمتصوفة منهم خاصة^(١) .

والجامى - مثل نظامى - ذو روح إسلامية وميول عربية ، على خلاف الفردوسى الذى ظهرت بعض ميوله الإيرانية فى الشاهنامة^(٢) . وقد تأثر الجامى كثيرا بنظامى فى قصة ليلي والمجنون ، ولكن شخصيته مع ذلك واضحة فى كثير من آرائه ومشاعره التى تتراعى من خلال قصته ، فقد سادها لون من التشاؤم^(٣) الذى استولى عليه فى كهولته .

وقد كان الجامى أكثر عناية فى قصته بشرح إدراكه للحب على نحو ما يرى المتصوفة ، مبينا أن الهيام بالجمال الجسدى يقود إلى الله متى أدرك المحب أن ذلك الجمال مرآة لجمال الله ، فاتخذ به ذلك طريقا للتقرب^(٤) منه . ويعتقد الجامى « أن العشق الذى هو منقبة من مناقب الإنسان وخاصة من خصائصه ، حيثما وجد ، يستلزم العفة والطهر ، أما العشق الذى فيه هوى النفس وشهوة الطبع فمن صفات البهائم والسباع^(٥) » . وعلى هذا النحو

(١) لنشأة الموضوع وتطوره فى الأدبين العربى والفارسى راجع كتابى السابق الذكر .

(٢) انظر : Lit. Hist. of Pers III, p. 541 Browne .

(٣) انظر مثلا فصل ٥٢ من هذه الترجمة وكذا فى مواضع متفرقة من القصة .

(٤) راجع مثلا فصل ٤٨ من الترجمة .

(٥) راجع بهارستان للجامى ص ٣٩ .

يشرح الجامى كيف أحب المجنون ليلي وتقرّب من الله بحبه^(١). هذا إلى أن الجامى قد اتخذ من المجنون معبرا عن آرائه في التصوف في كثير من المواقف، كما أدركه الجمال على نحو ما يرى المتصوفة، واعتماده في الوصول إلى الله على القلب على العقل، إذ العقل عند المتصوفة قاصر عن إدراك الحقائق^(٢).

ويعرض الجامى في أول قصته لنظرية المتصوفة في أن الجمال كان السبب في وجود الخلائق، فهو لا يعتبرون أن من طبيعة الجمال — أينما وجد — حب الظهور والابانة عن النفس. وكان هذا شأن الجمال المطلق الذى أراد أن يُعترف بخلق الخلق ليعرفوه، ويهتدوا إلى جماله بما فى خلقه من جمال^(٣). فكان السبب في وجود الكون ما اتصف به الله من جمال أراد أن يظهره، بخلق العالم على ما فيه من نقص وشر، ليستدل المتأمل فيه على ذى الجمال المطلق والخير المطلق، كما يُستدل بالظلام على النور، وهذه هى الحكمة في وجود الشر في العالم في نظر المتصوفة. وفي العالم مع هذا الشر كثير من مظاهر الكمال والخير، إذ قد أودع الله الخلائق لمحات إشراق من الحسن هى مرآة ذلك الحسن الذى تقصر العقول عن إدراك كنهه، وسها يستدل القلب عن طريق الكشف على جمال واجب الوجود. وبهذا كان الجمال —

(١) راجع مثلاً فصل ٤٨ من هذه الترجمة.

(٢) لا يتسع المقام هنا لشرح نظريات التصوف في ذلك وتأثير الأفلاطونية فيها، وأحيل القارى فيه إلى كتابى السابق.

(٣) وبهذا يفسر الصوفية حديث «كنت كنزاً لا أعرف فأحببت أن أعرف فخلقت خلقاً ففرقتهم بنى فرعونى، وفى لفظ: فتعرفت إليهم فى عرفونى» وقد اعتمد الصوفية هذا الحديث وبنوا عليه أصولاً لهم. قال ابن تيمية: ليس هذا الحديث من كلام النبي، ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف.. قال القارى لـ «كن معناه صحيح مستفاد من قوله تعالى: «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» أى ليعرفون كما فسرهم ابن عباس: راجع: كشف الحفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الحديث على ألسنة الناس لاسماعيل بن محمد العجلونى ص ١٣٢.

عند المتصوفة — سبب وجود الخلق ، وكان الهيام به سبيل الوصول إلى الخالق ، ثم الفناء فيه عن طريق العشق . وبهذا اكتسب العشق عندهم معنى سامياً ، إذ لم يكن مصدره العاطفة والتسامى بها إلى درجة العفة والظهر فحسب ، بل كان مع ذلك عبادة ، ينتهى فيها الزاهد ، بتأمله فى جمال من يهيم بها من حسان الخلائق ، إلى أن تتصل روحه بذى الجمال المطلق والحسن الذى لا يتناهى . فالصوفية لا يغفلون شأن الجمال الجسدى وأثر النظر إليه فى معرفة جمال الله . فالحب عندهم بهذا المعنى سلم للقربى ^(١) من الله . ولهذا تشبّهه قصادهم فى الحب بقصائد غيرهم من الغزّالين ، حتى ليختلط الأمر أحياناً . فلا يدرك المرء أهو أمام عاشق وله ، أم أمام زاهد يتعبد . وإليك مثلاً ما يقوله الجامى فى حالة من حالات وجدّه الصوفى وهيامه بالله :

« ها هنا طرف الحديقة ، وشط النهر ، وحافة الكأس ، فانهض أيها الساقى ، إذ الزهد حرام فى هذا المقام . إذا تميل الشيخ فى صومعته طرباً لسماع الألحان ، فدعنى وخمر الدنان ، إذ فى مثل هذه الحال يدوم سُور الخمر . وحين تضع شفاهك على شفاه الكأس ، لا أستطيع — أنا التمل — أن أميز هنا أين الخمر من ياقوت الشفاه . قلبى وحده أسير حلقات غداثرك ، فأينما طاف طائر القلب فهو هنا أسير شبّاكها . أنت تسئل سيفاً لتفطر قلبى شطرين ؛ دع السيف فنظرة منك هنا كفيلة ببلوغ هذا المرام . لا تشرح مشا كل العشق لذوى العقول ، ولا تبجح أما مهم بدقائق يدركها الخواص ، بينما مقامهم عام المجالس . قد صار الجامى ثملاً بحبك لم ير خمرأ ولا كأساً .

(١) لقد أوجزت هنا غاية الإيجاز فى عرض هذه النظريات من التصوف ، وقد شرحتها ، وبينت أصولها الدينية والفلسفية فى الباب الثالث من كتابى السابق .

ها هنا مادة العشق فأى مكان فيها للخمر أو للسكاس (١) ؟ »

* * *

وبحسبنا في هذه العجالة هذا القدر من حياة الجامى ، لنترك القارىء أمام النص الذى علقنا عليه بما يشرح غرضه ، ويشير إلى معانيه التاريخية والفلسفية ، وبعض مصادره العربية . ونود أن ننبه إلى أن الجامى — على ما له من فضل وبراعة — ولوع فى أسلوبه بالتكلف والحلية اللفظية ، والتلاعب بالانفاظ ، وذلك طابع عصره . وقد حافظنا على خصائص أسلوبه ، وحاولنا ما استطعنا أن ننقل فى الترجمة كل ما يرمى إلى تبيان معان حتى تكون الترجمة صورة صادقة للنص الفارسى ، وليتيسر بها الرجوع إلى الأصل لمن يدرس الأدب الفارسى ، ثم لكي تكون الترجمة علمية — يجد فيها العون من يريد القيام بمقارنات فى الموضوع .

غير أننا حذفنا فى الترجمة بعض صفحات من أول القصة فى النص الفارسى ، يناجى فيها الشاعر الله ، ويستدل عليه من طريق التأمل فى مخلوقاته ثم يمدح الرسول ، ويذكر قصة إسرائه ومعراجه . وإنما حذفناها لأن موضوعها لا يمت إلى القصة بسبب ، وخواطر المؤلف فى هذه الصفحات مطروقة ، ثم إنها تبعد بالقارىء العربى عن جوهر القصة .

وشئ آخر نود أن ننبه إليه ، هو أننا اختصرنا بعض عناوين الفصول فى الأصل ، وذلك حين تطول إلى بضعة أسطر ، وتبدو مصوغه فى تكلف قد يخفى على القارىء معه معنى العنوان . والى هنا كثير مما حافظنا على ترجمتها

(١) كليات جامى طبعة السكهواص ٩٧ ، وكذا : Browne : Lit. Hist. 111, p. 545

كما هي إذا بدت موجزة واضحة . وفيما عدا هذا قد التزمنا جانب الوفاء للنص في نقل القصة إلى العربية نقلاً دقيقاً .

هذا وقد رجعنا إلى المخطوطات التي بين أيدينا في مكتبة جامعة القاهرة المصرية ، وكان أوضح هذه المخطوطات وأوفاهها مخطوطة رقم ٢٣٥ فـ في مكتبة الجامعة ، ومخطوطتان رقم ٢١ و ١٢٥ في مكتبة دار الكتب . ولا يكاد يوجد في هذه المخطوطات خلاف في النص يؤثر على المعنى في الترجمة ، ولذا لم نلجأ إلى الخلاف فيما بينها في تعليقنا ، إلا أننا حين نجد في مخطوط منها زيادة — وقلنا نجد — نحرص على نقلها في ترجمتنا لكي تكون أقرب إلى السكال .

وقد راعينا غاية الإيجاز في التعليق على النص ، مقتصرين في المراجع لهذه التعليقات على ما تدعو إليه الضرورة .

محمد غنيمي هلال

(١)

في معنى عشق الصادقين وصدق العاشقين

عند ما تنفّسَ صَبح الأزل عن العشق ، نفث العشق نار الشوق في القلم ، فأجرى على لوح العدم صوراَ جمّة ذات تماويل بدیعة . فكانت الأفلاك وليدة العشق الذي خرت صریعة لسلطانة أرجاء الأرض^(١) . فلو لا العشق لم يوجد أثر لمخلوق خبير أو شرير ؛ ولا وجود لشيء لم يكن مصدره العشق . فهذا السقف العالی الأزرق الذي يتوالى دورانه ليلا ونهارا هو نيلوفرُ بستان العشق^(٢) ، وكرة منحنى صولجان العشق . فالمغنطيسية التي هي طبع الحجر قد أنشبت مخالبها في الحديد الصلب ، نخر الحديد صريع العشق الذي تجلى له من الحجر فانظر إلى الحجر في هذا المقام كيف استخفه الشوق إلى الحديد^(٣) ؛ وخذ من هذا قياس المصابين بالعشق أنهم في جذبة العشق راضون . فعلى ما بالعشق من آلام هو راحة الصدور الزكية . وبدون سلطان العشق كيف يتخلص المرء من محن الفلك المُدبِل ؟ ؟

وما من آدمي يخلو من معنى العشق علاقه قدره أودنا ، ولكن الفرق

(١) لفهم هذه الإشارات الصوفية راجع المقدمة ص ٤ — ٦ ولغزید من الفهم راجع كتابي : الحب العذري وحب المتصوفة الفصل الأول والثاني من الباب الثالث . وهذا الإدراك للجمال والحب مطابق لإدراك أفلاطون راجع :

Platon : le Banquet, traduit. Meunier, paris 1920, p. 40 etsq.

(٢) هذا تعليل آخر للحب ، وأنه تجاذب بين الشبيه وشبيهه من المخلوقات حيوانات كانت أم جمادات ، ولكن العشق يبلغ أقصى حالات وعيه في الإنسان . والمغنطيس والحديد في مثال الشاعر كلاهما عشوق وكلاهما عاشق ولكن عنصر الحديد أقوى إذ هو الطالب لعشيقه . وهناك خلاف يسير بين ترجمتنا وبين ترجمة Browne لهذه الأبيات يرجع إلى خلاف في المخطوطة ، وقد آثرنا هذا المعنى طبقاً لمخطوطة ٣٢٥ بمكتبة الجامعة ، إذ المعنى منطبق على ما يورده ابن حزم في طوق الحمامة طبعة القاهرة ١٩٥٠ ص ٨ وهذا المعنى مشروح هناك بالتفصيل . ثم إن هذا المعنى مأخوذ أيضاً عن أفلاطون راجع Platon, op cit. p. 36 وكذا Massignon: la Passion : d'al-Hallaj, p. 188 وقد شرحت هذا في كتابي السابق الذكر .

ما بين حبيب وحبيب قد يبعد في القدر بعد القشور عن اللب . فالمعشوق من ذهب ، والعاشق من فضة ، وبدون فضة كيف يستقيم أمر الذهب ؟ والمعشوق كرامة ، والعاشق حديقة ، فصدر العاشق بها موسوم .

فيا حبذا من غسل ضميره من كل الأوشاب بحب جميلة مرحة ، وربط قلبه بمليحة ذات دلال ، خيرة بمجالس الأنس ، أذيالها طاهرة من الأغيار ، لا كأذيال الورد الممزقة بالاشواك . وخير منه ذلك الذي يرتبط بمشرد^(١) خبير بالسلوك ، 'يَجِلُ' الورد بوضاءة الوجه ، ويحسده الياسمين لبياض شبيه . جماله مرآة الأرواح ، وكلامه مفتاح الفتوح . وإذا دعاك داعي العشق من هذين المقامين ، أو صلك محله إلى الحقيقة هذه هي وردة الصحراء الوسيعة ، وزهرة بحر المجاز . ومن لانصيب له من العشق في حديقة الدنيا هذه ، فهو غافل عن حريم القرى ، ولم يستشق نسيم الإنسانية .

يحكى أن واعظاً فصيحاً ، باسطاً ظل علمه على مجلس وعظ ، كان يسوق طرائف من دفتر العشق ، ويحكى من قصص العشاق . فر بمجلسه رجسٌ ضل حماره ، وأخبره عن ضالته . فصاح الشيخ قائلاً : مَنْ مِنْ الحاضرين اليوم لم يتقد قلبه بنار العشق . ولم يبق قط محنته ، ولم يكتبو بنار الحسان ؟ فوقف رجل ساذج من مكانه ، لم يسفر قلبه عن دخان الآهات . وقال : يا وحيد الزمان ، أما ذلك الإنسان الذي لم يكن له قط نصيب من العشق ، فنادى الواعظ الرجل الذي ضل حماره قائلاً : ها هو ذا حمارك ، فأحضر مقودك ، فهو والحمار سيان ، إذ أنه لم يعان تباريح العشق ، ولا فرق بينهما غير طول الأذنين .

فالعشق رأس مال القرى ، بل أدمية الإنسان من العشق . فمن لم يعشق فليس بإنسان ، وايس بأهل لمجالس القرى .

أى جامى ! كن رهيناً بإسار العشق . واقطع نفسك بوصل العشق .

(١) يقصد شيخ الطريقة ، وهو معشوق لجمال روحه ، قارنه بأفلاطون :

(٢)

سبب نظم الكتاب وباعث ترتيب هذا الخطاب

أقرب القصص للقبول ، وألصق الألسان بالطباع ، هي قصص العشق
والحانه ، في كل ما يعرف الفصحاء ، وفي جميع ما قرأ البانغاه . لذا شرعت
في رفع الستار عن هذا السر ، وفي التغني بهذه الطرفة ؛ فألهمني طبعي الموهوب
ما ألهمني من عذب القول في حب يوسف وزليخا ^(١) ، فانبجس من قلبي
من حلول الكلام ما نظمت به قصة كانت في العالم مشار الفتنه ، ولكنها مشار
السرور في خواطر العشاق ؛ وكانت منبع لطف ، واسكن لم يرتو منه عطشي .
وفي مكان آخر كان طائر قلبي يريد أن يتغنى بلحن جديد ، فجري الاقتراع
بفأل ميمون ، حين وقعت به على شرح حال المجنون . على الرغم من أنه
قد عاجل الموضوع قبلي أستاذان ، لهما صرح عال في دولة الفصاحة ، وقد بسطا
لساهما في إيراد الشطرف ، ووفيا الكلام حقه : أحدهما من كنجها ^(٢) ،
وقد كشف في قصته عن كنز الجواهر ؛ والآخر من الهند ^(٣) ، وقد سال
عذب حديثه الفياض . وقد دق الأول طبل الدعوى ، وجلا الثاني عروس
المعاني . وزين الأول بديع نظمه الألواح ، وحلاها الثاني بيده الصنّاع
بالألوان . وبلغ الأول بعلمه أوج الإعجاز ، ونفذ الثاني بسحره إلى الألباب .
وقد اقتفيت أثرهما ، ممتطيا راحلة خاطري العداة كالريح . وقد راجت
بضاعتهما في كل مكان ، وجاد بها خاطرهما الكريم . وحثت راحلتي
— على ما أنا عليه من عوز بالإضافة لهما — فلحقتهما غبارهما . وإذا عُدّدت

(٢) المقدمة ص ٣

(١) أنظر المقدمة ص ٣

(٣) هو خسرو الدهلوي : المقدمة ص ٣ — ٤

بعدهما في الشوط ، فكفاني ماجلل وجهي من غبار اللحاق بهما ، فهو
إكسير وجودي وحلية عظمي .

لا ، لا ، إني غريق في بحر القلزم ، فكيف بالتراب أتيهم ؟ وإنما
أعترف من منبع همي ما أغسل عن وجهي هذا الغبار . وذو الجود
المطلق هو فياض كل إلهام . وكل طلب من سواه عيب وامتهان . وإذا
استطعت الحصول على جوهرة من معدنها ، فمن الضعف أن تلجأ في
الحصول عليها إلى جوهرى . الدجلة ملك يميني حقا ، فلا يليق بي أن أطلب
ماء من سقاء . ولا تأخذ كفى جاما والارتواء بها من وشل مائي ، خير من
الارتواء بكأس من ذهب من حياض سقاء آخرين . وحين تفيض اللجة
فلا إمساك خشية الإنفاق . ومأتى الجذب خلو الذهن من الخاطر . وإذا
أريد إمساك ماء المورد سدت عينه بحجر من الأحجار ؛ وقد ظهرت عين
إلهامي من السداد ، ليعم فيضها ، وينساب في كل جهة ماؤها ، حتى أروى
وأروى سواي . سأروى بلحن الغيب ، وأجمل فضل شرابي صدقة .

(٣)

ذكر بعض من خرجوا من دائرة الزمان ، ودعاء

بعض من حلوا في مركز نقطة الحال^(١)

ياساقى الروح فداك روحى ، اترع الكأس من خمر الصبوح^(٢) ، من تلك
الخمر المباحة لذوى العشق أهل القلوب الواعية ، وأتربها مشرقة فقد حل
الصباح ، لنعقد مجلسنا على مشهد من خيوط الفجر ، ونسوق في مجمع الخلان
نبذة من طرائف اللطفاء ، أولئك الذين كنا لهم رفقاء ، وكان بعضنا شفيقاً
على بعض ، فحشنا معاً خطا الطلاب ، وتصفحننا صحائف الأدب . كنا متكاتفين
في الغيبة والحضور ، ودون أن نذكرن معاً لا تمتد يدنا إلى طعام . ألا فليكن
مقامهم في عليين ، وليكن الكوثر من رشحات كئوسهم . بقلبنا من فرقهم
حرقة كحرقة الشقائق بارحت حديقتهما . ذهبوا وتركونا ، وولوا ولم يبالوا .
فناولنا — أيها الساقى — كأساً مبيدة للأسى ، ورونا من الجام باعثة
الطرب ، من تلك الكأس التى تشيع فى النفس السرور ، وتبعث ذكرى

(١) أى ذكر من ماتوا ، وبلغوا بموتهم أعظم غاية للوجد وهى القرب من الله حتى الفناء
فيه : راجع لهذه الاصطلاحات الصوفية Massignon: Lexique Technique de la
Mystique Musulmane, p. 39, 255, 275

(٢) الخمر عند الصوفية رمز للوجد Extase وقد تأثروا فى هذا بغيرهم فثلا Philon يتحدث
عن الخمر بهذا المعنى فى كتابه : De Vita contemplativa ، انظر دائرة المعارف الإسلامية ،
وعلى هذا انحنو يتحدث الجامى عن الخمر فيما أوودنا له من شعر فى مقدمة هذا الكتاب ص ٦ — ٧

السابقين من نازلى القبور ، ممن تبشّث أقدامهم فى طريق التجريد^(١) ، وصفت أقدامهم فى مجلس التوحيد^(٢) ، شيوخ مسالك الطريقة ، وأسد ممالك الحقيقة ، المظهرون عن حب النفس ، قد وجدوا طريقهم^(٣) إلى تملك الوجود ، وختموا طبائعهم بميسم الزهد . كانوا مضايح هدى لأهل الظلمات ، وكان من الناس من يقبس منهم الأنوار فى دجنة الحياة ؛ يغمرونهم بالنور ، حيث استغنوا عن المصابيح والشموع ، واستضاءوا بنور^(٤) الجمع . آثار أقدامهم فى أى الطرق سلكوا هداية للناس . فرأى فداهم ، ولتمكن روحى تراب طريق وفاهم .

أيها الساقى ! إن قلبى قد انقبض دونى ، لم يدع من أمرى مستقيماً ولا معوجاً . فاسقنا خمرة تخلصنا بها لحظة من حب الذات والكبرياء . ورُدَّ شفاه الأمل مبتسمة من جرع كأس النقشبنديين^(٥) ، ونجسنا بتلك الطريقة من أهوال حب النفس والإعجاب بالذات . وإن كانت بغداد من قديم عامرة

(١) التجريد . هو تخليص النفس من جميع الأغيار ، ومن التفكير فى الذات بغية القربى السكاملة من الله ، وأما التوحيد فيقسمه الجامى إلى توحيد إيمانى وعلمى وهما إيمان لا يختص بهما المتصوفة ، ثم توحيد حالى وهو أن يلزم التفكير ذات الموحد حتى لا يرى إلا الواحد . ولا بد أن يصاحب هذا التفكير التوحيد العلمى لا التقليدى ويتمزج به حتى يروى الموحد بشرب التوحيد الموصوف فى آيه : ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون . راجع الجامى : نفحات الأنس ورقة ١٧ وكذا Massignon: op. cit. P 74,246,283

(٢) هذه العبارات تذكرنا ببعض عبارات لأفلاطون : Platon: op. cit. P 48

(٣) الجمع : الفناء فى الله : Massignon : op cit. P. 75 ويعرفه الجامى بأنه استغراق الموحد فى مشاهدة جمال الواحد فلا يرى غير ذات الواحد وصفاته وتلاشى ذاته كأنها قطرة فى تلاطم بحر التوحيد . راجع نفحات الأنس للجامى المخطوطة الفارسية السابقة الذكر ورقة ١٦ .

(٤) نسبة للنقشبند : وهو محمد بن بهاء الدين البخارى (١٣١٧ — ١٣٨٩ م) عاش فى ضواحي بخارى وتنقل فى مدن كثيرة وهو مؤسس الطريقة النقشبندية راجع جامى : نفحات الأنس مخطوطة فارسية بمكتبة جامعة القاهرة ورقة ١٩٤ — ١٩٥ .

بالجنيديين^(١) ، فقد غدت سمرقند الآن بغداد ، فهم خطيرة الشأن .
 وإذا سميت الجنيديين ، فثن بالعبيديين في قافيتك . وحين يفيض الطبع بفصيح
 القول ، فلن تجد أجمل من هذه القافية . ونظم موضوعه الرسوم الصوفية
 نظم بديع في الزمان ، حقيق بالخلود ، وجدير به الا يكون خالياً من هذا القوافي
 أيها الساقى ! ناولنا من تلك الخمرة المشرقة كالشمس في جام^(٢) جمشيد
 الإكشاف للعالم ، من تلك الخمرة التي جعلت من نور الإشراق الذي يكشف
 جوانب التاريخ قديمه وحديثه . فأين بهرام وأين قبره ، وعضده كالأسد^(٣)
 قوة ؟ ، وأين كاووس^(٤) وقصره الأشم الذي كان يطاول السماء ؟
 وجنكيز^(٥) الذي كان ذئب هذه الصحراء ، فتخلص الوادي منه ، وتغلب

(١) نسبة لجنيد وهو أبو القاسم بن محمد بن الجنيد الخراز ، صوفي ببغداد ، أصل أسرته
 من نهاوند ، درس الصوفية على أبي نور تلميذ الشافعي ، حج ثلاثين مرة على قدميه ، وكان
 يسمى سيد الطائفة : المرجع السابق ورقة ٤٧ .

(٢) جمشيد من ملوك إيران القدماء يعتقد أنه عاش حوالي ٣٠٠٠ ق.م ، ومن الأساطير
 المعزوة إليه أنه كان له جام ينظر فيه فيرى فيه الكائنات في الأقاليم كلها ، ويطلع به على حوادث
 الكون أجمع : انظر الشاهنامه تحقيق وتعليق الدكتور عزام طبعة القاهرة سنة ١٣٥٠م (١٩٣٢م)
 ج ١ ص ٢٤٣ — ٢٤٤ ، وكذا Jackson : Early Persin Poetry P. 96—99

(٣) وهو بهرام الخامس بن يزجرد الأول (٤٢٠—٤٣٨ م) وقد شهر بقوته وبراعته
 في الصيد ، انظر الطبري طبعة 558 de Goeje ، وكذا مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه طبعة
 ليدن ١٣٠٦ ص ٢٥٥ .

(٤) يسمى بالعربية كيقاوس وهو الملك الثاني من ملوك الفرس السكيانيين
 وهو ابن كيقباد في الشاهنامه ، وفي كتب أخرى أنه حفيده أو ابن أخيه ، ولقبه نمرود ،
 ويقال إنه حاول أن يطلع على صرح إلى السماء : راجع الشاهنامه تحقيق وتعليق الدكتور
 عبد الوهاب عزام ج ١ ص ٢٦ ومن ١٠٣ — ١٩٩ .

(٥) جنكيزخان المغولي ، ومؤسس الإمبراطورية المغولية المترامية الأطراف ولد عام ١١٥٥م
 ومات وهو يحاصر إحدى بلاد الصين عام ١٢٢٧ : راجع مثلاً : Brockelmann: Hist. des
 Peuples et des Etats Islamiques, P. 209—211

في مقلب الأقدار المتذبذبة ، وفقد روحه في حربه ؟ أين تيمورشاه^(١) ، شبيه
السد الحديدي ، في أمان من الفساد ، فاتح الثغرات ، قد صار في كف
العجز لدينا كالشمع ، ثم أسلم الروح محروما من الملك والمال ؟ وشاه رخ^(٢)
الذي عاش سعيدا بجدودا ، وبعد صيت حكمه ، أضحي على بساط رقعة
الآفات لعبة ، فبينما هو ملك إذ قيل مات .

أيها الساقى ! ادع التعلل لحظة ، واسقني كأسا من خمرة المجوس ، تلك
الخمرة التي يلبعث طيها من القلب ريحان دعاء للملك العادل ، ملك يأبى
الظلم ، شعاره العدل والكرم ، وما احتياجه للدعاء ، وعدله ملاذ العرش
والتاج ؟

بعد أن شد الفاروق عمر الرحال من هذا العالم ، بقي به صيته العادل .
وأما حين حزم الحجاج متاعه من هذه الدنيا فقد نجا العالم من ظلمات ظلمه .
فطابت بالعدل سيرة ذاك ، واستراح في روض الرضا ؛ وعاش هذا بظلمه
موضع الدم ، على ما يفتظره في العالم الآخر من أنواع العقوبات . ألا طاب
عيش من يلتصق ، وبغيره يعتبر ، فيضحك من عيب الموم ، ويقتفي أثر
من أحسن عملا .

فناول — أيها الساقى — تلك الخمر القديمة على السنين ، وصبها ياقوتا
مذابا ؛ فتلك الخمر حين يحتسيها المحبون ، يصبحون ولا هم لهم غير الوفاء والحب .
وهي مبعث الارتياح للخائفين النافرين ، وصلة المتقاطعين . ومن يتوافق

(١) المقصود به هنا تيمورلنك : راجع مقدمة هذا الكتاب ص ١ . ويعتقد بعض المؤرخين
أنه من نسل جنس كيز خان راجع دائرة المعارف الإسلامية . وقد ولد تيمورشاه سنة ١٣٣٦ م
وتوفي سنة ١٤٠٥ .

(٢) راجع مقدمتنا لهذه القصة ص ١ — ٢ وفي النص تلاعب بالألفاظ في كلمة شاه رخ إذ هي
أيضا اصطلاح في لعبة الشطرنج ولم أستطع ترجمة المعاني الفارسية إلى العربية بأكثر مما فعلت .

وصاحبَه يشمر نخل أمله الثمر اليانع . فالحبيب مفتاح كنز الأمل ، وأنشودة
العشق الخالد . ومن المقصود في الوجود غير الحبيب ؟ وأى جنى من كل
أنواع الصلوات غير جنى الحبيب ؟ ومنذ أول العهد بالوجود حتى آخره
لا يطير الطائر بأسرع من الصديق ؛ ولا يفتأ الصديق يغرد في بستان الصداقه
على أغصان الوفاء ، فيرسل من ألحانه اللطيفة ما يهدده به القلوب المهيمضة ؛ وليس
من عمل يفضل هذا العمل . ألا فداءً لمثل هذا الصديق كل الأصدقاء .

أيها الساق ! هذه أنفاس الفجر كالمسك الخالص ، وقد أخذت تهب
أنسام الصباح ، وتهب من الخمار رائحة الشراب ، فاصح واجذب إليك
دنا من تلك الخمر التي تحرق بنورها^(١) فراشة العقل ، حينما تتقيد بها شموع
الروح . وعندما يحترق العقل ينمى العشق ، ويموت عصفور العقل ، لتزفر
العنقاء بأجنحتها . فتحرر من وسائل العقل ، وكن طليقا من عقاله ، حتى
تربح في تجارة العشق وتطمئن في ظلاله . فالعشق أينما كان طهر وزهد ،
والعقل حينما كان مكر وحيلة .

أى جامى ! يجنون الاشتغال بالعشق ، خلص نفسك من التصنع ؛
وإذا لم تبلغ شرف تلك الرتبة ، ولم تمارس أصول جنون العشق ، فاجلس
واتل القصة ، وانثر السجر من حديث ذلك الإنسان الذى 'جن'
من العشق .

(١) الصوفية يؤمنون بأن المرء يصل إلى الحقيقة عن طريق القلب لا العقل ؛ راجع مثلا
الفصل الأول من الباب الثالث من كتابي : الحب العذرى وحب المتصوفة .
(م ٢ — ليلي والمجنون)

(٤)

الحلقة الأولى في قصة عشق ليلي والمجنون

كاتب تاريخ العشاق ، ذو الأسلوب العذب والكلام المطرز ، عند ما بدأ في حديث سيد العشاق هكذا سطر على لوح البيان قائلاً :

كان في بني عامر رجل رفيع القدر . سعيد الطالع ، بدر يتألق في أفوج الشرف ، موموق من العرب لطيب فعاله ، مرموق من العجم لرقه شمائله ، تجمعت له أسباب المال والثناء ، ووفر من الدور والمروج . خيامه المضروبة تضفي على الجبل والسهل منظر مخيم ضخم أقيم على بساط الغبراء^(١) ، تتأخم طلائعه المعمور من أرض اليمن . ضاقت الجبال والسهول في وجه الغزلان من كثرة قطعانه . وقطعان إبله جبل أشم فوق الجبل ، شائخة المنظر جميلة المظهر ، مرعاهها الأرض جمعاء . خيله تغدو وتروح في كل الأرجاء ، كأنها قطعان لا حصر لها من حمر الوحش . بابه مفتوح للضيوف يدعوهم إلى مأددة كرمه . في السهل والجبل ، ومن الليل حتى الصباح ، يُوقِدُ النار ليحلب الضيوف . يُسر السائلون بطلاقة وجهه . ويصير خرابهم بجوده عامراً . وقد جرى ذكره في كل قبيلة ، بما تفيض به كفه من أياد جميلة . تنقبض عما تجوده به كفه يد حاتم . ويقبّل لديه سادات العرب الأرض تبجيلاً ، ويسعى ملوك العجم إلى صداقته على ما لهم من مكانة وموфор دولة . وله من جاهه آلاف مظاهر الجمال والسعادة ، وخير منها

(١) كانت المبالغة في الوصف طابع العصر ، ويقصد الجاهل بتلك المبالغات أن يجعل قصة المجنون أمراً بين الواقع والخيال ، ليتسع المجال له لإبداء آرائه والتعبير عن عواطفه على لسان المجنون .

أنه كان له عشرة^(١) أولاد كل منهم غصن في شجرة الحياة ، وقصر أشم في مدينة الأمل . ولكن كان له ابن من بينهم هو أصغرهم ، وكان قلبه متعلقاً به أكثر منهم نعم في اليد عشرة أصابع ، تتعاون كلها فيما لليد من قوة ، ولكن من بينها — في حالتها فرح أو ماتم — الإصبع الصغير هي الجديرة بحلية الخاتم . نعم كان هو في برج الأمل ميمون النقيبة ، قرأ مضيئاً وشمساً مشرقة . يُمْنُهُ يفوق حد القياس ، واسمه قيس . وعندما خطا نحو الرابعة عشرة من سنه ، بدأ يغشى بدر وجهه كلف العذار . قد طاب خط ياقوت شفاهه ، ونُسج من المسك شعار قمر وجهه . من جبينه يشع نور القمر المتألق . وهو شمس مشرقة على الأرض . حواجبه محراب الغايات ، وقبله دعاء المتقين ، وقد هُ نخله عجب تسبي القلوب ، يتساقط منها الرطب على مكلمى الفؤاد . كأن حول فيه خيوطاً من الفضة ؛ وقد دق خصره كالشعرة . وكرة ذقنه خالصة لم تشبها خضرة الشعر . ويتمنى الغيد ذوات الحدود الوردية والقودود الممشوقة كشجرة السرو أن يكن صولجاناً في هوى تلك الكرة . وهو مفظور على حسن الخلق ، مطبوع على الأدب ؛ طب بصناعة القول ، شغوف بالشعر ، ماهر في تدبيجه . فإذا ضم ياقوت شفتيه ، فإنما تتلمس أذنه طريقاً إلى سر . وإذا تفتحت شفاته كابرعمة الوردية الصغيرة ، فإنما ليقول لطائف لا تحصى عن روية وإمعان . وطالماسطر بنانه خطوطاً كذوائب الحور ، بدائع من القول على ألواح من الكافور . وكل ما يخطه يغرى من يجيدون الكتابة بتمزيق ما كتبوا . وقد اعتاد أن يتجول في السهول والجبال ، مع طائفة من الشبان ، تنفح ثيابهم عطر مسك الغزلان . فحيناً كان يلعب معهم على سفوح الجبال ، يختال مع الحجلان ، وحيناً كان يجلس

في شعاب الوادي وقع على الأوتار ألحان الطرب ، وآونة يتوجه إلى أرض
ذات عيون ، لين غسل عن نبع القلب ما علق به من غبار . وآنا يحزم أمتعته
متوجها شطر المروج ، ليحط عن قلبه هموم الدهر ، حاملا عصا التسيار
ما عن له . إذ كان قلبه فارغاً من شجن الأيام ، فلم تحترق بعد كبده بنار
العشق ، ولم تجر في أجفانه دموع الشوق . ولم يتمزق ثياب صبره ،
ولم يعمان بعد للحب أنات . ففي الليل كان يأخذه نوم الخليلي ، فيسبلي
مستغرقاً على سرير العافية . ويفتح له الصبح أبواب الأمل ؛ فيولي وجهه
حيثما يترامى له . فإذا جذبت أمنية عنان قلبه تيسرت له كما يشاء . وهو قرّة
عين والده لمكانته ، ومبعث السرور في قلب والدته لجماله . ولم يساورهما
قط قلق التفكير فيما يبيّت له القدر .

عجب حال ابن آدم ! يعيش مطمئناً إلى هذه الدار موطن الأحزان ،
غافلاً عما كتب على جبينه ، وعما وُضِعَ في طيفته من بذور ، وعن غصنه
الذي ينمى على الماء والتراب : أنحلوا في الفم ثمرته أم تُمِيرُ ؟

(٥)

غرام قيس^(١) قبل تعرفه بليلي

من عجنت طبلته بالعشق ، وخَطَّتْ على لوح قلبه كلمته ، فلن تمحي تلك الكلمة من لوجه ، ولو أمضى عمره في غسله منها ومحوه . وسيتغنى كل لحظة بخليل ، وسيعزف بقيثارتته على إثر عشيق ، ويجوس كل مكان عارضا روحه ثمنا لما يريد اقتنائه ، حتى يقع هو في النهاية أسيرا . وقد كان قيس خارج قياس العقل ، واسمه يحمل على الاعتقاد بأنه مجنون^(٢) . فقبل أن يقع أسير ليلي ، كان قلبه ميالا إلى كل حسنة . وكان له راحلة أسفار ، يضرب بها في كل الطرق والديار ، شعرها في لون الشفق^(٣) حمرة ، معقود الحلقات كشعر زنجي . وكان مثاله في إشراق وجهه فوق تلك الراحلة الحمراء مثال هلال مظل من الشفق . شبيه الفلك لا تطمئن به من الرحيل دار . السهل والجبل أمام دوراته سواه . فكان ينساب في الأودية ماء ، ويتسنى قلل الجبال إعصارا . يمتطي راحلته كل يوم منتقبا في كل الديار ، قاصدا كل قبيلة ، باحثا عن كل غادة جميلة .

وذات يوم كان يطوف على هذا المنوال إذا به يمر بقبيلة من القبائل ،

(١) يأخذ المؤلف برواية الأغاني أن قيسا أحب قبل ليلي : انظر الأغاني طبعة دار الكتب ج ٢ ص ١٢ - ١٣ . وعمد بذلك التحليل النفسي لما سيبلغ الهيام بقيس ، والجامي فنان بارع في اختياره للحوادث التي تتقدم بها القصة ، وتضيء الجوانب النفسية لشخصياته ، وهو يفوق في هذا الميدان نظامي .

(٢) يريد المؤلف أن يشتق بطريق التكلف من اسم قيس معنى أنه خارج القياس أي مجنون

(٣) أي أنها من حر النعم .

وبينما يُقلِّبُ الطرف فيما حوله ، رأى جمعاً من الحسان ، مجتمعات
 في حفل حلقة من النجوم ، وفي وسطهن قمرٌ تبوأ مقعده ؛ قمر يَبْزُ سناه
 ضوءَ الشمس ، إذ يغزو بنوره القلوب . فدنا منهن محيياً ، وسأل عن اسم
 ذلك القمر وحسبه ، ف قيل له إن اسم تلك الحسناء كريمة ، وهي حسيبة
 في أصلها نسيدة . وبعد أن استجاز منها في الجلوس ، أناخ بساحتها جملة
 وعَقَله ، ثم جلس يتأمل في محياها فأثر ذلك في فؤاده ، وظل يباديها
 الابتسامات وعذب القول ، ويحادثها في دلال ، وكان الكلام يسيل من
 شفيتها ، لؤلؤا يساب من عقيق رطب . وثنت هي عليه بطيب الخطاب
 فسقت به من كأس شفاهها الخمر ؛ ففقد قيس على قولها عنان صوابه ، وصار
 ثملاً بدون شراب . وارتويا كلاهما من نفس الكأس . وما إن تناولا منه
 بضع جرع حتى غابا عن أنفُسهما . وبقيتا على حالهما تلك بعض الوقت ، حتى بدا
 من بعيد شاب^(١) مقبل في قد كالسروة^(٢) في روضة الحياة ، عليه حلة الصبا ،
 تمتطيا راحلة عداءه ، يتألق وجهه تألق النجم الثاقب . وهشَّشْن له مقبلات
 عليه مرحبات بقدومه . ووسَّوست الخلاخل في ساقهن كأنها الجلاجل
 في أكف المطربين . وحين رأى قيس هذا منهن ، نهض مضطرب الفؤاد وجميعه
 وولى هولاء الحسان ظهره ، وأخذ بزمام ناقته في قبضته . فلما رأى أن سرّاعه
 بالانصراف ، صَحْن وجرين في أثره قائلات : « لا تتعجل هكذا يا قيس

(١) هو منازل كما تروى الأغاني ، وقد ولي قيس عنهما وهو ينشد .

أعقر من جرا كريمة ناقي ووصلي مفروش لوصل منازل
 إذا جاء قعقن الحلى ، ولم أكن إذا جئت أرضى صوت تلك الخلاخل
 متى ما اتضلنا بالسهم نصلته وإن نرم رشقا عندها فهو ناضل

الأغاني ج ٣ ، ص ١٣

(٢) جمه سرو ، وهو شجر قويم الساق حسن الهيئة ، وكثيراً ما تشبه به قوائم النساء
 في الأدب الفارسي .

في الانصراف ؛ وعد إلينا عاتبا . لا تدعنا نحرم جمال طلعتك . واجلس
لنروى بالنظر إلى وجهك الجميل . فإنه ، وإن لم تتح لنا متعة الحديث معك ،
قد ربطتنا بك صلة أزلية . فلن تستطيع أن تسحب يدك من عهد الوفاء ،
ولا أن تقطع حبل ذلك الولاء . « وعلى الرغم من أنهم جدّدن في أثره ،
محتالات على رجوعه بمئات الطرائف ، فقد صارت نارهن رمادا ^(١) ،
ولم يكن لأقوالهن من طائل . ولوى قيس عنهن عنانه ، بمطايا راحلته ،
وأخذ يحدو :

أيها القلب دع عنك أمر كل صديق لا وفاء وله ، وعش خليا . فذلك
الإنسان الشبيه بالوردة ذات اللونين ، أي رائحة للوفاء ترجو منه ! وماذا
أفعل بهؤلاء اللاتي حين وصلت إليهن بقين كالجبال ، طاويات أقدامهن
في أذيالهن . على حين إذ تراهي لهن منى إقبال ، أدبرن عنى مترنمات
بوسوسة حليهن . فلو أصبحت غبارا فحاشا أن يطير بي الهواء لتلك الديار .
ولو غدوت سحابة ينثر جوهر مائه فحاشا أن تنزل منى قطرة على ذلك المكان .
وخير أن تلوذ بالصمت عما جرى ، وأن تلسى كل من ضمنه ذاك الجمع .

(١) في الأصل صارت نارهن دخانا .

وقوع قيس عن اختيار في حب^(١) ليلى كالصيد الزاهل

عند ما عاد قيس موجه الفؤاد آسيا ، هاربا من شموع الحسان في تلك القبيلة ، كان كل ليلة يبحث عن مصباح يضيء به أمسياته ، مستخبرا عن الغيد ذوات الحدود كأوراق الورد . وكل امرئ مر به — أيا كانت قبيلته — اطلع منه على حاجته الملاحية إلى حب ، إذ كان يقول له : أى خبر لديك عن الفائنات ؟ قص على كل ما لديك من أمرهن . فريوما على جمع بدياره ، ورأوا منه هذا الشغب ؛ فقالوا له : إنى قبيلة كذا غيداء ذات عيون خوراء ، اسمها ليلى . وكثير أولئك الآلى وقعوا فى حبها . لطيفة الخد ، تفرق فى جمالها الوصف . فاذهب بنفسك ل ترى ما هى . ولا تعتمد على أذنك أيها الخبير . وما رآه كمن سمعا . وسمع قيس هذا الخبر ، فنهض لساعته ، وتزيا بأحسن لباس ، وردد الآهات ما يعلج بصدرة من أشواق . وامتطى ناقته تقطع الطريق نحو الحبيب . يحدوها الأمل إلى ليلى ، حتى أظله حبها . ولما رآه أهلها استقبلوه فى مروءة وشهامة . ووجهوا إليه عبارات الثناء . وأحلوه فى صدر مجلسهم . ولكنه كان يحيل نظره فى كل جهة ، فلا يعثر على أثر لمقصده ، حتى جرى فى قلبه دم اليأس ، فإذا هو تجاه حبيبته ، وقد نم لسمعه عنها وسوسة حليها ، ورنين خلفها . فرأى قيس قدأ من كالسروة^(٢) فى حلة الرشاقة والدلال . أو كأنها حجلة^(٣) ، أو تدرج^(٤) يخطر فى وجهه يفوق الوصف ، ليس به من أصباغ ، ولكنه وردى اللون .

(١) الأغاني طبعة دار الكتب المصرية ج ٢ ص ١٠٣ .

(٢) شجرة يشبه بها القوام المشوق فى الأدب الفارسى .

(٣) طائر .

(٤) الديك البرى .

لها جهة - حين تجلوها - لوح من الفضة ، لا بل قرن البدر التمام . حاجباها
 ينفحان العنبر . أهدابها مصوغة من المسك ، ولاكنها سهام تنفذ إلى القلب
 وعينان تحسبها بهما ظيباً ، تتعلق بهما أنظار من يراها فلا يبغي عنهما حولا ،
 وشفتان كالمرجان ، ولاكنهما ليستا من الحجر . لهما لطف الخمر ولون الياقوت .
 فمها الضيق يطر الشهد ، كأنه في حديقة الخند نحلة عسل وقعت على أوراق
 الورد من خدها وقوع الصنّاع ، فلا سسستها بحمتها ثم عادت بالشهد .
 وينفرج الفم عن عقد من الجواهر ، لؤلؤه الأسنان ، كأنها براعم بيض
 بليلة بأنداء الصباح . وذقنها الفضي في جمال التفاح ، فضته عجب تسحر
 العقول . وبوجهها خال من المسك كأنه حبة صُنعت من اللطف . ودون
 الوجه عنق كأنه كأس فضة . وقبضة يدها ذات أصابع فضية مستديرة .
 وكل شعرة من غدائرها أحبولة تصيد القلوب

وما إن أقبلت ليلى بهذه الشمائل حتى ولى قلب قيس من مكانه . وطاب
 منظر كليهما الآخر ، واشتعلت بساحة صدرهما نار الحب . فصوبت
 ليلى أقواس ذوائبها ، وطال باع قيس في هوسه ذرعا . ورفعت ليلى النقاب
 عن خديها ، فأسلم قيس صبره وعقله الريح . وأطلقت ليلى سهم الحب
 مسموماً ، فأرسل قيس على الأثر صيحة الهلاك . وافترت شفاه ليلى بمبتسمة
 عن الشهد ، فانهالت من عيون قيس درر الدمع . ليلى نديّة الجبين بماء
 الشباب ، وقد طهر قيس بماء شبابها صفحات عقله ودينه . فكانت ليلى على
 رأس الحسن والدلال ، وأخذت تلعب برأس قيس دلائل الهيام . وموجز
 القول أنهما تمتعا كلاهما بما لذ وطاب على مائدة الحب . وما أشبههما معاير عمة
 ورد ذات رأسين جمعتهما ألفة مشدودة الأواصر . وبعد أن قطفأ جنى
 النظرات ، أخذتا يستمتعان بعذب الحديث ما عنّ لهما ، لا يقصدان إلى

قص حقيقة ، لا ولا إلى شكوى من هم قديم أو حديث . بل كانت الغاية من الحديث نفس الحديث . فقد كانا طليقين من كل أسي ، غافلين عما يزخر به هذا العالم من صنوف الهم ، إلا هما واحدا ، هو التفكير في أنه عندما ينتهي يوم الوصال ويفجؤهما الليل كيف ينأى كل منهما عن سلبه روحه ، ومن لهما بتحمل البعاد ؟ وقد أفصح كل منهما ، دون أن ينطق ، عما يدور في خلد الآخر . وجاشت نفس كل منهما بهذه الخواطر :

« أنتحب أسي مفكرا في مساء هذا اليوم ، ألا فليخلد هذا النهار يارب دون ليل ، فاحم يارب هذا النهار من ظلمات الدجى ، وليبق مشرقا حتى يوم الحشر ولتصر الليالي نهارا دائما » .

هكذا فكرا ، ولكن متى غير الفلك من دورته ؟ فما لبثت الشمس أن غربت ، بعد أن كانت قد نشرت في المشرق علمها الذهبي . فانفصل قيس عن ليلى ، وقد قاسيا ما قاسيا من هذا الفراق ، فامتطى قيس راحلته إلى المسكن ، وبقيت ليلى خائرة القوى في أرض الوطن .

(٧)

ليل المحب^(١)

حين رمى المساء من طرف القبة الزرقاء كرة الشمس الذهبية بسهمه ،
غابت في ظلمات بئر الغرب ، فغشى الكون على الأثر ظلامٌ شامل . واختفى
طاووس الشمس من حديقة العالم العتيقة ، وأخلى المكان لظلمات كأنها
جيش من الغربان ، نشرت أجنحتها على قبة السماء ، وانتشر من بين ضحاياها
على تلك القبة ما اتفقت به آلاف مشاعل النور ، فكأنه يبيض مضى
من كافور . وكان قيس نائياً عن ليلي ، قد حط رحله في منازل قومه ،
فكان مقبلاً بحسمة فيها ، وروحه مع ليلي هدف لسهام الآلام . به عجز
السليم ، وقلبه نهب الخواطر . يردد اسم ليلي ودموعه تهمل ، مهمل على رأسه
عشيرة الهموم . يردد اسم ليلي وآهاته تشق طريقها إلى السماء . ومهما علم
نفسه بالآمان ، فقد ضلت حيله في طلب النوم . ولم يستقم له أمر على حيلة ،
فظل يرقد ، ويجلس ، ويهضر . وما إن يمس جنبه سريره حتى يهرب النوم
من جفونه البليلة ، حتى لكان في كل خيط من خيوط فراشه مئات
من الأشواك تنفذ في جنبه . فإذا جلس ، رأسه على ركبته ، مستسلماً بضع
لحظات ، تراءت له كل صور المحنة . وإذا نهض يدير وجوه الرأى ، أخذ
يقفز من مكانه أسى مرسل الصيحات . في صدره هم أثقل من الجبل ، يتلوى
به في رقصة المكلوم . ولما أعيته الحيل في الخلاص من الليل ، أرسل
الشكاة من طوله قائلاً : يا ليل الهم ما أقسى ما بك من بلاء ، أيها الليل !
بل أيها التسنين الأسود ، تلتشر مهولاً على الأفق من بعيد ، فتطبق فكيك

(١) الأغاني طبعة دار الكتب ج ٢ ص ٤٤ — ٤٥ ، وتزيين الأسواق للانطاكى

على الطيب والحديث . أما وقد انزعجتني آملي من شفاه الحبيب ، فقد وقعت
منك بين فكي تنين . فأين الصبح ليشفيني برقياه من أهوال الليل ؟
هكذا كان شأن قيس من حرقه الفارقة منذ المساء حتى مطلع الفجر .
وكذلك كان شأن ليلى في منزلها مكلومة الفؤاد والهة ، تتذكر طيب صحبة
قيس ، وترسل مر الشكوى من ألم الفراق . وما كان يعانيه قيس في بؤسه
من ألم ، كانت تقاسيه ليلى في بعدها منه . فلم يغمض لها جفن على ذكره ،
تطلق الدمع من عيونها قائلة : قيس كالطائر المحلق يخف إلى أى مكان يريد ،
أما أنا فكفراش منزلى لا أبرح عنه خطوة ، وليس لى أن أذهب للقاءه .
ويا قلبي من الآسى إذا لم يعد . فالرجال أينما كانوا محدودون . أما النساء
فمهيضات الجناح . فليس من شأن المرأة أن تتردد على بيت الحبيب ، وليست
سيدة أمرها . والعشق الذى تطول به أعناق الرجال ، هو محمود من الرجال ،
ولكنه من النساء عيب وخطأ . ولو كان فى قلبه جزء من مائة مما أعانى
فالأمل فى وصاله قليل ولا يمكن لم ينقطع ، وإلا فرحباً بالبلاء الذى حل ،
ولا يبرح هذا الخاطر الطريف ذاكرتى .

وما زالت تردد تلك الانشودة حتى مطلع الفجر ، وقلها نهب لالسنه
لطيب الحب .

وموجز القول فى أمرهما أنهما عاشقان وفيان ، كلاهما مبتلى
بالفراق ، يقطعان بأرواحهما طريق العشق طوال الليل ، يستلج لهما
بقالهما من التفكير : ماذا يلد الليل ؟ وماذا يكون إذا أسفر الصبح ؟

(٨)

عَقِيَّة

حينما أسفر الصبح عن أنفاس كـأنفاس عيسى ، ونشر عـلم غلالته
الصفراء ، ورحلت أنفاسه مسكا خالصا بثته في الأشجار الخضر والزهور
المتفتحة ، وبسط رايته المزركشة ، فزشر في الأرض جواهر الأزهار من
صدفية وزرقاء ، حينذاك تخلص قيس من فم تنين الليل ، وأمسك عن إرسال
الآهات والزفرات ، وصاح للرحيل بناقته الأليفة للأسفار ، وسلك سبيله
دون تفكير واع ، مرتلا في طريقه أناشيد الشوق حتى ساحة خيمة المحبوب ،
فكان باب خيمته هاديا من ضلال الطريق ، وحارسا لزاما ناقته من بعيد .
وقبل أن يبصر أثر الخيمة أخذ يناجيها بهذه الكلمات : « يا قبة النور ومطلع
الشمس ! في ظلك شمس مخدرة . ليلى نور عيني أنت لها دوني حجاب .
إن دموعي رطبة بالدمع كأردائك حين يبللها المطر . فترحمي لبكائي ونحيبي ،
واحسري حجابك عن طلعة حبيبي . أنا منك أيها الخيمة كأحد أوتادك ،
لا يحملني على الانصراف عنك أن يصيب رأسي حجر . وأنا كأحد أطنابك ،
مهما حاولوا لي وطبي فلن أبرح مكاني منك ، وكأحد عمودك دائم المقام
لا أريم . قلبي ينوء بحمله بدون الحبيب فخطى عنه هذا العبء . ويا ستار
بابها لماذا تحاول جاهدا محاربتى ؟ ولماذا تستر عني خدود حبيبتى ؟ وإذا
كان جورك عليّ يمزق مني الجيب جفاء ، فإن يدي متعلقة بأذيال الوفاء لك .
لقد مضيت ليلة أمس محترق الفؤاد باكيا ، فيا ويلتا لو مر يومى مثل
البارحة . أنا كما تدرى محترق الكبد عطشا ، وليلى ماء حياتي ؛ فأتح

لى أن تجود ليلى على شفتى بقطرة تطفى نار ظمئى . هأنذا من حبها فى نار،
وهى فى نشوة الطرب ، رضىة الفؤاد ، هنيئة القلب .

وعلى الرغم من أن قيساً لم يرفع صوته بهذا القول ، فقد سمعت ليلى
بحواه تلك من خيمتها ، فشبت فى صدرها ناره ، وانجهمت إلى الباب حيث
وجهة زمامه . فرأت قيساً فوق نافته كأنه أصبح أشرق لوجهها ؛ ونثرت
جواهر القول من ياقوت شفاهها ، وجادت بشهد الحديث من خلية فمها ،
وقالت : « أيهذا المتغنى غراماً بمحيى ، وفى قلبك لى حرقه الشوق ، قد
احتل الألم قلبك ، واتخذ من صدرك منزلاً ، أو تساورك الظنون أن طائر
هذا الألم قد عشم بقلبك وحدك ؟ ألا فليبق بستان عيشك ضاحك
الجنبات ؛ إن بقلبي أضعاف ما تعاني من ويلات ، ولكنى لست مثلك فى أن
يباح لى حديث ، أو أن أنقل نحوك قدم المسير . فما تستطيع أن تبوح به من
أسرار لأملك أنا سوى دفنه فى سرائرى . فللعاشق أن يدق طبول عشقه ،
وأن يمزق من آلامه الشيا ، بينما على محبوبته أن تبقى مؤترة بلباس الحياء .
وللعاشق أن يحلو بشكواه عن أسى قلبه ، وعلى من هام بها أن تحفظ السر حبيساً
فى الفؤاد . وله أن يطلق العنان بعيداً لصيحات آلامه ، وعليها أن تظل على
الصمت صبورة . وله أن يبكى جهرة ، وعليها أن تسكتم آلامها المبرحة .
وله أن ينطلق فى طريق الطالب ، بينما تظل قعيدة بيدها . وقد تصل آهات ألمه
إلى العيوق ولا تلقى لدى الحبيب جواباً ، وتظل هى منظوية تتعملل بأمل
الوصال ، ولكن من يوقع على قيثارة العشق ، عاشقاً كان أو معشوقاً ،
يرسل من توقيعه نفس الألحان ، إذ كلاهما يشكو بلحن واحد من الفراق ،
والعيش على ذكرى الحبيب ودعائه .

وحين سمع قيس هذه الأنشودة استخفه طرب العاشقين ووله المحبين ،

ومزق ثيابه على ذوق تلك العبارات ، وسقط على الأرض يريد أن يظل دون قدمها كظلمها ، وأخذ يفضي إليها بسر ما مضى ، ويشرح تباريح الليل الذي قضى . ولكن أصدقه جروا إليه من كل صوب ، مرحبين به أيما ترحاب ، فآبت تلك الدرة الفريدة إلى خدرها ، وأمسك قيس لهذا عن مناجاة روحه ، وعاد محروما من غايته جريح القلب مكلوم الفؤاد ، وآب فريسة الهموم والألم . وأخذ يردد في نفسه هذه الشكوى :

« ألا أيها الأعوان والخلان ! اتركوني وإياها لحظة ، حتى أروى برؤية جمالها ، وأتمتع بلذة وصالها . وأية حال أسوأ من مكلوم الفؤاد ، أمضى ليله في أسى الفرقة والانتظار ، يفيض ناظراه بدم قلبه ، حتى إذا أسفر الصبح رده الوصال طروبا ، ولكنه لم يجد مجالا للنجوى وشرح حاله لدى الحبيب ! بل أقبل عليه من بعيد قوم حالوا بينه وبين أعز مقصد لديه ، وعقدوا لسانه عن الكلام ، وشدوا وثاق روحه دون الإبانة عن الآلام . فلا رأى أحد أمثال هؤلاء ! ولا أدرك منهم إلا أذيال الحسنة يجرونها مدبرين . »

وأما قيس يومه على هذه الحال ، في عجب من الهموم والأهوال ، وانتهى به الليل على هذا المنوال ، وفي الصباح شدر حاله إلى منزل الحبيب ، فحث الخطا من جديد في طريق ليلي . وأبصر بخيمتها خالية من الأغيار ، ليس بساحتها من حط الرحال . فقبَّل عتبة المكان ، وظل واقفا وقفة الغلمان . ودعته ليلي من خيمتها ، وأجلسته مجلس الاحترام . وتمتعا بساعة وصال ، وفضا المختوم من أسرار العشق . كلاهما معشوق وعاشق ، كالسكر واللين ، كلاهما لصاحبه موافق . فكم أمالت ليلي برأسها في صنوف من الدلال ، وبقي نظر قيس معلقا بتلك الطاهرة الأذيال . فهذا قيس قد خطَّ عذاره ،

ولا تتأمله ليلى إلا وتنبأى بها الخواطر عن مذهب العقل . وقد تحلَّ ليلى
عقدة من غداثرها فيسلم قيس دينه وقلبه . وقد يفتقر ثغر قيس عن سحر
التعبير ، فتجيبه ليلى بشهد القول . تصوَّب ليلى إليه نظرات المحب الواله
سهاما ، فيحترق لها صدر قيس ويفيض قلبه سقاما .

وجمل القول أنهما صديقان توثقت بينهما أواصر الحب . لتلك الصدر
في مجاس الدلال ، ولهذا صدق العزم في الصمود لما يلاقى المحبون من آلام .
وقد أمضيا عمرهما — كما تعلم — في العشق وشئوننه . ليلى لا تبالي
بِنَصَبِ الوجد ، وقيس لا يخشى قرحة الملام . وليلى كنز راحته
وسروره ، بمتأى عن ربح الدهر وخساره .

(٩)

الناقة ورضيعها^(١)

العشق — أول العهد به — سرور وطرب ، أنشودته عازبة^٢ عن ألحان
الأسى ، لا مجال فيه لآلم المغرم ، ولا شكوى فيه لجراح اللوم ، فهو كمنز
الراحة والرضا ، ينأى بخواطر صاحبه عن خير الدهر وضرره ، كالخمر في
بدنها ليست إلا سروراً ولذة ، لا تثير اضطراباً ، وإنما تنقص^٣ الهم
وتزيد المتعة ، وتمحو من القلب غم النهار والليل . فلا يستعصى على دوائها
ألم ، ولا تثير إذ ذاك غول الخمار في الرأس من سقم . وكان قيس طروباً
من خمر العشق ، خالى البال من نوب الدهر ، لا هم له مطلع كل يوم إلا
التفكير في شأنه ، فكان يشد رحاله ، ويعقد الأحرام إلى حرم حبيبته ،
وعندما يحدو به الإقبال إلى تلك القبيلة ، يُخَيِّلُ^٤ إليك لسرعة سيره أنه
محمول على آلاف الأجنحة في الهواء . يهش فؤاده لروح الوصال . ويسير
سير الريح بدون عناء . فهو في ذهابه سهم منطلق . لو صادفه في طريقه من
الاشواك والخصى ما يشبهه مباح الجراح ، وجدها ألطف من بساط
العشب . وحين يرى أمامه التلال يتلو بعضها بعضها كأنها من القميص نار^٥
موججة ، تبدو له وكأنها قبضة^٦ من رمل دافئ .

(١) قد تأثر المؤلف في هذا الفصل من قصته بهذه الأبيات لعروة بن حزام :

هوى ناقتي خلفي ، وقدامي الهوى وإنى وإياها مختلفات

هوى أمامي ، ليس خلفي معرج وشوق قلوصي في الغدو يمانى

هوى عراقي ، وتثنى زمامها لبرق إذا لاح النجوم يمانى

متى تجمعي شوق وشوقك تظلمى ومالك بالعبء الثقيل يدان

انظر ذيل الأمالي والنوادر طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٢٦ ص ٥٩

(م ٣ — ليلي والمجنون)

وإذا مَزَقَتْ كَفَّ قدميه قطعاً سهامُ الأشواك وسيوف الحجارة ،
بداله في كل مُزَقَّةٍ منها برهانٌ على صدق عزيمة . فاذا ما عاد من لدن قبلة
روحه ، فطريقه طويل كطريق الكعبة ، كل خطوة في حساب خاطره
المصاب ألفُ فرسخ . يعود وعينه تقطران الدمع . يجرّ خطوه ثقيلًا
كأنه ماء يصعد . فاذا وضع قدمه في منزله قَفَّ شعره مما بقلبه من لواعيج
الأسى . وكلما التفت في طريقه إلى الأمام مرة ، التفت إلى الخاف مائة مرة ،
لعل آيبًا يحمل من خلته بعض الطيب ، ويفضّى إليه بخبر عن ذلك القمر
الحبيب . فهو في طريقه إليها كسيل ينحدر من قلة ، وفي إيايه كأنه الجبل
ثقلًا . وهو في ذهابه كالريح ، وفي أوبته كالماء الراكد .

وفي ذات يوم كان جسمه واهنا من الحمى ، فلم تسعف قدمه بالذهاب ،
فاستعان بمطية هي ناقة ذات جنين ، لا قرار لها بدونه ، فلو جمل بينها وبينه
وَهَنَتْ قواها عن السير . ففصل قيس الناقة من رضيعها ، وجَدَّ بها في
طريق مَنْ لديها قلبه . وحين قطع بضعة أميال من الطريق ، استغرق في
تفكيره في ليلي ، فأحسَّت الناقة بضعف القيادة ، وَثَنَتْ عنها آيبة إلى
رضيعها . ولما أدرك قيس أنها تقطع الطريق إلى ولدها ، وعرف ما عرف
من أمرها ، وأنها ذاهبة به إلى غير وجهته ، رَدَّها إلى مقصده ، حاديا
بأنغام الشوق . وبعد مسافة أخرى من الطريق وجدت الراحلة نفسها نائية
عن ولدها ، فرجعت في نفسها وله الحنين . وغاب قيس عن وعيه مرة أخرى ،
وطارت به عنه سورة العشق ، وشعرت الناقة أن قيسا عنها لاه ، فرجعت
في طريقها من جديد . فلما أفاق قيس أعادها إلى الطريق مرة أخرى . وضاق
قيس بأمرها ذرعا ، إذْ تَكَرَّرَت الواقعة أربع مرات . وأدرك قيسًا
مُحْزَنٌ عميق على أثر الترداد بينه وبين الناقة . فأبرز من صدره هذا السر
الدفين قائلا :

إن ذلك الكنز الذى أحث الخطى قدُماً إليه هو أسمى ، وذلك
الفصيل مشار غم الناقة ومبعث راحتها قد خلفته وراءها . فاذا سارت بي
نحو مقصدي ، فهى دون مقصدها فريسة التباريح ، وإذا تبعته لغايتها ،
شرق بغصصه ذلك القلب الجريح . فصحبتنا على هذا المنوال من
المحال ، ورضانا كلينا خيال . نخير إذن أن أحل عقدة القلب وأتركها ،
ليتبع كلانا الطريق الذى يحلو له .

هكذا قال ، وحل الرجل عن الناقة ، ففكَّ رويدا رويدا وثاق قلبها .
فعادت ليعطينها وسلك هو وحده إلى ديار الحبيب . وبينما هو منطلق
في طريقه تغنى منشداً :

« تعلق بمن يهواك ، ودع جانباً أمر من ينأى عنك . ودُم على طريق
الوفاء ، وأغلق دونك باب الجفاء . ومن امتنع عن صحبتك فى طريق ، فاح
من طوبتك كل أثر له . وإذا دفعك الحب إلى سلوك الطريق ، فحسبك خيال
ليلي من رفيق . فاذا كر ليلي وولَّ وجهك شطرها ، وانشد الراحة فى حماها .
فليس محموداً من عالمك سواها . وغيرها على قلبك غمة . فاقطع عما عداها
حبل الوصال . وأنا بجانبك عن ذميم الخلال ، .

وصنع من هذا القول أنشودة تغنى بها ، راقصاً فى مسيره على حسب
عادته كل يوم حتى منزل من هام بها . وهناك رأى بعينه ما رأى ، وسمع من
الأسرار ما سمع . وحين أقبل الليل عاد من ذاك المقام ، طيب الخاطر
بما حظى من الوصال . عاد كئيها وقد ذهب طروبا . ألا فليكن هذا حال
العاشقين .

(١٠)

برهان المحبة^(١)

من خط عنوان صحيفة هذه الآلام ، سطر قائلاً هذا الكلام :

أرادت ليلى أن تَسْهَرَ غَور حب قيس ، وأن تقف على ما يفهم
الأسى بقلبه إن مالت إلى غيره .

و ذات يوم اجتمع حسان الحى من غيد وشبان ، من كل فائنة حين
تضحك لفتى ترده عبداً دون بيع أو شراء ، وكلّ شاب لو ابتسم لفتاة
أتت إليه خادماً طيباً . وبينما هم على هذه الحال ، إذ طلع عليهم قيس
المفضل ، وعلى وجهه من غبار الطريق ، شجى الفؤاد من فراق الصديق .
فقبّل الأرض وحيّاً ، وخص بالتحية ليلى ، لكنها لم تلق بالآ إليه ،
ولم تشتغل فى هذا الجمع به ، بل أرسلت ذوائبها دلالة ، وقطبت حاجبها
متغاضبة . وأخذت تبسم لمن عداه ، وتخص بشهد حديثها سواه ، تدبر
عنه وجهها إلى مَنْ فى الجمع ، رقيقة الحواشى مع الحضور ، خشنة معه .
فإذا وقع نظر قيس على وجنتيها ، ثلّت فى صدور عنه عطفها . وإذا جرى
لسانه بكلام ألفت بسمعها إلى غيره . ولما رأى قيس من ليلى هذا الإعراض
تبدلت حاله ، وحالت زهرة غصن أمله الأملود ، فصارت ورود وجنتيه

(١) الخواطر التى ينظمها الشاعر فى هذا الفصل تدور حول رواية الأغاني : (طبعة دار
الكتب ج ٢ ص ١٤ ، ٣١ ، ٤٦) أن ليلى أرادت أن تمتحن قيساً فى حبه ، فأسرت كلاماً
إلى غيره بمشهد منه ، معرضة عنه ، فامتقع وجهه ، واشتد عليه ذلك ، فأشدت :
كلانا مظهر للناس بغضا وكل عند صاحبه مكين
تبلغنا العيون بما أردنا وفى القليلين ثم هوى دفين

صَفْرًا ، وصبَّ من ناظريه الياقوت الرطب من الدمع ، فسال جواهرَ فوق صفحة الذهب من محياه . ورفع النقاب عن وجه بؤسه ، مردداً ألحان شكوى تنفذ إلى أعماق القلوب ، قائلاً : أين من أمرى رونقه القديم وجناه ؟ وأين حُرمتى لديك ومكانى باليلاه ؟ فما أطيب العهد الذى كانت ليلى ترانى فيه بعين الحب ، هاجرةً من أجلى صحبة الأغيار . كانت معى وكانت جليستى ، وكانت لا تضن علىَّ بعدد حديثها . وكان من دأبى فيما مضى أن أسألهما العفو عن المذنبين ، فمن لى — ولا ذنب لى — بمن يطلب منها لى الغفران ؟ وحتى لو لم أجد شفيعاً إليها ، فحسبى دماءُ الدموع من شفيع .

فلما رأت ليلى ما عليه من هيام ، وسمعت ألحان أغنيته النافذة إلى القلب ، أقبلت عليه ، ورفعت له عن وجهها النقاب . وتبسّطت معه فى الحديث ، وضحكت إليه ، وتلطفت له . وقالت : ياملك للعشاق ، ويافريسة الآلام ! كلانا للأخر صديق حميم ، من بلاء العشق فى انتحساب وأنين . ونحن فرد واحد فى الحب والوداد . فلنا كلينا نفس الشأن فى فيض الخواطر وفيض صفاء القلوب . فإذا كنتُ قد عبستُ فى وجهك مقطبة الجبين ، فلا تظن أن ذلك عن حفيظة لك أُسْرَها ، فتلك العُقْدُ فى غضون محيىاى إنما كانت لىكى تَعْقِدَ عنا ألسنة الناس . فعشقتك الذى هو خير كنز للروح ، باق كالكنز خىء عن العيون .

فلما سمع هذه البشرى قيس غاب على قولها وعيه ، ووقع على الأرض كالظل ممشياً عليه ، فالت ليلى على ظله هيفاء بمشوقته القوام كإحدى شجر السَّرو . وطالت به الإغماء قبل أن يتحرك ، حتى ظنَّ أنه قد رقد رقدة الموت . ورشوا على وجهه من ماء عيونهم ، علَّ هذا الماء يذودُ عن عينيه

النوم . ثم انفرط عقد الجمع ، وأسرع إلى الانصراف ذوو الوسامة من
الحضور فتيانا وفتيات ؛ وجروا مسرعين يقعون في عدوهم وينهضون .
وخشية أن يُتَهموا بقتله ولو هاربين . ولم يبق من الجمع غير قيس وليلى .
فبقى نائما وعلى رأسه ليلى ، كأنهما القمر والثريا . وظل كالمختضر من حرقة
الهوى ، واهن القوى عن تحمل العيش مع حن الشوق ، حتى فتح جفنيه
حين ولى النهار ، فوقع ناظراه على جمال ليلى ، وكانت تبكى من ناظرها . دما
يسيل مدرارا . وسأله قائلة يا فريدا في المحبين ، ويا حديثَ مجمع العاشقين !
من أين لك هذه الإغماءة ؟ ومن ذا سقاك هذه الخمر التي غبت بها عن
الاحياء ؟ فأجاب : من كسّك تناولتها ، وقد سقيتنيها على عمد . فقد
صددت عني بوجهك أولا ، وأمسكت عن الكلام معي فأمّا مقولا . على
أنك كنت تصافحين الآخرين ، وتقبّلين عليهم بمحيّاك . وكلما
أقبلت عليك أشخت عني ، حتى رددتني أحقر الأذلاء . وأخيرا عدت
بلطفك إلى ، وأريتني الجمل من وجوه الدلال . وعهدى بك تمّتعيني من
خمر وصالك بالدرّ والصفى ، ولم تكوني لتضني على بجرعة ، وقد صغّرت
من بيانك سلافا يطايح بالعقول ، فشمّلت بها كل الثل أيتها الفاتنة ، فإذا
سقطت دون وعي فما لي حيلة ، فليست إلا آدميا وما أنا بحجر صلد .

ولما سمعت ليلى منه قصته ، قالت في عناية وتدلّ : يا مراد روي
وقوة جسمي الواهي ! إن الألم الذي تعاني ، ولواعج القلب التي تقاسي ،
لهي دون ما في فؤادي من تباريح تُعجز الوصف .

فعاد قيس على ذوق هذه الكلمات مسرورا ، وانقلب إلى قبيلته جذلا
مقرور العين .

(١١)

عهد الوفاء^(١)

رأس الفاتنات الغيسد في كل الآفاق ، الفريدة في الحسن كأقواس
حاجبها ، إذا برزت فهي دنيا من الدلال ، وإذا احتجبت فهي خلف ستار
الأسرار ، ربحان حديقة الأمانى ، وأوراق ورد ربيع الحياة ، ملازمة
مصلاها ، شأن الزاهدين . وهي مثار العرب ، وفتنة العجم ، لها من حفيف
الوشاح ووسوسة الخلخال موسيقا وجد وطرب ، ومن قلادة عنقها وحلية
أذنها شرك العقل وخدعة الفؤاد . تلك صورة ليلى الفاتنة . ولما رأت في
قيس الوفاء وعرفان الجميل فاض عن القياس عشقها له ، ولم يخالجها في تفانيه
في حبها أدنى شك ، ولم تكن بحاجة في هذا إلى دليل .

وعندما عاد إليها قيس في يوم آخر كانت قد امتلأت جوانب روحها
شوقا إليه . وقفز قلبها من مكانه ببسمة الرضا له ، وفدته بالروح لقاء وفائه ،
ونأت معه عن الجفوة والإعراض ، وتحدثت عن عقد عهد الوفاء . وليكى
ترضيه ما استطاعت قالت له هذا العهد الوثيق : قسمنا بذات الله سبحانه ، مدير
الآفلاك في مداراتها ، ومضى . هذا السقف الرفيع بنور القمر ومصباح
النجوم ، وكل ما تبدى منه من طرائف المعضلات كانت غاية من اجتهدوا
في حلها فعبجروا دون الغاية . قسمنا بذوى الأبصار النيرة التي تكشف بأشعة

(١) في الأغاني حديث ذلك العهد الذي أعطته ليلى قيسا ، إذ قالت له بعد أن خبرت حبه
لها : « أعطى الله عهدا ألا أجالس بعد يومى هذا رجلا سواك حتى أذوق الموت إلا أن أكره
على ذلك » : الأغاني طبعة دار الكتب ج ٢ ص ٤٦

نظراتها عن مخبات الحقيقة في لوح الوجود ، لتصل بأصحابها إلى كنه كمال الله . قسما بصدور العارفين القادرين على معرفة الأشياء ، الواقفين على كنوز الخليفة ، ورموز الحقيقة ، من لا يستعصى عليهم حل المضلات . قسما بكل غريب مهجور ، نأت به الدار عن الحبيب ، لا أمل له في ليل همومه ، ولا شفاه تسوق له خبراً طيباً ، قد عانى ضربات سيف الهجران ، وتجرع كأس الهموم ، قسما بكل حبيب فائن الحسن ، شبيه القمر جمالا والخور فتنة ، لأربطن قلبي لقيس بحبٍ كحبي لنفسي ، وأقطعن صلاتي بسواه ، ولا بذان الروح دون عرضه لئلا يمس بسوء . قسما بكل ما يستصوب الخلف به من عاقل ، أن سيظل حبي لك — ما اتسع به المجال — مستعصياً على كل نسيان ، وأن سيظل ذكرك أنيس روحي ، ما سمح لي القدر بالعيش ؛ وإن ضحيت بالهموم من أجلك في هذا العالم وظللت محرومة من نعيم الدارين ، وإن آدتني منه آلاف الآعباء ، فلن أصل بغيرك حبي . ولو منحني الجد الخيرة فلتكن أنت حظي من العالم . ولن أجلس أو أقف مع أي خيب لا يستقيم لك معه أمر . فلا صاحبنى شيء بدونك حتى نفسي ولا كان لي عيش بدونك . وإلى أن ألقى الوفاة سأححو من لوح وجودي مشاغل الكونين . وبهذا العهد الذي أرتبط به معك قد قطعت كل عهد مع من عداك . فلا يكن مظلماً بحر الوفاء ، وكفاني ما فيه ذخيرة لقيامتي .

وبعد أن أحكمت ليلي ووثاق العهد ، جاست به طريقاً مظلم الأرجاء ، وفصلت ما بينها وبين القريب والبعيد ، وتركت كل أمر سوى حمل ذاك العبء ، وولت وجهها عن الخلق جميعاً مقبلة على ذلك الحبيب . وحالت جيدها بقلادة الصديق ، وصحبت أذيالها عن الأغيار .

وعندما وصل قيس من طريقه غدوة ، عقل ناقته بياها ، وقص عليها

عناء الليل ، وبسط حلاوة الوصال نهاراً وشكاية البعاد ليلاً . وبقي آمناً منفرداً بها حتى المساء . ولما رأى قيس مدى جهدها في الوصال ، وبرها بالعهد ، زاد وسواس حبه ؛ وعاقبة الوسواس الجنون . فصار مجنوناً خليع العذار ، مشتهراً باللقب في كل مكان ، وبه معروفاً حتى نهاية أجله . واستبدله في كتاب الدهر من اسمه قيس . فإذا خطر في محفل نادوه بالمجنون . وكان يطيّب خاطراً بهذا اللقب ، وكان لحسنه على اسمه حلولاً تبلى جدته .

وفي باب الطرائف والملح أى إنسان أفضل بمن أسام سرح العشق ؟ وأى اسم خير من اسم العاشق ؟ . نعم اهجر — أى جامى ! — كل عمل لا طائل تحته ، لتحظى باسم العاشق .

(١٢)

قبيلة قيس تكشف المكنون من حبه

من جميع أمور هذا العالم ليس هناك ما هو أفضل من أمر العاشق ؛ فقد باع متاع العقل ، وصار طروبا لسماع الألحان ، لا يقر له قرار . فخاله حال مجنون حينما يقبع في غار الهم ، وحينما يتسنى قلة الجبل . وهو أمين خزائن الإفلاس ، وهو رهين أسى خواطر الوسواس . يقنع في القفر بظل الطالع ، هائم في هذا العالم وادى الأذلاء . وهو رفيق المترنين بألحان الآسى ، صديق الأحرار الزاهدين : سمير الأطباء في الصحراء ، ونجى البلابل في هيامها . قد أنك الهوى قواه ، وبليت في طريق الحب نعلاه . قد حطم على العقل زجاج وكره الهش ، واطرَحَ ظهْرًا حبَّ شراكِ العقْل . رفيق قطعان حمر الوحش وأسراب الأطباء ، وكأنه واحد من قبائل الجن .

تلك حال المجنون أسير ليلي ، برحت به جذبة العشق من ليلي . واطرَحَ وراءه قواعد العقل ، لا يجد من راحة على سريريه بياتا ، ولا يراه أحد . لا نهارا ولا ليلا ، مزق حبل كل وصال ، وطوى كشحا عن الناس . فإذا لمح من بعيد صديقا هرب منه ونأى . وإذا تقدم إليه أحد أقاربه نحاه عنه بعيدا . وحين رآه القوم على هذه الحال ، أطلقوا ألسنتهم فيه بالطعن قائلين : ماذا نفّسه منا ، وأى ملال أصابه من قومه ؟ لقد سلَّ سيفها وقطع به رحمتنا دون رحمة .

وذهبوا إليه ، وضربوا حوله حلقة كهالة القمر ، وبحشوا عن دليل على حاله ، وجسّوا نبضه . وتجاه صمته ربطوا عن الكلام لسانهم . فلم يحل

عقدة عن السر ، ولم يضرب نغمة على وتر .

وكان له صديق في تلك القبيلة ، له عليه أياد جميلة . حلوا الشمائل ، فصيح اللسان ، ضارب على أوتار العشق بأطيب الألحان ؛ فقالوا له : على الرغم مما بذلنا في معرفة حال قيس ، قد ظل كاليراعة لا تسلك الأنفاس في عُنُقِهَا . وفي زفراته آلام دفيئة . فانسفت فيه من روح وفائك ، عَمَلَك تجردُ سَفَى لمسعاك .

فتعقب ذلك الصديق أثره بضعة أيام بغية الوقوف على حاله ، وأخيرا قال له : أخى ! يكاد ينفطر لما أنت فيه من غم قلبي ، وتسكاد لما تعاني من همٍّ تحترقُ روحى ، ويلتهم لبيب الأسى مَسَخَ عظامى . فلم قطعت دونى جبل الوفاء ؟ ولم الهرب من صحبتى ؟ وقد كنا فيما مضى أخلص الأصدقاء ، أليفين لا نفرق كالألف واللام . فاشرح منصفاً ، ما فعلت بهذه الصداقة ؟ وكيف أضعت قاعدة الوفاء ؟ واجلس لحظة تتحدث معا عن هذا السر ، ونستعيد ماضى من حال . فإذا لم يبيح الصديق بالسر ، فقد تجرّدت طويته من طيب الصداقة . وفي خلوات الأصدقاء المخلصين يبين مهندس الصداقة عن سر بنائها .

فلما سمع قيس منه ذلك اللحن أخذ يتوجع توجع العاشقين ، وقال : أى صديق الحميم ! وموضع سرى ! إن أمرى صعب المركب ، وأنا منه فى خطر الهلاك . فليس هو مجرد شجى فادح الثقل ، بل إنه لأثقل مائة مرة من الجبل . وإذا لم يُزَحَّ عن كاهلى هذا العبء ، فأنا لاشك قاضٍ نحى .

فسأله أى حمل هذا ؟ وأى حبيب أثقل به فؤادك ؟ فأجاب : « ليلي » . وسقط مغشيا عليه على نطق اسم تلك الحسناء ، فتعطلت عن الرؤية عيناه ،

وعن السمع أذناه ، وعن الحديث شفاته . ونفض يده من الكونين وقتا
طويلا ، بقى فيه بين الحى والميت .

ولما وقف ذلك الصديق على حاله ، ورأى ما وصل إليه من كمال العشق
والوفاء ، علم أى أمر أمره وأى حمل حمله ! كما اكتشف اسم عشيقته ، وعرف
من هى . وقد تأثر من أجله أبلغ تأثر ، ولكنه أفضى الآخرين بسره ،
ومقصوده أن المُطبين يَتيسَّر لهم — إذا وقفوا على سر الداء — تشخيص
الدواء .

(١٣)

نصيحة والد قيس له^(١)

حين علم والده المسكين بخبره ، لوى عنانه نحوه في سرعة الريح ، واحتضنه إليه وقلبه يغلى بحبه الأبوى ، وقال له : ياروح والدك ، على أية حال أنت ؟ ولم ألقيت بنفسك في الوبال ؟ « خبّرتُ أن قد سلّبتُ عذراءً من إحدى القبائل قلبك . وأنا معك على وفاق في أنك في طريق طالما سلكه غيرك ، إذ العشق إحساس نبيل . ولكن ليس كل إنسان أهلاً لأن ينال حبنا . ولا يليق أن يجتذب قلوبنا كل منظر جميل ، بل يجب أن تكون المحبوبة من طينة طيبة ، ولا ينبغي أن يكون العشق لمن لم يطب أصله . وليلى — وإن تراءت لعينك عزيزة القدر — ليست بالنسبة لك إلا أقل الجوارى شائناً . ولا يصح في مذهب العقول أن يشغف المرء بكل جارية . فأنت شبيه « الخضر » من عليّة القوم ، وهي في النسب من خضراء الدمن . والعالم كله دون أقدام « الخضر » وأين من مكاتته خضر الدمن ؟ فبالله إلا ركدت عنها قلبك ، وقطعت منها حبل أملك . وهي كالخمسك الجاف ، وأنت وردة ، وقدك شجرة سرور ونضرة . وهي غراب وأنت تدريج مدللٌ بجمالك . وأين من الخمسك الورد والسرور وأين من الغراب التدرج ! ولا ينبغي

(١) معظم خواطر المؤلف في هذا الفصل لها أصل فيما روى من أخبار قيس ، فقد كان أهل ليلى دون أهله ، وكان بين الحيين عداوة ، وطالما وجه النصيح إلى قيس بالسُّلو عنها كما يروى في شعره :

أخي وابن عمي وابن خالي وخاليا
بنفسى ليلى من عدو وماليا

لقد لامنى في حب ليلى أقاربى
يقولون ليلى أهل بيت عداوة

أغانى طبعة دار الكتب ج ٢ ص ٣٨

أن تجعل نصيبك من حديقة النساء إحدى الشقائق تسكوى بنارها قلبك .
فالحديقة مليئة بالورود والرياحين ، فتمتع قلبك بالريحان واقطف من الورد .
وخذ من الورود المئات واجمعها في يدك طاقة . فختام يبقى قلبك إذن معلقا
بوردة واحدة ؟

ومن المقرر المعلوم كذلك أن حى ليلي معنا فى نزاع دائم ، ولا يلتقى
بنا إلا للنزال ، فنحن معاكلماء والنار . كل منا يلوى عنانه عن الآخر . ولنا
فى ميدان الوغى جولات خضب كل منا فيها بدم الآخر سيوفه . فتخبّرني :
أى خير يرجى فى صداقة من يتحدى بالعداوة ؟

فقال المجنون لوالده بعد سماعه هذه النصائح : أيها الناصح الشفيق ! لقد
نقش على صفحة قلبى الفطن كل ما قلت من لطيف الحكم ، ومن در
النصائح المشقوب ، ولن أتوجه إليك فى ذلك بعتاب ، وأسكن عندى لكل
ما قلت جواب :

قلت : إنك مفتون بالغرام ، وقد شحب لونك من جذبة العشق . نعم
فأنا لا أعيش إلا للعب ، وهو شغلى فى هذا العالم . وحاشا أن أكسح
جوادى عن هذا الطريق ، وإذا لم أحمى للعشق فلا حييت اومن لا يمارس
طريق العشق فهو فى مذهبي لا يساوى حبة شعير : وفى العشق خلاص
قلب المرء من دوران الدهر ^(١) المديل .

وقلت : لا يليق الهيام بحسناء لم يطب أصلها ، والحسان طيبتن جميعا
من الماء والتراب ، إذ صفا القلب منهن فقد طاب ^(٢) الأصل . فصدرهن

(١) يفكر المؤلف فى الحب الصوفى راجع المقدمة س ٥ - ٦ وكذا الفصل الاول من هذه الترجمة

(٢) أى لا بد مع الحسن فى المظهر جمال الخبر ، إذ الجمال من أوصاف الروح ، وهذا رأى

أفلاطون راجع كتابي: الحب العذرى وحب المتصوفة الفصل الثانى من الباب الثالث .

جميعا الحسن الأزل^(١) ووصلهن هو العيش الخالص . وهن مرآة
ذى الجلال^(٢) ، وعنوان صحيفة الجمال . وإذا لم يشرق ذلك النور الإلهي
في طينة الجسم فلا يغترن مخلوق بمظهر الحسن الذي لا طعم له ولا سلطان
على القلب . لا ، ولا ينقص الحسن إذ ذاك الجسم ولا يسمو بالروح .
وقلت : ليلي سامية الحسن ولكنها دوننا في النسب . وما يفعل
العاشق بالنسب ؟ والعشق لا يستمر من شيء . وكل من وقع صريع العشق
فهو ابن القلب ، وليد العشق ، قد قطع نسبته بالماء والطين ، وصار مرعاه
روضة الروح والقلب ؛ ولن يعرف لنفسه أباً ولا أما ؛ وقد تحرر من العيوب
بل ومن الفضائل أيضا .

وقلت : اثن عنانك عن هواها ، وافرح خواطرك من وفائها . وليس
من شأنى ترك هموم العشق ، وليس لى فى الأمر من اختيار . فقد كتبوا
على صفحة روحى بضعة الحروف التى تسكون الوفاء . فهبنى جرحاً
بأظفارى الروح ، فأنتى لى بمحو كلمة الوفاء ؟ ومن الخطأ محاولة محو ما خط
على قلوبنا من حروف هى الصواب .

وقلت : لا ينبغي أن يقتصر المرء من نصيبه فى حديقة الدهر على
وردة وكفى . وليلى التى نسيهما طيبى ، حسبى من هذا البستان . فهى
روحى وأنا لها جسم . وهى وجودى وهى حسبى . فإذا نأى كلانا عن الآخر
فلا أمل لنا فى هذا العالم . يطيب سروراً خاطرك منا بحبيبه ، فلا كان لنا
فى هذا الوجود سرور سوى ذاك السرور !

وقلت : إن لنا مع هذه القبيلة آلافاً من صنوف المكر والحيلة .

(١) راجع المقدمة ص ٥ .

(٢) المقدمة ص ٥ — ٦ والاستزادة راجع كتابى السابق الذكر .

وما شأني أنا وإحـن الآخرين ، وكل صدرى جراح من طغيان الحب ؟ فإذا
أرسلت ليلى من أجلى زفرة حب ، فكيف أشعر بالبغض لقييلاتها ؟ وإني
لضائق الذرع بكل ما فى العالم ، وفى حرب مع من عداها ، وإذا لحقتها من
صاحى مع نفسى ضيق ، فمأشـنٌ بنفسى على نفسى الحرب .

وحين رأى الوالد المسكين قيسا على هذه الحال ، وسمع منه عبارات
عشقه ، علم أن أمره شديد ، وأن ركبه فى طريق الفناء ، وأمسك بلسانه
عن سَوْقِ النصائح . وتركه فاصما عنه عرى وصاله . وفوَّض من فرط
رفقه به أمره لعناية الله .

(١٤)

نصيحة العامرين لوالد قيس بتزويجه بأخرى^(١)

عندما شق قيس^٢ عصا الطاعة^(٢)، ولم يعد على نصيحة والده إلى المنزل،
مثل أعيان القبيلة أمام ذلك السكهل، وقالوا عن حسن رأى وتدير
أيها العامرى وأنت للسكون عمار، وملاكك بك معمور وأنت فيه سعيد
الطالع؛ ولدك نور أبصارنا، وهو راحة قلبك المجهود. وهو قرّة عيوننا،
وأرضنا به بستان مونسق. نحن بمثابة الحبة السوداء في نار حبه، فحتى متى نرضى
أن يبقى في تلك النار. وما دامت طبيعته من الحب والوفاء، فذلك مقدور
عليه. وإذا أريد القيام بشرط الولاء، لمن يقع في مثل ذلك البلاء، فطريق
الخلاص إما في سفر، وإما بحبّ غادة أخرى. وإنه لصغير السن فلا يصلح
للسفر، وماله به يدان. فخير أن نقرنه في عقد نكاح بغادة أخرى قد شهرت
في العالم بجمالها الفتان؛ وأن نكل إلى همتها أمر إصلاحه. فربما تسلى بها
وفرغ من هيامه بليلى. فيشتمّر في خدمتها عن ساعد جدّه، ويقصر
لسانه عن قصة ليلي.

فراق في خاطر الأب الشيخ ما أبدى هؤلاء العقلاء من لطيف التدبير؛
فدعا قيسا، وأتوا به وأجلسوه في حضرته. وقال له: يامن بك أنا سعيد
الجدّ، وأنت لعيني إنسانها. فبفضلك ترى عيناي، وبك يشتد ساعدي.
منك يستمد طبعي السرور، ويلشرح صدري؛ والعالم من فراقك مختلط المعالم.

(١) قارن هذا الفصل بما في الأغاني طبعة دار الكتب المصرية ج ٢ ص ٤٢ — ٤٤، ٨٢

(٢) في الأصل حينما مزق الجيب والتدليل

فعدّ إلى مسكنك كالطائر إلى عشه . وإذا لم تجد في المنزل القرار بحثت
لك عن قرية حسنة تشاركك الدار ؛ حتى تطيب بدلالها صحبتك ، وتثني
عنانك عن الضلال . فحين تضع في المنزل قدمك فسْتَقْبَلْ هـى قدمك كما
تُقبَلُ للمقدمك عتبة الدار . وإذا خرجت متهاديا في خطوك ، مرغت
رأسها على قدميك وعلى أذياك . ولعمرك الذى خلت صفحة عيشه من
سواد الهموم عادة هيفاء في الحجاب ، تخجل القمر جمالا ، نقية اللون كاللار
المكنون . فيها كحمة الجوهر ، ضيق يفوق الوصف . عذب حديثها أخ
الشهد ، وينفح مرقد قدها الأهيف بروح العبر . تشع النور على العالم .
وإذا بدت قامتها قامت قيامة الناس ، وقد طبقت سمعتها الأفان ، وثروتها
كثروتك تعد بالآف ، يخرج من حساب العقل مالها ، وأكثر من مالها
جمالها . وهى فى الحسب نذك ، وفى الأصل والنسب كُفُوُك ، فلن
يعلق بأذياك من الاقتران بها عار ، ولن يرمى الطاعنون بسببها منزلك
بأحجار سبابهم ، وبالنسبارة أن لم يجد بعد مثل هاتين الجوهريتين النقيتين
سعادة الوصال والصحبة . وأريد أن تكون لك قرية ، وستكون طيبة
الخاطر على حبك وبغضك . وستزف إليك درة نيرة غير مثقوبة . فدوما
معا صديقين كالقلب والروح ، مثل اللوزة : قشرة واحدة ولبّ ذوقين .
وكونا صاحبين رقيقين ، فى أمان من كيد الحسود وطعنات الواشين .

وعندما سمع قيس هذا الحديث انفرجت شفاته عن شهد القول ، وفاض
من فمه جواهر الكلم كما فاضت عيونه بجواهر الدمع . وقال لوالده وهو
يبكى : يا أصل وجودى ، ومن تراب أقدامه لرأسى تاج ، ومن
طينتى من صنيعه ، وروحي الصافية من فضل تلشدته ، أنا فى هذا الدبر

كعيسى بن مريم ، في طريق التجريد ^(١) طليق المسير . أنا مثل الشمس منفرد من هذا وذاك ، مقطوع الصلة بالنساء والرجال . لي قلب نافر من الدنيا . وخير لمصاب بالبلاء مثلي أن يبقى مجردا من الزواج ما عاش تحت قبة السماء . وما أنا إلا مجنون ^(٢) مثالي الغاية ، وما لمجنون مثلي والزواج ؟ وقد أقيت عن كاهلي حملي الخاص بي ، فلماذا أشغل بعبي الآخرين ؟ ولا أهل لرفقتي سوى نفسي ، فكفاني بوحدتي رفيقا .

فلما وعى الأب المسكين طريقة جوابه ، غاب عن وعيه . ثم قال له : إنما أقصد من جعلك رباً أسرة إلى نجاتك ، فتخلص بذلك من ليل وعشقها . فوثق صلتك بحبيب آخر ، يرحل من قلبك طارق عشق ليلي . فكما أن الحذاء الواحد لا يسع غير قدم واحدة ، فليس في القلب مكان لقلبين . وليس في البستان مأوى لخصمين ، فإذا أقبل الصقر رحل الغراب .

فأجاب قيس : أرى ! وما حيلتي في الأمر ؟ وماذا يفعل من فقد القلب بدلال الحب ؟ هيات أن أقطع صلتى بليلى ! . هيات أن يمل القلب حب ليلي ! فهي نقش على فص خاتم قلبي ، وهي بذرة منبتها فؤادي . وليلى الروح وأنا لها جسم ، وليلى طائر وأنا للطائر العش . وما دامت الروح في البدن ، فأنا لليلي وليلى لي .

(١) يتكلم المجنون هنا وفي الفصل السابق بلسان الصوفية . وللتجريد عندهم معان كثيرة على حسب المقام ، فمنها تجريد النفس عن الميل إلى شهوات الدنيا ودعوات الهوى ، ومنها التجريد عن الفتور في السير والاتفات إلى الغير ، ومنها تجريد النفس عن رؤية تأثير الكائنات ونسب الأفعال إلى المخلوقات ...

راجع : السكشخاوى جامع الأصول ص ٢١٤ — وكلام المجنون هنا يدور حول هذه المعاني الصوفية .
(٢) يقصد بالمجنون هنا التسمي بالروح في سبيل القربى عن طريق الوجد والدهش والهيان بمعانيها الصوفية . المرجع السابق ص ٢٠٨ — ٢٠٩

ولقد طوفت في العالم ، ورأيت كل ما كنيه . كل شيء قابل للفناء ،
وإذا نظرت إليه بعدين الاعتبار وجدت له بديلا ، إلا ليلى حين لا أملـكها
فليس لها من بديل . فلو اخترتُ بديلا لمن لا بديل له ، فلن أجنى من وراء
ذلك غير خلل في الدين والقلب .

فلما رأى والد قيس أن ابنه لن يتخلص بحال من ربة حبه ، أخذ يدعو
له عن طيب خاطر ، راضيا بما ساق له القدر من بلاء .

(١٤)

الوشاية^(١)

متى استقامت أوتار عود العشق وأطلقت أنغامها بدون مضرب
الفتنة والوشاية ؟ وكيف تطلق ألحان قيثاره دون أن تنالها غمزات يد اللاعب ؟
فقد ألم فضولي متبع^٢ للعيوب بقصة قيس وابنة عمه التي جرت في
مجلس الأحباب والمحارم ، ووقف فيها على بؤس قيس وسوء حاله ،
فأسرع إلى ليلى يحمل إليها الخبر قائلاً :

قد بردت حرارة عشقك في قلب قيس ، واتجه هواه إلى سواك ، وسوف
يطرب بوصالها . وليس في شرعة الإنصاف الوفاء لغير ذوى الولاء ؛
وما جزاء الجفاء غير الجفاء . وقد تحول عنك نظره ، وانطفأت من قلبه
تلك الجذوة . وحدث الأمر الجمال ، ونفق الحمار في الطريق وسقط الحمل .
وقد أتى إليه والده وأخذ بيده ، وعقد نكاحه على ابنة عمه . فاصر في أنت كذلك
عنه أنظارك ، واختارى حبيباً تعقدين به روابط هواك ، ليتحمل من
صميم فؤاده عنك الآلام ، ويقوم لك بما قصر عنه سواه^(٢) .

فلما سمعت ليلى هذه القصة ، ملأ عليها الهم جوانب نفسها ، وغارت
قواها فلم تحرك يدا ولا رجلاً ، وشربت الثمالة من دنّ الخمر . وقالت :

(١) تكثر في أشعار المجنون في الأدب العربي شكايته من الوشاة ، راجع مثلاً شرح

ديوان المجنون لمحمود كامل فريد ص ١٧١ — ١٧٢

(٢) هنا في المخطوطات التي راجعناها تقديم وتأخير في الآيات ، ولكنها لا تختلف فيما

بينها زيادة ونقصا .

أيها الحبيب الغادر ماذا أتيت ؟ وماذا فعلت بقلب العاشق المبتلى ؟ —
 واستمرت تخاطب قيسا خطاب الغائب : لقد غررتني في الصفة فخرية
 وراء قمحك ولم تبغني غير الشعير . وما هكذا يفعل الأصدقاء ، وليس هذا
 شأن المحبين . تعلقت بمن هي أجمل مني ، واستراح خاطرك إلى سواي . فقد
 أحسنت إذن وأحسنت وبارك لك الله . ولتبقي النار التي أشعلتها بصدرى عالية
 للهيبي ، ولتضيء تلك النار مجالس أنسك . لقد أريتني في البدء قمحاً حتى قوى
 عقد أمني ، ثم نكشت العهد غير حافل بليلي وما بها . لقد وضعت لي أولاً من
 وفائك أحبولة ، ثم ما لبثت — حين استرحت إلى — أن أدبر عني ريح
 إقبالك . إن جرى ريحك بما تشتهي ، فلن يبالي الريح بما أضرم في قلبي
 من نار .

وظلت ليلى هكذا محترقة الفؤاد ، حتى أسفر الليل البهيم عن الصباح ،
 وأخذ قيس طريقه إليها كعادته كل يوم ، فقالت ليلى لحرسها في غضب
 العاتب : شددوا الحراسة ، وأرهبوه بالسيف والسنان ، ولا تخلوا له الطريق
 إلى الحريم ، حتى يمضي لسبيله ، ويذهب في أعقاب صديقه . فلا يليق بمثله
 أن يلج لنا حرماً ، وليس هو بأهل للقاءنا . فهو في الليل مع الأخريات
 وفي النهار معنا ، ولم يكن معنا نقي السريرة .

ولما رأى المجنون هذا الجفاء ، أخذ يصيح هنا وهناك . وابتعد با كيا
 منتحياً ، ولوى مكروبا عنان راحلته دون حرم منزلها ، قائلاً : واحسرتا !
 وما أعظم آلامي ! وما أنا إلا تراب في طريق الخوف والرجاء . قد أضحي
 حبيبي صديقاً لحسادى . وما أنا إلا فريسة هم لا أستحقه .

ولما لم يجد من الصياح جدوى ، سجد لله مردداً في سجوده : حاشا
 يارب أن يقع إنسان في بلاء مثل بلائي ، أسيراً في أحبولة الشقاء ، محروماً

من حبيبه ، مردداً أسى الحسرة في نفسه . حقّ لي الآن أن يسيل دمعي دماً ،
إذ يصبح هذا القمر أنيس الآخرين - وفي كل لحظة كنت أغدّي أملّي وأنا
أغدّي إليها السير ، ولم يدر في خلدي أني ارتكبت ذنباً . ولم يكن لي من رفيق
في الطريق إليها غير دموعي وآهاتي ، مقدما بين يدي الأعذار لما لم ارتكب
من جرم . ومن يكن جرمه مثل جرمي فكفي ذلك الجرم دليلاً على براءته ؛
وحاشا لو امتلاء الفلك سحبا ، وأمطرت فوق رأسي سيوفا ، أن أقطع من
حبيبي جبل الوصال ، أو أن أطرق باب حبيب آخر . وحين أصير إلى
باطن الأرض ، وأخلص من دنايا الجسم ، ستبقى روحي مصابة دون
الأرواح ، تبثه نغمت الشوق ، وساء مزق عن قالب جسمي السكفن ، طالبا
النجدة والغوث ، وساء سلك طريق الوفاء لها حتى الحشر ، وأموت كل
لحظة على غبار أقدامها .

هكذا كان يتغنى المجنون ، بتلك الأغنية اللطيفة كالدر المكنون .
ومن بعيد سمعه صديق له عهد بالعشق وحرقاته ، فعاد وأخبر بما رأى ليلى ،
فأخذت تقطر عيناها دموع الدم ، وتوثق عهد العشق من جديد ، وندمت
على فعلتها تلك . وتغنت كذلك بهذه الانشودة الآخذة بالقلوب : من يُلق
بسمعه إلى الحاسدين فقد نسي عهد الوفاء . فالحاسدين تنزع من النفس الحبيبة
هيامها بأحبابها الخائض . فيارب لا كان الحاسد إلا مثقل لعب وكاسد
التجارة ، وبعداً للحاسد من بيننا ، ولتعمه عنا كوارث الدهر ، وليُقطع
منه عرق الوتين ، لانه قطع نظري عن مشاهدة وجهك . قد قلت لنفسي :
سأحاول الصبر على نأيك ، وأنجرع كأس سم الفراق . ولكن أي مجال للصبر
حين يبرح الشوق ؟ وصبري بدونك كالسحاب الأسحم يصب الدموع في آهات
بروقه المتواليه . فانهض مائلا إلى ، فإنني على قلق بدونك ، خجولة من

فعلني ؛ حتى أقدم إليك الروح عن عفة وطهر ، وأقبل يدك طالبة الصفح .
عندما نظمت في سلك القول هذه اللآلئ النيرة ، وتفتح قلبها عن برعمة
الآلم ، غطت القلم في دم القلب السائل من العين ، وخطت به فوق رقعة
من الورق ، وطوتها وأعطتها رسولا ، ليسلها إلى رأس العاشقين ، وعند
ما قرأ المجنون الخطاب ، مشى إليها على رأسه كقلبها ، وعقد الإحرام لحرم
خيمتها ، ومثل على قدمه من جديد كأنه عمود خيمتها . وكان في الطريق
خفوق القلب من هم الوسوس ، وقطع كذلك طريقه حتى وصل .

(١٦)

نذر الحج

عندما انقَضَ بأُز الفجر على عَشِّ غراب الليل^(١) ، وصَوَّبَ سهامه إليه ، طار ذلك الغراب عن عشه . وحين انجلى غراب الليل أسرع قيس يقطع بمقراض قدميه حاشية الطريق . وما إن قطع منه قليلا حتى برزت فجأة لعينيه نخلة خضراء نضرة كسرخيل سيناء^(٢) ، ففتتح عليها باصرته ، فطار عنها غرابٌ متألق النظرات كأنه دخان مصباح ، وتلتمع عيناه كأنهما نجمان في ليل بهيم ، أو كأنهما شرارتان في فحمة . عليه خلعة عباسية المظهر ، مجدِّ في السير كأنه ساع في إثر الليل . وأخذ الغراب يصيح صيحات موزونة عميقة ، وذلك لدى العرب فال ميمون ؛ فطرب لأصواته قلب المجنون . فرقص شوقا إلى طابته ، قائلا في نفسه : فألى اليوم طيب ، وسأنال فيه نصيبي من الوصال . وعلىَّ لله أن أحج ماشيا ، بل ليس بكثير أن أزيد مائة حبة ، إذا سمحت لي عن طيب خاطر بمحضرها تلك الفتاة شبيهة القمر . ولما قطع طريقه ، وصل إلى الحى ، ووضع قدمه في حريم الحبيب ، فسمحت له بالدخول ، وأجلسته في مقعد القبول . وفضلاً محتوم رسالات الخواطر ، ونشرا مطوى السرائر . فأنا تكلمنا عن جور الفراق ، وآنا عن كروب الاشتياق . وصارا على الصحبة وفيتين ، وفي مباحج العشق متجاوبين . ليسلى مستوية على سرير الملك ، والمجنون يردد

(١) من المألوف في الفارسية تشبيه الليل بالغراب ، وفي الأصل الغرابان .

(٢) يستلهم المؤلف هذا التشبيه من قصة موسى في مناجاته الله في طور سيناء .

الصبيحات طالبا الانصاف . ليلى ورأسها فى الأفلاك شرفا ، والمجنون يمرغ
فى الأرض خدَّ التوسل . ليلى تنثر من فمها الشهد ، والمجنون يفيض من
دموعه الدر . ليلى تسترسل نظراتها دلالة على دلال ، والمجنون تجيش فى
طويته الأسرار هياما . فأين من ليلى نور الصبح وضاءً ! وأين من دموع
قيس هميان السحاب دافقا ! وأين من جمالها القمر يضىء السكون ! وأين من
حرارة قيس النار المنهبة ! فأعظم بمنطقها مصباح القلوب ! والمجنون محترق
بنار ذلك المصباح الذى يذيب القلوب ؛ فما أشبه ليلى بوردة على رأس جبل ،
وفى صدر المجنون من الهم مثل الجبل ، ليلى فى ذوائبها كالمسك الخالص ،
والمجنون تهمى عيناه . ليلى وردة مغسولة بماء الورد ، والمجنون أمامها
كالعشب الجاف فى خلال السراب . ليلى فى سرور بنفسها معجبة ، والمجنون
صريع على بساط الآلام . وأمضى العاشقان معا يوما رضيين بعد هجر ،
وأفضيا بكل مالهيهما من سر ، وثقبا كل ما عندهما من لطائف درر الحديث .
ولم يبق ليهما من ألم إلا باحابه ، ولم يتركها برعمة إلا وقد تفتحت فى بستان
صحبتهما . وأراد المجنون وداع تلك الفاتنة فنهض قائلا :

يا كعبة القاصد المشتاق ، وقبلة الحسان من كل الآفاق . حريمُ حبيبك
حديقة الحرم ، والمقيمون به كزوار الحرم . جدائل شعرك عقد ذوى
التيجان ، ونفح عطرك وله المشتاقين ، وخلخالك الذهبى تاج الروس ،
وسلسال شفاهك يغار منه الكوثر . وكل شعرة من غدائك كالليل البهيم
مشار وله ألف مجنون مشلى . وحين يفتترُ ثغرك مبتسما فأى سوق
لبائع الشهد ! قد عقدتُ الإحرام لبابك فجرا وأنا رضى الطبع جذلان ،
فقلتُ : إذا تيسر لى اليوم السجود على تراب ذلك الباب ، فعلىَّ لله حجةٌ
وطواف . والآن وقد نلت مقصودى ، وتمتعت من وجهك بما أشتهى ،

فأذني لي أن أشد الرجال إلى البيت الحرام . فإذا امتد بي الأجل أُبْتُ ،
وماء ذهب وأعود راجلا . وإن تمزق جيبُ العمر فلا حيلة فيما يشاء الله .
وكما نما قفَّتْ غداثر ليلى على رأسها حين سمعت قوله . وقالت : يا من
منهجك طريق الصدق ، إنما حجك إلى " وحجى إليك . ولأن يضىءَ محيانا
نور التلاق ، خير من أن يحترق قلبانا بنار الفراق . وكيف لي بالصبر يوما
على فراقك ؟ وستطيب نفسك بقضاء المناسك ، بينما أظل أرسل الزفرات
في مقام الحداد . فأجابها : في عناية الله ، وأسأله أن يلهمك وإياي الصبر
على محنة الفراق ، لتتلاقى من جديد .

هكذا قال ، وصب من ناظريه سيلا من الدم ، وودعها هامى العينين .

الذهاب إلى الحج بعد إجازة ليلي

شرطُ العهد الوفاء ، وبذل الجهد فيه ولاء . وسفرٌ يقوم به ذو محنته رفيع طرفة من طرف الوفاء بالوعد ، ذلك أن الجهد هو الذي يخرج المرء من عهدة العهد . وقد أخذ المجنون طريقه إلى الكعبة ، باذلاً في الوفاء جهده . خرج من منزل الحبيبة مضطرباً مبلبل الخاطر . وأخذ يقطع البادية حاثاً الخطي . وورمت قدماه على حرارة الرمال ووهج الأحجار ، فشى يظلمع . وتشققت عقيب قدميه من عناد السير ، حتى صارت شقوقها كفروج أصابع قبضة اليد . وصار كف قدمه حيث مشى كنعلين بهما آلاف مسامير من الأشواك . وتراعى على ساقيه آلاف الرسوم من آثار الحجارة . وكان يضطره الألم إلى أن ينتحي ناحية من وسط الطريق . ولم خطاً على صفحة الرمال بهذه الرسوم آثار عنائه . فآنا كانت تبدو قدمه بجانبه من شدة ما أصابها ككبر حداد . وأحياناً كان يسير الهويني في طريقه كناقاة معقولة . ربه من عطشه السراب ، وهو كليل من ورم قدميه . خبزُه خمير من القمر والشمس^(١) ، وماؤه رشح السكبد . ونومه لمام كما يسقط إعياء المنهكون ، فاقد الإحساس في ظل شجر الطلح . وكانت الأشواك في قدميه تجذب ألماً عروق الجسم كأنها خطاطيف . وكان رفيقه في كل مرحلة الثعابين والنمال ، وصحبه في طريقه الأطباء وحمر الوحش ، وخلانه في سفره الجن والحيوان ، كأنه ملك وهؤلاء رعيته . وفي كل معرّس

(١) أى لم يطعم شيئاً .

له كان يخط كلمة على الكشبان بيده . ثم يصب فوقها فيضاً من دم جفونه حتى تصير في لون الزنجرف^(١) . وكان قصّاد الكعبة يطلقون بعد الميقات أحياناً أصواتهم بالتلبية ، فكان يتحاشى هو من ترديد التلبية . وإنما كان يردد بدلها اسم ليلى . وعندما أبصر من بعيد سواد الكعبة ، وامتلأ سواد عينيه نوراً ، تذكّر جمال ليلى ، فأطلق من حرقة الشوق صيحة ، ثم بدأ بالطواف حول البيت . ولم يجد السبيل إلى وصال قمر الحبيب ، فكان يطلق شعلة الآهات من فراق وجه الحبيب . ودق على باب البيت حلقة الشوق ، وفي رقبة روحه من حلقة حبه طوق . وهو في حلقة غمّه مجهود يبحث عن مخرج ؛ وبينما يصب دم القلب دموعاً من ناظريه ، تعلق بأستار الكعبة قائلاً : ياربة الخدر ، يامزهوة الحجاب ، ويا حلالة عقد حلقات الأسرار . مكانك بين أندية العرب ، وبك كسدت سوق كل العجم . تحت كل حجر في باديتك سقطت رموس آلاف الأبطال . معدنك النفيس بلسم في المسكن ؛ ونظرة منك قاصمة إلى الأبد قلب الواله . والرمل من حرم منزلك كحل يرد النور إلى عين الزمان . من مسجتي الهذيان ، ومن شيمتك الستر . فكوني لي ملاذاً حتى لا يهتك لي حجاب ، وكوني لي شهيداً على أني تبت ؛ وقد تبت من كل ذنب وأنبت عما كان مني من مية الفعال وقد مضيت حياتي بباب المعشوق الأزلي^(٢) ، الذي يتجلى لنواظر من جن جنونهم من العشق ؛ وكنت وفيما لما عاهدته عليه . وأنا نادم من كل ما وقع لي من نقض لهذا العهد . يا من يولي وجوههم إليك

(١) الزنجرف : زهرة .

(٢) يمثل الجنون في خوطره الصوفي الذي تختلط أفكاره في الجمال الإنساني بوجوده بالجمال الأزلي ، فليلى في ذهنه طريق للقربي ، راجع المقدمة : وانظر كذا الفصل الثاني من الباب الثالث من كتابي : الحب العذري وحب المتصوفة .

العجم والعرب . وأرواحهم جميعاً سكرى من الشوق إليك ، يا رب
أصرف وجهي عن كل شيء ، واغسل صحائفي من كل كلام ، إلا من هوى وجهه
ليلي ، ومن نداءات الشوق إليها . فإيلي ملاذ أمل روحي ، وكنز عيشي
الخالد . منها تستمد عيني نورها ، ومنها يجد قلبي المضيئ روح القرار . هي
ملكه ولاية الجمال ، وروح جسم العشق ، غاية كل محب . وما دامت ملكة
لي فأنا عبد ، وما دامت هي الروح فأنا بها حي . وليلي مصباح الحياة ،
وباكورة يانع الثمار في بستان الأمل . فكل من لم يحي بها فهو ميت ، وكل
من لم يعثره معها حرارة الشوق فهو بارد القلب . ولو أن العالم كله على
رأى واحد ، وخرج عن قاعدة الوفاء لها ، فحاشا أن أعيرهم أذنا ، وحاشا
أن أنساها لحظة .

وعندما قالوا : إن المجنون خرج قاصدا الحج ، عارى الرأس ، حافي
القدمين ، نبي الخبر إلى أبيه ، فأسرع كالرياح في أثره ، فكان قرينه في الطواف
واختبأ يصغي إلى دعائه . ولما سمع شكواه ودعائه ، وأصغى إلى عهد حبه
ووفائه ، غسل يده من الطمع في نجاته ، واجتهد في إرضائه في كل الأمور ،
وحمله في إيباه في حمل اللطف وهو دج العناية ، وقفل عائدا به إلى حبيلاه .

(١٨)

منع ليلي من ملاقاته المجنون

وقَعَ مغنى الحجاز على قيثارته هذا اللحن الطيب النغمات فقال :

لما عاد المجنون من السكينة أكثر شوقاً كان ، حطَّ رحله بديار ليلي ،
ووجد جبل الوصال متيناً بينهما ، وكثيراً ما تردد ذهاباً وجيئة ، واتخذ
التردد عليها مهنةً له ، وظل دائم البحث عن وصلها . فحين كانت الشمس
تبرز بقرنها ، كان يجري حثيثاً في جادة الطلب ، مجدداً عهد الوفاء ، سالكا
الطريق إلى بيت الحبيبة ، تدار بينهما الكأس المترعة بخمر الطرب طوال
النهار حتى الليل . وعندما يفسر الليل عَلم ظلمته الأسود ، يسحب من هناك
إلى وادي الهموم . وكان مقامه ليلاً في كوخ الآسى ، حيث كانت الدَّعةُ
عليه حراماً ؛ إذ بالرغم من غيبة الحبيبة عن ناظره ، كان يناجيها ، يقول
لها ويستمتع منها . ودام أمره على هذا النحو رَدْحاً من الزمن ، يُسَلِّم الروح
في اليوم مائة مرة .

وانتشرت الواقعة في الأفواه وعلم بها أهل ليلي ، ولا كت السنةُ
السوء من المرائين هذه القصة ، وبسطوا فيما بينهم حديثها ، ثم نقلوها إلى أم
ليلى وأبيها . وذات ليلة أجلس الوالدان ابنتهما في ركن خلوة ، وتحدا إلى أبيها في حذب
وحب حديثاً كله درر ، قائلين : يا إنسان العين وراحة القلب ، ليَزُلْ
عنك أسى جراح القلب ، ومهما بدا القدر مُسَدِّلاً الستار على الأسرار ،
فما أفساه في تمزيق الستار . وقد يبدأ في نسج السِّدْل فلا يلبث أن
يمزقه إرباً . وفي كل مساء يلتحف الليل ببرده كالمسك ، وإذا الفجر يضحك

من تمزيقها . ولا تلبث الزهرة المستورة بنقاب براعمها أن تفتح عنها نقابها أنسام الصباح . وتستتر الحبة تحت التراب ، ولا تبقى طويلا حتى يتمزق عنها ذلك الستر . وما يتحدث الناس به عن قيس وعنك إنما قصدتم به لك السوء . فمن ذلك ما يلوكون من قصة منتشرة بينهم ، لا يريدون من ورائها غير تدنيس عرضك . قد سمع صبا السحر من البلبل غناه هائما بالوردة في نقابها ، فر بأنفاسه عليها فمزق سترها ، ثم أسلمها إلى الهجر . وقد صار حديثك - منذ انتشر - سمر الأوباش . فاقطعي دونه ألسنتهم ، ومزقي أوراق ظنونهم . وحين يهي أس الحائط من الرطوبة فقد يتقوس إذا دامت حاله ، وإذا لم يعرض أمره على معمارى صار أعلاه أسفله . فاطفئ النار على عتبة البيت قبل أن تصل بقاياها إلى السقف ؛ إذ حين تصل الشعلة إلى السقف لن يُخمد أوارها مهما أعملت الحيلة . فانتزعي قلبك من قيس عامر ، واقطعي أملك من صحبته . فليس من رأى قيس أن ينصرف عن بابك ، فأنت الكعبة وقيس جبل أبي قبيس . فلا تلق إليه بالاليزاح عن كاهلك هذا العبء . ولا تحملى لقب صديق يلحقك منه غبار العار . ولا تحمدي عاقبة حمل هذا العبء ، وانفضي أذيال هذا الغبار ، وابقي محجوبة بستر العفاف ، ولا تسمحي له بدخول البيت مرة أخرى . فذات الحذر والنقاب برعمة ورد لم تفتح بعد ، طيبة المقام في طرف الحقيقة ، غير مُنتهنة بالعرض في الأسواق والميادين ؛ وأما حين تكشف عن وجهها النقاب ، فهي كوردة فتحت ، فصارت غرض البلابل في تغريدها بنسرة الشوق والعشق ، ثم تقطف من منبتها وتوضع في طاقة محاطة بأعواد العشب ، ويدار بها على المحال والميادين العامة ، فيذهب رواؤها وتذبل نضرتها . ومهما طهرت أذيالك ، ولم ينلها سوء من طعنات حسادك ، فلماذا

تصيرين غرضا للظنون ، ومضغة في الأفواه ؟ ومن خلصت رأسه من الأوجاع فقد برأ من الانحراف مزاجه . وللتخلص من آلام الرأس الذي تجلبه عليك عصابة القوم ، خير من لف الرأس بعصابة اتقاء صداع الرأس .

أعارت ليلى أذنها لهما ، وصدرها من نار حب قيس يغلي غليانا . فهما مع قيس على حرب ، ونفسهما بدون قيس ضائعة الذرع . وهما ينالان منه بكلامهما ، وهى تدعو له بروحها بينهما . وهما مع قيس كالما والنار ، وهى معه كاللبن والشهد . وهما منصرفان إلى النصيحة بظاهر القول ، وهى فى طوية فؤادها فريسة الحب .

وعندما أخذ قيس طريقه لزيارة من هامت بهاروحه ، على عادته كل يوم ، التقى فى الطريق بشخص هرم^(١) كأنه حمار مسن ، مقوس الظهر . وما أشد شبه وجهه لصلابته وخشونته بسلاحفاسة . وقد عرى رأسه من الشعر ، لكثرة ما انتابه من حوادث الدهر ، حتى غدا كاليقطينة ، ليست عليه عصابة جميلة . وجسمه عار من المنزر . له شفتان عابستان ، وفمه خال من الأسنان . له عين كالقلم وليس له سواها ، فلا ريب فى أنه بعوره الدجال . ووقع فى قلب قيس فأس سيء من هذه الصورة القبيحة ذات الشكل الخيف ، وقال فى نفسه : كيف يرجئ ربح الخير لمن وقع نظره أول ما وقع على هذه الصورة ؟

وبينما المسكين مبلى الخاطر ، إذ به مع رفيقته شبيه القمر على شرفة الحب . فأخبرته الخبر ، وشرحت له مسلك والديها المشين . وقالت له : انظر إلى

(١) فى الأغاني ج ٢ ص ٤٥ أنه التقى بجارية عسراء فتطير منها ، وفى النص الفارسي لا يعرف أكان من لقيه قيس رجلا أم جارية ، ولذا آثرنا وضع كلمة «شخص» لتكون عامة . (م . ٥ - ليلي والمجنون)

ما يعترض طريق من عقبات ، وأى طعنة تعرض لها فؤادى المصاب .
فبقلبي من الهيام بك جراح ، وفراقك طعنة في تلك الجراح . ويحترق قلبي
على فراقك ليله واحدة ، كما يحترق شمع المحفل ، فقل لي بربك كيف تكون
الحال لو امتد به الفراق شهرا أو سنة ١٩ . وفي مقدمك لزيارتى مائة بلاء ، وإذا لم
يلحق بي أذى منها فأنا على وجل من أن ينالك بأذى امرؤ سوء .

وسمع المجنون قولها فزق ثيابه جزعا ، وغلت روحه من شدة وقع ما جرى .
وأخذ يردد هذا اللحن : أى قلبي رضى بعد ذلك نفسك على الصبر ؛ وأنا
عن كل شيء سوى الصبر ، ولا عليك إذا ردك الحبيب ، فلن يحين اليوم
الذى يألف فيه قلبي سواه . فلهجر عن رغبة من الحبيب هو الوصال ، بل
هو من الوصال أطيب . ومن يبرح به الشوق للقاء الحبيب بدون رضا
منه ، فليس صادقا في دعوى العشق ، وليس بأهل لأن يحمل لقب العاشق .
فالعاشق من تجرد عن نفسه ، وأقفل أمامها باب الشهوات ، وهو الذى
يسلك وادى اليأس ، قد خلا من الغم ، وفرغ من السرور . فهو خلى من
الآمل ، وفى أمن من الخوف . قد ركن بنفسه إلى التسليم . لا يعرفه أسى
لما يقاسى من محن ، وهو بكل ما يحدث جد مسرور .

(١٩)

عقاب^(١) والد ليلى لها حين علم بلباقها المجنون

لما حُرم المجنون زيارة النهار نزولا على حكم أسرة قلبه ، كان فريسة
ألهوم طوال النهار حتى الليل . وكَم بلغتُ روحه التراقى . فإذا جَنَّ المساء
اتخذ من الليل لباسا ليذهب في طريق الطلب ، وجعل ديار الحبيب له مبيتاً ،
وقرَّ قرارُهُ هناك طوال الليل . وكلما وجد مجالا للحديث تحدث ، كما تسمع
الحال ، عن تباريح فراق النهار ؛ وكَم كان يحكى عما يلهب به صدره من الشوق ،
وعلى الرغم مما كان يعاني من غصص الهجر ، كان طيب الخاطر بما يبذل
من جهد .

وذات ليلة كان هذان الحبيبان الطاهرا الذيل ، الطيبا السمعة في عالم
العشق ، يتجاذبان مختلِمين أطراف الحديث ، فمر بهما حدث من أهل
الحى ، من ذوى القلوب الميتة ، ومن يسيئون الظن بدلال للعشق ، فرأى هذين
البائسين الجريحي الفؤاد فى خلوتهما ، فأخذة الحسد على طيب صحبتهما ،
وأساء بهما الظنون . وحقاً لا يأتى الخبيث بالطيب ، وكل حامله تلد من
جلسها . وينضح الإناث بما فيه إن خلا وإن خمرأ .

وموجز القول أن ما رأى من قطرة دمع على خد ليلى بالغ فيه فجعله
سيلاً هامياً . ومر فى اليوم التالى بوالدها على انفراد ، فأخذ يقص عليه

(١) قد أخذ المؤلف معنى هذا الفصل من قول قيس :

أمضوبة ليلى على أن أزورها ومتخذ ذنبا لها أن ترانيا ؟

(شرح ديوان المجنون لمحمد كامل فريد ص ١٧٨ ، وتزيين الأسواق ص ٦٣)

من خياله ، وأشعل نار الغضب في هشيم حصيده ، وسرعان ما أكلت النار هذا الحصيد ، فأقبل على ليلي بنار غضبه ، وألقى على سرّ أمسياتها مع قيس ضوء الإبانة . وبسط إليها كف التأديب ، وصفع وردة خدها صفعة آلمتها ، فصار الخد في لون التّينيلوفر الذي عانى قسوة السيل ، وصار أزرق ذلك الخد ، بعد أن كان في لون الشقائق . ونالها بضربة عصا لينة على قامتها ، فترامى بها ما يشبه النورد على قامته كشجرة الورد ، وكانت ليلي تردد في كل لحظة التوبة ، وهي تعنى التوبة من كل شيء إلا من عشق قيس . وكانت في كل لحظة تصيح منتحبة لامن الضرب بل من ألم الفراق . وكانت جفونها تريق دماء ولكن من جوى السبعاد .

ثم حلف والدها بجلال الله الذي تخر من هيبتة الأفلاك سجدا ، وتشرق لوامع كماله في بدائع جماله ، من 'يطالع' المقربين إلى حضرته على أسرار صفات ذاته : أنى سأحمل شكاتي أمام الخليفة من تطاول قيس ، وبما يحجره على من ضيق دائم ، إذ يلج أطراف حريمي صباحا حيناً ومساء حيناً ، ويضع مئات الأشرار من الحيل والكيد ليصيده غزالي المليح . فإذا أنصفني الخليفة فيها ، وإلا فلن أصبر على الضيم ، وسأتصدى له في الطريق الذي يسلكه فأنزله ، فأحكم حوله حلقة بالسيف والرح ، فإما ابتعد عن الطريق وإما خاطر بأجله .

وعلم المجنون بالحديث في نفس اليوم ، فاحترق فؤاده ، وضاعت عليه الأرض بما رحبت ، وبرحت به آلام الهجر وغصصه ، فاقصر عن البحث والطلب ، ومضى من لوح قلبه حروف الأمل ، فاعتزل ، وكف عن حث خطاه للذهاب إليها سرا أو علانية . ولم يفعل هذا خوفا على نفسه ، بل حذار أن ينال حبيبتة من جور والدها سوء .

(٢٠)

الجارة الأرملة^(١)

كانت لليلي الفاتنة جارة ليست من قبيلاتها ، مكرومة الفؤاد من كرب
الاغتراب ، مهمومة الفكر لمحتها بالترمل ، فقد خلفها زوجها وحيدة مع
يتيمين بقيا لها منه . فكانوا معاً غرباء مهجورين ، يقاسون آلام الجوع
والعري . وعندما حرم المجنون كنز الوصال ، صار من الأرملة كالبلوم
يأوى إلى بومة ، واتخذ من منزلها الحزين مأوى يقوم فيه بخدمتها . وكان
يرى هذين اليتيمين فيمسح بيد الشفقة على رأسيهما . وكان يضع سراً في
أيديهما كل ما يقع في حوزته من فضة وذهب . وحين ضاع من يده ظل
الحبيبة ، استعاض عنه بجارتها ، شأن الظمان المكروب في البادية حين يمش
بشفثيه الرمال النديسة ، طالباً في طرقاتها عوضاً عن الماء حين يعز الماء
وتشتد به الحى ولهب القيظ .

وكان من دأبه ترك كل قيل وقال ، سوى السـؤال عن أسرة فؤاده
وحبيبة روحه . فكان يقول كيف هي ؟ وما حالها ؟ ومنذ الذي يتمتع بجهاها ؟
ومع من عقدت الوصال ؟ ومع من من تمارس آيات الدلال ؟ أولها آخر
مثلي أم لا ؟ أولاً زالت أنظارها إلى أم لا ؟ ومن ذا الذي وقع قلبه في
أحاييل غداثها ؟ ومن الذي يستقبل محراب جفونها ؟ وفي فم من تصب

(١) خبر تردد قيس على جارة ليلى الأرملة المذكور في تزوين الأسواق للأنطاكي ص ٥٧ وفيه
أن والد ليلى فطن للحيلة فنع الأرملة من استقبال قيس ، فأشدد قيس في ذلك :
أجارتنا إنا غريبان وهنا * وكل غريب للغريب نسيب
فلا تـزجـريـني عنك خيفة كالشـح * إذا قال شراً أو أخيف لبيب

الشَّهْدُ من شفاهها الياقوتية التي تخلط بسماها بالعتاب ؟ وبأذن من
تعلق نظم اللؤلؤ من قولها ؟ إني لمحترق شوقا إليها حتى أحظى برؤية
حياها . وإني لصريع لوعة النأي ، فختام أبقى خدن الفراق ؟ ويحظى غيري
بمجالستها ودلالها ، وبحسبي أنا أن أجلس بمنزلك كي أرى من بعيد ربها
وطللها .

وما إن فرغ من قوله حتى خر على الأرض ، تهمى بدم الدموع عيناه
هميانا استنفد به كل ما فيهما من قدرة على البكاء ؛ وخارت قواه ، فخر
مغشيًا عليه ، لا يشعر بشيء في هذا العالم . فكانت الأرملة ترش على وجهه
الماء ، وتغسل عن ناظره كحل الإغماء . وعندما كانت تصحو عيناه
من الغفوة ، كان يشرع في الانصراف . ولم يكن له هم غير هذا النوع من
الطَّاب ، إذ كان محروما من رؤية حبيبة روحه . ولكن القدر بحكمته
القاسية — وذلك دأبه دائما — كان يهيء له طعنة أخرى ، ليثني زمامه عن
المراد . فقد سمى الوشاة بليلي إلى أبيها ، وتكلموا في أمر ذهابه ومجيئه ،
ونسجوا حول ذلك الأقا صيص ؛ ثم انصرفوا ؛ فأخذ والد ليلي يغلي غيظا ،
ويصيح من فعلة الأرملة المنكرة ؛ وقال لها : أيتها الخسيصة الحقيرة ! ماهذه
الدناءة ؟ وما هذا العمل الذميم في حق ؟ ! لماذا تفسحين الطريق
في دارك لمن شجر بني ، وسبب لي العار ، ورمى جام شر في بالأحجار ؟
وإذا طرق بابك مرة أخرى فآوئته استرضاء له ، فاعلمي عن يقين أن هذا
لن يبقى سرا .

وعلى سماع لومته ارتعدت المسكينة خوفا كبيرا في الماء . وحين
رأت المجنون في المرة التالية مقبلا من بعيد موله القلب صاحته به : أيها
الابن السعيد الجد ! أنت لا ترضى بأذى لمسكينة مثلي ، فلا تلج لي منزلا ،

ولا تضع قدمك من بعد في ساحتى . ليلي صديق لك ، وهى على حبك مقيمة ،
ولكن أباهما يسرُّ لك الضغينة . وهو أمير قبيلة ، وأنا مسكينة ؛ فأين أنا
من صولته ؟ ولا أخشى على حياتى فحسب ، ولكن أخاف بخاصة عليك .
فاحرص كذلك على ألا يلحقنى ضرر ، وقد أخبرتك بالصدق ، فذار أن
تريق دمك .

واضطرب المجنون لسماع هذا الحديث ، وهمس با كيا بهذا القول :
ما هذا العمل أيها الأم الشفيق ؟ إن قلبى جم التأثر لإشفاقك على ؛ فكلانا
غريب هذه الديار ، وليس أحدهما بغريب عن الآخر . وماذا علينا
إذا أسدى كل منا للآخر يداً ؟ وأى ملام فيما تقطر به قلوبنا من دم
الأسى ؟ كل غريب عانى آلام الاغتراب فغريب عنه أذى الغرباء ، إذ هم
في كتاب الأنساب أقارب ، بعضهم من بعض ، وقد أثبتوا على صفحاته
نسبهم ، فلا ينال من نسبهم بعد ذلك أن يمزقوا صفحات ذلك الكتاب .
كنت في منزلك أولى وجهى شطرا ليلي قانعا ، والآن وقد صرفت وجهك عني ،
فإني أدعو لك دعاء منبعثا من الروح والقلب . وهأنذا غريق في مستنقع
الورطة ، أحزمت راحلتى عن دارك ، وقد أقبلت مسرورا ، وهأنذا أعود
مهموما . وهكذا أمضى ليلتي ، ولى عندك رجاء : إذا وقع نظرك على ليلي
أن تذكرها باغترابي ومحنة حرمانى ، وأن ترددى بلسانى لها الدعاء ، وتمنى
لها باسمى البقاء . وإن تجب يوما لى بغيتى ، فقد حلت عقدتى ، وإلا
فساقضى من الفراق ، لأتعلق بأذيالها فى الدار الآخرة يوم التلاق .

قال هذه الطرفة وأخذ فى السير ، موليا وجهه بدون رفيق شطـر
الصحراء .

(٢١)

شكوى والد ليلي إلى الخليفة^(١)

قد منع والد ليلي الجليل الشأن ، الخطير في كل الأمور ، المجنون الواله القلب من زيارة تلك الحسناء الفاتنة القسمات . وبوقوع حادثة الأرملة حق عليه العمل بالقسم الذي كان قد عقده من قبل ، وبمقتضاه نهض ليضع رحله بباب الخليفة ، وشرح — على ماهو معهود — قصته كما هي ، قائلا : في قبيلة بني عامر شاب عنيد الطبع ، نظام لقصائد الغزل ، مقيم خداع ، يمزق ستار السمعة بنفاقه . وهو براء من مراسم الآداب ، قد أعطى نفسه لقب المجنون ، خليع العذار ، صنّاع في توقييع ألحان الحب . وعندى دوة يتيمة كائناتها إحدى الحور ، محجوبة عن أنظار حوادث الزمان ، طيبة النفس في ستر خدرها ، مسدل نقابها على فائن قسماتها . لم ير وجهها أحد سوى المرأة ، ولم يمس شعرها غير المشط . وما إن تكلم في أمر عشقها هذا الشاب الطائش الرأي ، المفضوح أمره والممزق ستره ، حتى تلتقف العالم صدى حديثه . فليس من مجتمع يخلو من التغنى بهذه القصة . وإن اسمها المستسر كالروح في الجسم ، وهو في صدرى بمنزلة الروح ، بعد أن تغنى به غزلا ، امتلأت به الأفواه في أرجاء الأرض . وقد أبلى هذا الشاب بذهابه وجميعه عتبة بيتي ، يدخل الدار دون أن يطرق الباب ، فإذا كسرت رجله سعى على رأسه . فإن أحكمت رتاج الباب أقبل من السطح . وإذا

(١) في الأغاني أن أهل ليلي شكوا قيسا إلى الخليفة فأهدر دمه لهم (ج ٢ ص ٢٦)

وقد أفاد الجاهلي من هذا الخبر في نظم هذا الفصل .

طار دته صباحا طرق زائرا ليللا . وقد ضاقت نفس الجار به ذرعا لالم ما عانى منه . ومن يسعفني غيرك ؟ فأنشدك الله أن تنقذني ، وتتعطف برعايتي ، فتكتب كلمات في رسالة إلى أمير تلك الولاية ؛ ليتصرف بما يقضى به كرمه ويحرّرني من ربة هذا الأمر .

وعلم الخليفة تفصيل حاله ، وأعطى الأمر على وفق ما طلب . وقرأ أمير الولاية أمر الخليفة ، فتوجه في ركبه إلى قيس وقومه ونشر بساط العدالة ، ودعا رؤساء بني عامر . وجلس قيس مع أبيه ، وأحاط بهما أعيان القبيلة في شكل حلقة . وأخرج الأمير منشور الخليفة وهذا مضمونه : على قيس المجنون ، الذي يفتخر بعشق ليلي ويشبب بها ، ألا يتجاوز حدود الإنصاف ، وليشتغل من الآن فصاعدا بحال نفسه . وليلزم ديار قومه ، ولا يتغن بالغزل في ليلي ، ولا يسوقن راحلته في طلبها . ولا يقصر خطوه عن السعي وراءها ، وليربط لسانه عن القيل والقال في عرضها ، وعليه ألا يعرّس في حرم دارها ، وألا يشترك في مجتمع مع بني حبيها ، وألا ينشد أغنية على لسانها ، وألا يسلج القصص حول أطلالها ، وألا يبيت على عتبة بيته يقص على المجامع قصتها ، وألا يضيوع المحافل بإحراق عود وجودها ، وألا يتغن بها غناء الثمل ، وإذا وقع منه ما يخالف ذلك ، فهو مستحق للهلاك . ومن يقتله عمدا ، ويرم قارورة جسمه بالأحجار ، فليس عليه من دية ولا قصاص ، ولا يحكم عليه بعقاب عام أو خاص .

ولما رأى القوم الواقعة وعلموا مضمون منشور الخليفة ، تناولوا على قيس ، وصوبوا إليه — مفتحة عيونهم — نظرات الإشفاق وقالوا : قد سبرت غور الأمر بعد أن سمعت منشور الخليفة ، فليس بعد من مجال للكلام ، وليس من قول أسى من هذه الأقوال ، فإن لم تستقم

على هذه النصائح قدمك ، فدمك مثل مالك مباح . فارّع جانب والدك ، وعدّ عن ذميمة خلتك . فلو أن ليلي أو والدها قتلاك اُطّل دمك . وما لنا والصراع ؟ وما لنا والبحث عن النزاع والأحقاد ؟ .

وسمع المجنون هذه النصائح ، فصاح صيحة العاشقين ، وهمت جفونه بها طلّ من دم القلب ، انتشر على صفحة وجهه الممتقع . ووقع على أرض الذلة والهوان ، وغاص في هوة المهانة والحقار ؛ يتلوى تلوى السليم ، ويرّ عش كطائر يختصر . قد طار عقله من رأسه ، وذهبت روحه من جسمه ، وغاب عن نفسه كالمصروع . وحوله من الخلق حلقة محكمة ، قائمين عليه في مآتمه ، ووقف الحاكم مكروبا وقفة القتال . وأخذت صبغة سلطانه لونا آخر ، ووهن دستور حكومته ، وانحى أثر منشور الخليفة . إذ سبيل سلطانه على ذرى العقول . وليس من تسكيف على غير العقلاء ، وما المجنون بأهل للتشريع . وطال بقيس المقام على حاله ، صريعا على الثرى ، وجهه إلى الأرض . ولما أفاق من إغماءته ، جرى في هوسه إلى أنشودة ، وردّد بمضرب العشق على أوتار قيثارته هذه الألحان ، قائلا : نحن السكرام المسافرون في طريق العشق ، ونحن غرض لغارات جيوش العشق . وليس لنا أمر سوى العشق ، فما بنا خوف من الخليفة . وإن يد الخليفة لتقصّر عنا ، إذ وصلنا إلى مكانة قيّد فيها العشق أقدامنا واستعصم حمامنا بعشّ يستعصى على باز الخليفة . نحن طير عشنا في سدرة المنتهى ، ويسمو بنا موطننا عن الأرض ، ويطيّب لنا فيه المقام . وأية قوة نحفل بها لتلك الشراك التي يلسجها العنكبوت !! أو حين تغزو روحى وتحتلّ مكانها من قلبي يقولون لى : سر في طريق الخليفة ! واترك من أجله تلك العروس المجلوة ! هيئات ! أى مكان لهذا الخيال ! فهجرى إياها محال ، وإنى لأحى فيها كما يمحى الظل في النور ، وبعيد عن التصور أن أكون بعيدا من نفسى .

(٢٢)

والد المجنون يخطب ليلي^(١) لقيس ابنة

ماشطة عروس هذه القصة ، المدلة بنفسها ، هكذا جلت عروسها قائلة :
 خرق قيس طريحا تحت أقدام جيش الهموم ، صامداً في مسيل البلاء
 كالجليل ، مضطرباً تدور به الرأس في كل متجهه ، كأنه دَوامة إعصار
 في الصحراء تدور بها الريح . وظل نائياً عن حى ليلي ، وقلبه ملىء بالشوق
 إليها . وضائق به نفسه ، وأظلمت الدنيا في عينيه ، وصار على شفا الهلاك
 من أنثاى ، لا يقر له في مكان قرار ، بل كان دائم التنقل في كل لحظة من
 مكان إلى مكان . يقطع الأودية المحرقة الرمال ، تطأ قدماه نارها وشررها ،
 يرمى بظله على الرمال كأنه سحاب ، ويثشد القرار على حد السيف . وإذا
 جاز أن يحيا على الغم بئس ، فكيف له بالعيش على لظى الجمر وحد السيف ؟ !
 وأينما لمح سوادا جرى إليه جرى الدمع إلى سواد عينيه ، مستخبراً منه
 عن ليلي ، مرددا اسمها وقلبه نهب الوجد . فإذا حدثه عنها بضع كلمات تكحل
 بتراب أقدامه ، وإلا سحب عنه أذياله ، وقطع معه سلك حديثه .

وما إن استمرت حاله على هذا النهج ردحا من الزمن ، حتى قطع كل صلة
 له بالعقل ، واشتد به الشوق وشن الحرب على صبره ، وصار منكس العلم
 كالقلم ، فاعمل الحيلة ، وسلك شعاب الفكر : ثم سار شطر قبيلته ، باحثاً
 من بين رجالها عن رجل شبيه بالروح المشرقة الجوانب بمصباح العقل .

(١) لأجل خطبة ليلي لقيس ورفض والدها تزويجه إياها راجع الأغاني طبعة دار الكتب

وقال له : لى لديك أمل أرجو أن تسعى فى تحقيقه ، أن تحمل منى إلى أبى السلام ، وأن تبلغه منى هذه الرسالة :

يامن بفضل رعايته عميت كمنخلة ناضرة توج رأسها الثمر . فطينة زهرتى من صليع يدك ، ومضمون ما فى قلبى من خط بنائك . ومالى من شمائل إنما مردها إلى فضائلك ، وهى كل مالى من فضائل ، فأنت حليلة بستان عيشى ، وأنت النور لسراج حياتى . وقد رأيت منك من البشائر ما تلا بعضها بعضا ولى فيك الآن رجاء : هو أن تأتىنى البشرى بتحقيق أمل آخر : لىلى مراد الروح وسعادتى الدائمة ، وقد صانوها فى خدرها عزيزة ، كما إنما أرادوا أن يقوها الحسد من نظراتى . وهأنذا على شفا الهلاك من فراقها ، فقلبى اليوم مكلوم وصدرى محترق ، إذ بسوى بابها لا يطيب لى مقام . وويل لى ثم ويل لى إن لم يتيسر لى ذلك المقام . وموجز القول : أمل أن تستجيب لمطلبى ، وأن تنظر لما أنا فيه من آلام ، وأن تطبني مما أعانى من سقام . انصح لوالدها ألا يسر لى الضغينة ، فالعالم لا يعدل مثل هذا العناء . ولا يضع فى عنقى طوق صنيعه ، ولا يرفع رأسى بأن أكون له عبدا . وأصير له صهرا ، بل أقل خدمه شائنا . وقد قلت لى إن نسبك عال وينال من قدرك مصاهرته . وقد احترقت وجدا ، فما جدوى النسب ؟ وماذا وراء النسب غير محن الليل والنهار ؟ أمل أن يبدو خبيثى طيباً فى ناظريك ، وأن يعمر قلبك بسببى ، إذ لم يبد لى منك حتى الآن سوى الجدة على ، كأن ليس لى إديك من حب أبوى . فاصغ للنصيحة القائلة : ارحم ترحم ، فتمنحنى منك العطف الذى تشمل به ذوى رحمك . كن رحيما ، فالمرومة فى الرحمة ، وهذه روحى تسكاد تزهد من ظلمك . وليست غايتى من هذا سوى النجاة بنفسى ، فأى مكان لهوى النفس

في المقام الذي أنا فيه ، وإنما هذا ديدن طينتي الطاهرة ، وطبعي البريء من
الآدران . وقد احترقت روحي بحب ليلي ، فجنى حصاى منها حرقه
الروح . ولم أجد هذه العاطفة لدى سواها ، ولذا لن أحول نظري عنها .
وأى بكاء تجود به عينا مثلى الفريد الطبع المبلبل الخاطر ! هذا ولم أضع أولا
ولا آخرأ قدما في جادة الطلب من أجل امرأة ، وحسبي أن أنظر لها أحيانا
عن بعد ، وستبوأ هي صدر عرش اللطف والدلال ، كريمة مرفعة الرأس ،
وأما أنا فمقامي حيث تضع نعليها ، وسأكون دون قدميها مهينا ذليلا .

نهض هذا الصديق الكامل الخلق ، النزيه الشماىل باكيا من محضر
قيس ؛ وأخبر أشراف القبيلة بما تم من أمر والده . فاتفقوا فيما بينهم ،
وحلفوا على ما اتفقوا عليه ، وتوجهوا بعد ذلك إلى أبيه ، ونشروا على
وجل كتاب كروبه . ونقلوا كلمات قيس إلى أبيه ، وعرضوا عليه درر
قوله . وعلم الأب إلى أية حال وصل الأمر بابنـه ، فوضع يده على جبينه
وبكى ، إذ انتهى سكين الأسى من قيس إلى العظم ، وبلغت المحنة بقلبه المدى ،
وقال الأب : كيف لي أن أطيب خاطرا بما يعاني من آلام ، وخير أن
أشمر عن ساعد الجد ، ناشدا الشفاء لما به من داء ، باذلا من الجهد كل ما استطاع ،
واضعا في كفه زمام المقصود ، وسأجعل له ثملا من جام المراد .

وأعدت الرحال للذهاب ، ونهض معه من القبيلة جمع من الصحاب .
وصلوا جميعا الطريق ، تهمل عيونهم من الدمع سيولا : الشيوخ في تضرع
الشفعاء ، والعقلاء في تواضع المطيعين ، حتى وصلوا إلى الوادى حيث
ضربت خيمة ليلي ، فأتى والدها على ماله من مكانة معروفة ، ومد بساط
الضيافة ، وجرى الخدم من كل الأطراف يحرون أبسطة الموائد . وقد
أخذوا يتجاذبون على الطعام أطراف الحديث الطريف ، يحكون من

القصص ما طابت به خواطرهم . وقد طرق كل منهم باب حديث طريف ،
كاشفا القناع عما في ضميره ، وقاد من كل جانب جنيبة ، مواريبا في قوله
عن القصد . وقالوا : من دأب هذه الدنيا أن البد الواحدة لا يأتي منها على
الصدى حتى تساعدها اليد الأخرى ، وخبرني كيف يكون الميزان ميزانا
مالم تستقم ذراعاه ؟ والجمل مقبور ما دام فردا ، ومرآته أن يصير ذا زوج
وألقي بنظرة على البساتين ، فهما كانت الوردة جميلة فهي وحيدة معزولة ،
فإذا انتظمت في سلك الخضرة ، صارت لعينيك أطيب منظرأ .

ثم تسابقت ألسنتهم في الثناء على رب البيت : أنت من اقتلع جذور
البخل ، وهذا الحى حى بسخائك . وفي خدرك قر مجدود إذ عين رعايتك
عليه مبسوطة ، وهى نقية الجوهر كلؤاوة لم تسلك ، عذراء كبرعمة لما تتفتح .
وهى بدر ، ومن الأسى أن يتنقّب وجه البدر بسحاب . فتمطف على ظلمة
الليل ، واكشف السحاب عن وجه ذلك البدر . إنها فريدة ، وسنهدىها
آخر إذا أردت أن تزوجها . وقيس ذو فضل ، وهو مشتاق لأن يشرف
إذ يصير من غلمانك . وهو فى أصله ونسبه وحيد الدهر ، وفى فضله وأدبه
مضرب الأمثال . فلا تحرمه هذا المراد ، وقد قدمناه لك صهرا وابنا ،
فلتقبله بحضرتك غلاما ، فتبدل علقم ريقه شهدا . فهى من الحور وهو من
الملائكة ، فجوهرهما قدسى الخلقة . وغير محمود أن يظل ملك مهجورا من
الحور كأنه شيطان . وهما جوهرتان كلاهما للآخر كف . وهما نجهان
يجذب كليهما لأخيه الشوق . ومكان الجوهرتين علبة واحدة ، ومقام
النجمة — ين برج واحد . وقد قلنا ما يقتضيه الوفاء والعطف ، على أنك
بعدُ تعلمه .

(٢٣)

رفض والد ليلي خطبة قيس

كان والد ليلي غريباً عن منهج الإنسانية وتقاليدها ، قد ضل طريق المروءة ، كأنما ركب في جسمه عوضاً من قلبه حجر ، بل بينه وبين القلب آلاف الفراسخ . وهو مطمور المقام في بئر الغفلة ، سريع الخطى في ركوب طريق الضلالة ، غريق ظلمات دخيلته ، في جنة السواد من قدمه حتى ذؤابة رأسه ، ناه عن شرعة الإنصاف ، موقوف على جهل جبلته ، فارغ البال من معاني العشق والدلال ، مستريح الخاطر من التباريح التي تصهر الروح ، لم يعان للمحبة لوعة ، ولم يذق للمحن جرعة . فهو مشتم شمل المحبين ، وموهن عزم العاشقين . أى أن الراعى لأمر ليلي قد اضطرب به أمر ليلي . وعلى الرغم من أنه والدها نسبياً ، فقد خرج من نطاق أبوته مساكناً . فليس بين جنبيه لها رحمة الأبوة ، وقد جلب عليها مئات المحن والغم . وعندما سمع رغبة قبيلة قيس ، لوى عن مرادهم عنانه ، وقطب حاجبيه ، وعقد مئات العقد غضباً على جبينه ، وكيف يكون حال امرئ حين يقطب الجبين ، وهو الذي إن ابتسم يجرح ببسمته القلوب !! لقد قال :

ياله من خيال غير صائب ، واهن كبيت العنكبوت ، لو طُلب مني أولاً هذا الأمر ، لكان عين الصواب والعقل . أما اليوم فقد امتلأ حيز الزمان بصدى هذه الأنشودة ، ولم تبق أذن في العالم لم تصغ لرجع هذه الألحان . وغدت القصة حديث الأطفال ، ويردها القوم في عقر دارهم ، ويحتسى الداعرون في مجالسهم على أنغام ألحانها كئوس الخمر . ويحذر الناصحون

الداعون لـكريم الخلق من أمثال حالتنا ، وأى عار آلم من هذا العار ؟ إن هذا لأسوأ ما يتصور حدوثه ، حاشا أن أقبل مثل هذا الرأي ، وأن أنسج حيلة من نظم الشعر . وها هي ذى النار تفيض بالأنوار على الجبل الشاخ في ليلة حالكة ، فكيف يستطيع إخفاؤها في الهشيم ؟ وكيف يستطيع ذوو الألباب مثل هذا الهوس ؟ وأنى للزجاجة التى تسكرت قطعاً على حجر أن تستعيد سيرتها بمحض الرغبة ؟ وكيف تعود سليمة على ما كانت عليه ؟ فإليكم عني ، وأقبلوا باب هذا الحديث . فقد تدنست أذيتي بهذا العار ، وثقل به كاهلي ، فلا تجلبوا على عارا آخر ، بل دعوني وشأني . ولماذا آتى عملاً مشيناً ؟ وكيف أحمل عبثاً هذا العبء ؟ وكيف أعهد بعيني إلى لثيم وضع قذى الأشواك في عيني ؟ وكيف أقبل أن أسلم قلبي إلى من يصوب سهامه إلى قلبي ؟ ومن شأنه تصويب السهام يستطيع تسديد الضربات وحمل أعلام التشهير . وإني لأشتكى الآن من ضربة واحدة ، فلا أستطيع أن أسلمه ظهري لبيوده بحمله . والسالك يمضى لغايته خفيف العبء . وليس هناك من عبء أثقل من العار . فلا تفدحوني ظالمين بهذا الحمل ، ولا تقصموا هذا الظهر المقوس .

وظل العامريون جالسين ، وامتلات آذانهم بهذا الرفض ؛ ثم فضوا أخيراً خاتم الصمت ، وأخذوا من جديد في تنميق الكلام . وقالوا . حتام الحديث عن العار ؟ وإلام هذا الافتخار الذى لا مكان له ؟ فقيس ذو خلق كريم لم يتجاوز نطاقه ، ولم يتعد حدود الفضيلة . وحذار أن تعد الحب الذى أصيب به من عيوبه . وليس من مجال للقليل والقال في عشقه ، إذ العشق دليل على طهارة طبيئته ؛ فأنى لقلب لم تتطهر سريره من الشهوات أن يحترق بنار العشق ؟ وليس من عار في نقاء السريرة ، ولا منه غبار على محيا الفخار ،

وقد قلت: إن ليلى بما يحاك حولها من قصص قد جُمِلت بالعار بين بنى عصرها،
وأى مجال للعار وقد أضحت من عشقها طيبة السمعة ذائعة الصيت؟ وإنما
دليل عفتها وجمالها وجَدُّه بها وحاله معها. فلو كانت المعشوقة غير جميلة
لم يقع المعشوق فى طريقها ذليلاً. وإذا كان الجميل ولم يكن طاهر الجيب،
كان فى وصاله مظنة عيب، فسرعان ما تنطفئ نار حبه ويموت عشقه من
قلب الهائم به؛ وهذا هو مجال الافتخار، فأخبرنا عن العشق ماذا فيه من
عار؟ فهما قال قيس فى ليلى فهو شاهد على جمالها. ومهما كثر عدد الدلائل
فلن يتجاوزوا مجال القول. ودلال الجمال ذو قلب، فلا عيب فى دخيلته
ولا عار عليه. وإنما يظل فى المقام المعوج ذلك المعوج المسلك الخبيث
الطبع، المريض الدخيلة.

وحينما سمع والد ليلى هذه العبارات الصائبة، كان كالجاهل
الذى تؤلمه الحقيقة، وانسد عليه طريق الجواب، فأطلق لسانه العنان
بالخلف، وقال: قسما بالله الذى لا يخلو منه مكان، ليس له مكان والعالم به
معمور الجوانب. وليس العالم منه خالياً، إذ هو ملء الأرواح. وكل ذرة —
وإن لم تكن فارغة منه — فليس لها به علم؛ قسما بالمرسلين من الأنبياء،
وهم الصف الأول من ثابى الأقدام، من مارسوا الحكمة ولقنوها، وهم
النافذون البصيرة، مؤسسوا بناء المعارف، ومخطموا قوى أهل السوء، ومن
ينهض بهم كسيرو الجناح، وتتحطم بهم شوكة أهل السوء؛ وأقسم كذلك بأبناء
الكعبة مسكننا، الذين يطاقون من جعبة الكعبة سهام نظراتهم، فإذا انكل
سهم ألف فريسة خرجت فى مصيدها عما ألف من التدبير، إذ هم جميعاً من
صيد الحرم، وتقصر مع ذلك دونهم السنة الأفكار؛ إن طلبتم بجهودكم
شعرة واحدة من ليلى لقيس، وأعطيتهمونى ثمنها لها العالمين، فلن تعودوا
(م ٦ — لى والمجنون)

في هذا الأمر بغير الخيبة والفشل ، ولشجرة منها خير من ألف مجنون . فليدم له جنونه ببعده منها . وبحسب المجنون الذي يطلب مني الإنصاف ، طالبا ليلى مراداً له ، أن يسلم الروح ، وأن يبلغ غايته بموته من فراقها . فلا تعيدوا عليّ هذا الكلام ؛ ولا تبحثوا عن تحقيق أمليكم في هذا الشأن .

و حين سمعوا منه هذا الجواب ، بسطوا ألسنتهم بما لا طائل تحته من العتاب ، ورجعوا إلى منزلهم يائسين ، وأرسلوا إلى قيس صديقه الوفي ، وأفضوا إليه بكل ما جرى ، وأسرّوا إليه بما تفتح من ورد أقوالهم ، ففقد كل أمل في الوصال ، وفقد قلبه والراحة القرار ، وأسال دماء الدموع ، ورقد في وحل دموعه ، مردداً هذا القول من صدر مليء بالحسرات :

ليلى الروح وأنا لها جسم ، فيارب بروحها المشرقة إلاقضيت على من قضى علينا بالفراق ؛ ألا فليكن له الموت في كل نفس من أنفاسه ، ولا تزدهر له حياة ؛ وهذا الإنسان الذي فطر قلبي ، وردني نائياً عن ديار حبيبي ، لتنفطر — مثل قلبي — روحه ، وليضل به السبيل في كل البلاد . وهذا المرء المتمتر الطبع الذي قذفني من بعيد بحجر الفراق ، لتموق أعقاب قدميه على الأحجار ، وليلتهم رأسه نمر . فقد رمى على قلبي ما يشبه الخاتم المستدير ، فضاقت به على أرحام العالم النفسيع ، وهو الذي تركني من الدهر في مضيق هذا الدور ، فأصبحت كحجر في فص خاتم الجوز . ألا فلتنزع أظافره من الأصابع ، وابتصر يده عن حك ظهره الأجر (١) .

(١) قارن هذه المعاني بما روى للمجنون من شعر يدعو به على والد ليلى ومته :

ألا أيها الشيخ الذي ما بنا يرضى	شقيت ولا هنت من عيشك الخفضا
شقيت كما أشقيتني وتركيتني	أهيم مع الهلاك لا أطعم الغمضا
كأن فؤادي في مخالب طائر	إذا ذكرت ليلى يشد بها قبضا
كأن لجأج الأرض حلقة خاتم	على ، فما تزداد طولاً ولا عرضاً

انظر شرح ديوان المجنون لمحمد كامل فريد ص ١٢٩ — ١٣٠ والأغاني ج ٢ ص ٩٢ — ٩٣

(٢٤)

نوفل يعد قيساً بتزويجه من ليلي

جامع لطائف هذه الصحائف قد استخرج هذه الناجفة من معدنها من
فراء الظبية فقال :

ظل المجنون نائياً عن ليلي، غريق الأنظار في دم الدموع، وتبدلت حاله
من اليأس من مطالعة جمالها سيرة أخرى . فشد رحله بعيداً من الحى، ونفض
عن أردانه غبار موطنه . وصار مثل غزال الصحراء ، وحمل الوادى ،
يضرب فى صخر جبل اليأس ، صبوراً على كل أذى ، نفوراً من كل من
يرى من الناس . ولم يكده يبقى له فوق بساط الغبراء غير الأانس بظباء الصحراء .
وفى الليالى حين كان يذوق طيف السكرى ، كان يلتحف ستار الظلام ،
ويجعل من عجيبة حمر الوحش وسادته ، ومن جلود الغزلان الجافة سريره .
وكان ينهض كل صباح من نومه فيملاً الأرض دموعا ، ويرتوى من دموعه
التي تفيض من كتوس عيذه فى لون الورد ، وندماؤه فى مجلس شرابه الغزلان .

و ذات يوم كان عارى الجسم كالقلم نحافة ، قد اتخذ من الرمال صفحة
يخط عليها بإصبعه : ليلي ليلي .. وفى ذاكرته ذوابتها كلامين فى لون المسك ،
وهو ينظر بعينه لاميها حين يكتب اسمها ، وينثر فى عزلته من دم قلبه
دموعاً سائلة من جفونه تشبه النقط ، ينثرها على الرمل ليكمل بها كتابة
الاسم^(١) . وبعد أن يكتب اسمها على الرمال ، ويخلطه برشح دم كبده

(١) يتخيل الشاعر أن قيساً حين كان يكتب اسم ليلي كان يرسم فى الوقت نفسه ذوا
شعرها الملتوية كأنها اللامات ثم يضع نقط الاسم من دم دموعه ؛ وفى الاغانى أن المجنون كثيراً
ما كان يرى يخط بيده على الرمال : الاغانى ج ٢ ص ١٧٠ ، ١٦٠ .

المقروحة ، يمحوه بمسيل من أهدايه ، ويجن جنونه مما يعتلج بقلبه من آلام ، ثم يأخذ من جديد في كتابة هذا الاسم الجميل ، ويطيب خاطرا بنصيبه من ذلك . هكذا كان يحيا ، وهكذا كان يقضى أيامه .

وفجأة انجلى غبار الطريق عن جمع أقبلوا يشدون الراحة على مقربة منه ، واستووا على مرتفع ممتطئين صهوات ركائهم ؛ مهنتهم الصيد في الجبال والوديان ، من بينهم من اسمه نوفل^(١) ، كالشمس وحيد دهره ، يده في الجود كالبحر ، حلال العقد بينان كرمه ؛ كالشمس في النهار ينثر الذهب نهارا ، وكالفلك يفيض بالجواهر صبحا . وهو في النظم على النجم كالثرى ، وفي السجع لطيف الطبع مهيا . خبير بمجالس الأنس مع اللواتي ريق شفاهن نحر ، لطيف المحضر مع ذوى القلوب المسكروبة ضيقا . في ميدان الوغى ليث ، وفي جسم أمور الملك سيف . مرفوع الرأس بتساج الملك ، سخي بكبر نواله .

وهبط نوفل من فوق جواد كرم ، كما تنفصل عن الغصن الثمرة ، واستوى قائما أمام المجنون ، وفتح معه أبواب الحديث . وقرأ الاسم الذى كان المجنون يكتبه ويتلوه ، فكشف عن مكنون سره ، وعلم أنه اسم عشيقته ذات الدلال . وعندما رأى ما هو عليه من حداد وأسى ، وأبصر دموعه وآهاته ، أدركته الرحمة بحاله ، فبكى إشفاقا ، وقال : أيها الجالس على عرش مملكة الصحراء ، وأيها الكاتب وصفحاته رمال الصحراء : كم تسرف في استنبات بذور الخيال أو كم تتبع طريق الهوس حين تخط الاسم على الرمال . فارجع عن وسوسة هذا الخيال ، واربا بنفسك عن تعذيبها وراء محال .

(١) قارن ما يحكيه الشاعر عن توسط نوفل في أمر قيس بما ورد في الأغاني طبعة

إذ لا ينجح على الخيال أمر ، وما عن طريقه يأتيك معانقا الحبيب . وإن يسهي
إليك طبعاً أملاك ، بتلك الكلمة التي تخطها بأصبعك ، وهذه الرمال التي
تصبغها بالدم إن تستخرج منها جوهرة بل حجرا . فالبث معي قليلا ، واصحبنى
لتكون رفيقي وجليسي في منزلي . ودع عنك ما أنت عليه من عرى ،
والبس حلة رجل كريم . ولم يطب لك بعد طعام ولا نوم ، فتم واطعم
مثل الآخرين ، ليعود لك ماؤك ورواقك ، وتستقيم قناتك بعد تقوس ،
فتصير أهلا لوصال ذلك البدر ، ولائقا لصحبة طلبة الفؤاد . وكأنك الآن
أخ الجنة ، لا طعام ولا نوم ، فكيف أجعل منك قرينا لإحدى الحور ؟
بمينا بمن هو دائما قسم العقلاء ، إذا استمعت لقولى فأنا عند كلمتى لك ،
وسأبذل فى الأمر جهدى ما استطعت ، حتى يطيب ريقك بذلك الشهد ،
فأجعل من ساعديك حمائل لهذه الحسنة .

وإذا صعب أمر كان المسعى إليه إما بالبكاء توسلا ، وإما بالذهب ،
وإما بالقوة^(١) . ولا يليق التوسل بالبكاء من ذوى الكرامة ، فهو غير
جميل بمثلك . ومهما أنفق من ذهب نسأ بذله حتى أسعدك حالا . وإذا لم
يستقم الأمر بالذهب فلا عليك ، إذ هذا مجال قوى السواعد . وسأحل
العقدة التي تقف فى طريقك بطرف السنان ، فإذا كلت رموس السنان
بترتها بجحد السيف .

وسمع المجنون من كلام نوفل حديث السحر فرقى به من خيالات الجنون ،
وآب إلى طريق الرشده ، وحمد مسلك العقل . وأضحى مع الآخرين رفيق

(١) فى الأصل جناس فى الألفاظ لا يمكن ترجمته بين الكلمات الثلاثة : زار (انتعاب)

وزر (ذهب) وزور (قوة) وإليك بيت الشعر الفارسى :

كارى كه زساخستن بوددور سازند بزارى وزر وزور

نوفل في الطريق ، حتى وصل نخيمه ، فغسل جسمه ، وحلق شعره ، وارتدى
حلة ، وتعطر . فكان شديها بلبت السوسن ينفع الطيب ، قد نفص عنه
الغبار . ولما وضع عمامته كما يفعل العرب ، تبدى كغصن متوح بزهره
السوسن . وكان نوفل يرتجل معه الشعر ، يحثان الخطى في سرور . وكلما وجد
نوفل تعلقة ، ردد ألقانه بأغنية جديدة ، ثملا بالضرب في عرض الصحراء .
وقد بالغ في إرضاء قيس ، فكان حيناً يساجله الغزل والسيب ، وحيناً
يتحدث معه عن الحبيب . وما إن مر بعض الوقت على هذا المسق حتى صار
المجنون أكثر رونقا من سالف عهده ، فعاد لقدمه رواؤه ، وصار نضراً
كورق الورد المونق . وكان في لحية القصيرة ومنطقه الفصيح ينثر عذب
القول في مجالس نوفل . تتألق وجنتاه في اختيال الطاووس ، تغار منهما
شقائق الربيع . وقد بدا المجنون في لطف ممالك ، قد أضاع جسمه شعاع
الروح . وصار قيس المجنون بعد أن فارق الاضطراب رأسه متمزنا رصينا .
وموجز القول أنه أصبح في حالة هوبها أهل الليل . وصار كما تشتهي ليلي ، بحيث
تعزف عن الخمر بخمر حبه . وأبصر نوفل هذا التطور ، وقاده بحكمته إلى الطريق ،
حتى وصل إلى حي ليلي ، وأرسل إلى والدها قولاً فيه طلاوة ، فأقبل الوالد
لللقائه ، وبصحبه أعيان قبيلته ، فاحتفى به نوفل كل الاحتفاء ، وأنزله من
نفسه أكرم منزلة . وسنحت له الفرصة للكلام حين جلسوا على الموائد
ومدّ الخوان . فأفاضوا في مئات القصص بين قديم وحديث . ثم تخلص
من ذلك إلى الغرض فقال : إن قيسا الطيب الصحبة منا بمنزلة الابن ،
وهو خير من عنهم تتحدث ، وفيه كل الفضائل التي عنها تبحث . وأريد أن
توليّه شرفاً يسمو به درجة أخرى بين ذوى الفضل . فاشمله بنظرك ، واغمره
بعطفك ، ومُدّ له بسبب إلى أصلك . وانظر ما تريد من مال وذهب ،

فما تشاء منهما قت على قدميَّ أمامك ، وصبيته تحت قدميك . ونكون معا حلفاء أوداء ، في صفاء قلوب علي دين الولاة . وعقب على قوله مرة تلو أخرى ذلك المر الجواب الخشن الخطاب . وكلما قدم نوفل سببا ، قدم والد ليلي تعلقة عنه . وحاوره نوفل في إجابته وغلبت حجته ، وكان الآخر يرد عليه ، ويستدرك على قوله ؛ وعلى صدر نوفل غضبا لفرط ما أبدى الوالد من تعلات ؛ وضرب نوفل على صدره حادا في قوله كالصمصام ، وتوعد بلغة السيف قائلا :

أيها الهاذي في قوله ! ادع حادي ناقتك ليعود بك إلى صحرائك ، فإنني أشفق بسبب خطلك أن تعود راجلا بلا إبل . انهض وليأخذك الوجل على حالك ، ولتشغل بالك بالخشوف على آلك ، إذ سأزحف عليك . يجيش كنوازل الدهر يبيتكم بالسوء ، ليس بالبحر ولكنه بحر في إثارة الرعب ، أمواجه السيوف والخنجر البتارة . وفي هذا البحر سيغرق قومك في الدماء من أخص قدمهم حتى مفرق الرأس ، أو فهبني تلك الجوهرة النقية ، يكن لك على ألف منة ، وترفع رأسي بذلك حتى عنان السماء ، وسأولم لعرسها كالعيد ، وتأتي لها يوم الزفاف جموع الحور من الغيد ، تسعى على بساطها تقبلها .

وأجابه والد ليلي : أيها الملك ! اصرف عنانك عن هذا الطريق ، فهما كنا غير ضارين بالحرب ، فلن نضيق بها ذرعا إلى هذا الحد ، وفي اليوم الذي تدق فيه طبل الوغى ، وتنفخ في النفير ، سنخوضها مسرعين في الخطى . فإذا أحرزنا عليك النصر كان ذلك اليوم عيدا مجدودا ، وتخلصنا من عذاب قبضتك ، ونجونا من أهوال عقابك . وإذا واثاك الظفر ، ونكس منا علم النصر ، فسأطلق كالبرق صوب منزلي ، وأشق الصدر من جوهرتي النقية بضربة سيف ، وأودعها الثرى مضرجة بدمائها ، وأواري جسم هذه

العروس مقرها من القبر ، مكفنة في الدماء ، ومجلوة إلى الضريح ؛ وأعيش في دار الهموم مستريحاً من سمعة العروس وعار الصهر ، ولما رأت هذه الحسنة التراب خير من وقوعها في يد ملوث الشمايل . ولا يداع هذه الجوهرة تحت حجر القبر خير من هبوب رائحة الدنس من دنى الخلق .

ولما وعى نوفل ما أفضى به أخيراً من حديث ، أو ما بطرفه إلى قيس أن ألق بسمعك .

وأبان قيس عن خلقه الفاضل ، وأبدى من الشجاعة في المعركة بينهما ، وافترقه عن سحر الحديث فقال : يا ذا الحديث السوء ! يا منكر الصوت ! إن الريح التي تهب من تحت أقدام الجهل تثير الغبار في ناظرة العقل . والكلمة التي يخطها غير العالم بها في الكتاب تسود وجه كاتبها . ونوفل لا يتكلم عن جهل ، وإنما يرسل النكتة الحلوة السهلة ، وكل ما يقوله لب لا قشر فيه ، وكل ما يتلفظ به بديع طيب ؛ فلا تطو صحائف حكمه ، ولا تثن صفحة القلب عن صائب درسه ؛ فهو فيض نسيم اللطف ، وليس هو بملك مغتر فظ . والحكمة التي تخرج من قلب ملك نور ينعكس من دارة القمر ؛ فمن نأى عن ذلك النور بقي مظلم . وثنا في الديجور . وليلي عذب ماء حياتي ، وأنا المحترق الظامى . الروح . فهـ لا أقبلت بوجهها على الظامى . إلى ماء وصالحا إبان في تراب قدمها قوة لمن أثقلت رموسهم الآلام . وليلي وردة على شط ينبوع ، وحسي من الوردة ما تنفـح من عطر . ألا فليبق القلب كالبيستانى لتلك الوردة ، يحاذر أن تخرج من حديقتهـا . وليلي في مقام الروح مصباح ، ولى من هذا المصباح حرقة الصدر ، ألا فلتدم لى منه يارب حرقة الآلام .

وعلى نطق اسم ليلي تجهمت وجوه أولئك الذين أعماه الحسد ، فأطلقوا

فى وجهه صيحة قائلين : أيها الغر ! علق لسانك فى سقف حلقك عن نطق هذا الاسم ، فسيبيله غير ميسرة لك ، فأى جدوى إذا لك منه ؟ فلتقطع دونه لسانك ، ولا تهذ بالنطق به مرة أخرى . ولا تدنسه بنشره بين الناس ، وإذا لم تمسك عنه بمنطقك لأنك فقدت العقل ، فسنقطع منك اللسان ونفصل بين روحك والجسد .

وانقطع أمل المجنون على سماع هذه الكلمات ، فتوجه با كيا إلى نوفل قائلا : يامرهم الروح ودواء الألم ! اطلب لى من هؤلاء العنيدى أن يتركوا ديدنهم فى حملتهم على ريشا يضع الطائر منقاره فى ماء النهر مرة أخرى ، فليفتحوا لى باب الرحمة كى أرى حيا ذلك الحبيب ، وأنظر إليه مرة من بعيد ويكون لى بما يعلق بخيب الى من تلك النظرة ذخيرتى طوال العمر فى ليالى الحالكة ، وأيامى السود .

فقالوا له : دع هذا الخيال ، ولا تتعلق بأسباب المحال ، وإن رؤيتك إياها ، أيها المخبول ، لكالماء لمن أصيب بالكلب . فانهض واصرف نفسك عن هذا المطلب ، ودع من رؤيته رهينة بموتك . وإذا ظلمت على حياتك قرين الأسى فمت فراقا فى مقام أساك .

فلم يصل المجنون إلى غايته بهون الصديق . ولم يبلغ أمله مدى حياته . وحينذاك ، قال لنوفل : أيها الجائر والذى وعده سراب كله . قد قلت لى إن آلام قلبى إلى ذهاب ، قلت ولم تف بما قلت ، ولكن لا عليك ، فهذا خطئى ، إذ هذا النور يفيض على من هو غير أعمى . قد رفع نحسى علما ، وانتكس علم سعدك . وأين أنا من قصص أرباب العشق ؟ وخير لى — إذ لم تنجح حيلتك — حياة الخبل والجنون .

وما إن نطق بهذه الكلمات حتى نهض من مكانه ، راقصا على توقيع

كلامه ، ورمى بعمامته كالزهرة ، كما يرمى الغصن بأوراقه في الخريف ،
فاقد الأمل ، تعتلج بالآلم دخيلة قلبه ، يضرب رأسه بقبضة يده ، كأنه شجرة
ساج ، يشير بكاء الخلق وهو يحشو على رأسه التراب . والناس من حوله
يضربون بالأحجار الصدور ، يمزق بيده صدره الضائق . وقد استخفه
الطرب فمضى هامسا بهذا اللحن :

ليلي على عرش الطرب والدلال ، والمجنون أسير أسى الأشواق . وليلي
عنائها بيد الأبعاد ، وقيس جلساؤه حمر الوحش . ليلي مع هذا وذاك طليقة
المحيا ، والمجنون يعدو في الصحراء مع الظباء . وليلي مطمئنة الدارين قومها ،
والمجنون في شعاب الجبال مع الغزلان . وليلي تشنف أذنانها بالألحان ،
والمجنون لا يصغي إلا لصفير الأفاعي والنسور . وليلي قمر دارة قصرها ،
والمجنون سجين كهوف الأسى . حقا لكل امرئ شأن ، ولكل أسد
مرعى ، والحظ لا يشتري بدرهم ، وإيوان الجنان لا يجلب انتزاعا . والخير
أن نحيا على سوء العيش وطيبه ، ولكل امرئ ما قسم له . وما دام الورد
قد أعوز ، فلنقنع بالشوك ، ولنعيش في الأشواق حتى الموت .

(٢٥)

إعصار في الصحراء

مطلق ريمان حريم هذا البستان قد نشر هذ المسيم الطيب الروح ، فقال :
إن ذلك الشبيه بشقائق النعمان ، المكتوى الفؤاد الوطان ، حين آب
من صحبة نوفل وصحبه ، وصار طليقا من كل المجتمعات ، هائما على وجهه
في الجبال والوديان . فأينما كان يلح من بعيد إنسانا كان يهرب منه ، شأن
الظباء وحر الوحش .

و ذات يوم زاد به الحال ^(١) والوجد ، وكان في بعض جبال نجد . فامتطى
صخرة على قلة الجبل ، ونظر في كل الجهات ، ف وقعت نظرة منه على ديار
ليلي ، فجرى دمه على الجبل سيلا ، وقد استقر شوقه في دخيلته كالجبل ،
وتحطمت قارورة صبره تحطيا . وكان يتوق إلى رؤية امرئ يقبل من
ديارها ، ليحمل إلى قلبه القرار ، ويشرح له من أهوالها وأحوالها ، ويصف
له ربوعها وأطلالها ، وفجأة انجلى غبار الطريق عن سواد رأى فيه عمود
إعصار ، وقد حمل من تراب أرض الحبيب ، فانعقد على وجهه من ذلك
الغبار نقاب ، وخر ساجدا على الأرض ، وانطلق لسانه بهذا القول مرحبا
بمقدمه : أي هذا الذي تدور على نفسك في رقصة الصوفي ، تقطع طريقك
في غير عسر ، تجوب السهول والوديان ، لا تقر لحظتين في مكان . سواء

(١) الحال ما يرد على القلب بمحض الموهبة من غير عمل كحزن أو خوف ، ولوجود معان
كثيرة عند الصوفية منها أنه لهب متأجج من نار الحب ينبعث منه لطلب الفضائل الخلقية والكمالات
الإنسية : انظر الكمشخانوى : جامع الأصول ص ٨٥ ، ٢٠٨ .

أمام أقدامك الهضاب والسهول ، تنطلق فيها سهل المسير ، وتلتوى على
نفسك كالتنين ولست ببتنين ، ورأسك في السماء كالتنين ؛ تجول في الهواء
جولانا . قائم كمنخلة تتطاوّل على القصور ، ولا يرى لك من فروع
ولا جذور . ولو كنت قد نبت في بستان ، لدا جنّاك وانتثرت منك الأوراق .
وعال أن يكون طريقك بدون غبار أو يقر لك في مكان قرار . سامق
الأشجار منك صرعى ، ترمى بها من عل بينما ترفع العثير والأشواك . تلتوى
كالدخان ، وأى دخان ! هو دخان من سواد وزرقة . أجيدت نقوش مبنّاك
وسقفك ، كأنك عمود في قصر إرم . تبدو الدنيا بك سفينة أنت لها شراع ،
أو كأنك صاريها ذو الشراع الدائم الدوران ، تقلّب على ذلك المسكن
سافله ، وتدمر مئات الألوف من البيادر .

قلبي اليوم جدلان ، وصدرى منشرح بمقدمك خير مقدم . قد اتجه بك
دليلك صوبى ، فروحى فدى لتراب أقدامك . مررت بى كرما ، ورددت
إلى ما عذب عنى من سكينّة . قد تزود رحلك من ديار الحبيب ، ولذا أشم
منك طيب المسك التتارى . ومن ذلك التراب عطر محملك ، كالسك القطيف
من جلود الغزلان . فصصّب على مفرقى من غبار أعتاب الحبيب ، وضع منه
كحلا لعيني الرطبتين بالدموع . ينفج بالمسك ماتحمل من أشواك وعثير ، فهى
ريحان رطب وعود نديّ جاف . وبذلك العود تتقدع عاليا نارى ، ويستروح قلبي
منها الرقيّة . أفض إلى بكل مالديك . وقل لى من أخبار ذلك العالم الذى منه
تجمّت . وكيف حال قلبها بدونى ؟ أما أنا فقلبي بدونها يدمى حزنا ، ولم يعتر
السيان ذكراها ، ولم أفر عن ترديد اسمها . مع أنى لم أمر قط بياها ،
ولم يتحرك بحديثى لسانها . وهيهات ! أى مكان لهذا السؤال ، إني متعلق
من هوسى بمحال . وكيف يتوجع ذو عرش من أجل سائل ؟ وكيف

يلقى القمر بالآلى السها ؟ خبرنى من الذى يرافق فى الليل كلاهما ، فيمرغ رأسه على أعتابها ؟ — وبينما هى تردد على فراشها طيب الألمان ، أظل على سرير الهموم أتوسد الأحجار ، وهى تسلم جنبها إلى أين المضجع ، وأنا طريح الغبراء ، ذليل الوجه على الثرى — وينباج الصبح فتغسل وجهها كالشقائق بماء الورد ؛ فمن هو أول ساع إليها ؟ ومن الذى يفتح ناظره على رؤية بحياها ؟ ومن الذى أخذ مكانى على دمنها با كيا على الطلل ؟ ومن الذى يدور من بعيد حول نخيمها ليظفر برؤيتها ؟ ومن ذا يتمتع مسرورا بدلاها ؟ ومن ذا يبكى بين المتولين فى عشقتها ؟ ومن الذى يسرع إلى التقاط شهد الحديث حين تنثره من شفاهها ؟ ومن الذى تلفحه أحيانا نار الشوق من بعادها ؟ ومن الذى يحث خطاه فى طريق الطلب ؟ ومن الذى يضع فى ركاب الجهد قدمه نهارا ؟ ومن الذى يبقى من مسيل جفونه من أجملها فى وحل ؟ ومن يمضى أمسياته بدارها ؟ ومن الذى يقيم دون أقدامها ؟ أجملة على كل الوجوه محجوبة عنى !! قريبة من القوم وأنامنها ناء !! وأنت ربح خفيف المسير وأنا التراب ، وأنت صر صر وأنا العشب الجاف ؛ فحين تأخذ طريقك إليها ، احملنى بيد لطفك إلى منزلها مع ماتحمل من غبار ، وارفعنى كالعشب الجاف إلى رأس طريقها ، لأرى مرة أخرى جميل بحياها . وإن لم أكن لذلك أهلا ، فدعنى غريباً مريضاً ، ولكن اشرح لها سقامى ، وردد على سمعها ما ترى من آهاتى ، إذ أمل روحى أن ترى هى ما أنثر من دموع الدم .

ولا يقع فى ظنك أنى منذ نأيت عنك كنت صبوراً فقد تمزق إربا قلبي ، واسكن ماذا أفعل وما الحيلة ؟ وكل جسم بعيد من روحه مكنتو بحركة الفراق ، وليست وحدته عن صبر ، وبوده ألا يفترق من روحه ،

لكن ماذا يفعل ، وماذا يستطيع ؟ ! قد تعلمت كل حيلة ، ولكن لم أفد
لا من صالح ولا من حرب . وحين لا يسعف القدر ، لا جدوى من جهد
شباب ولا من حنكة شيخ . فأنا من الآن نهب لواعج الأسي ، أسقط إعياء
في المساء فاقد القوى ، وأقوم بالأسحار بين الموت والحياة . وأعلم أنك مثلى
تعانين ، وأن كل حيلة في أمرى خارجة عن طوقك . ولكن لى عليك
إذا بلغ أجلى منتهاه ، على قدم جبل أو جانب من غار ، أن تذكرينى
بعد بماتى .

هكذا أعرب عن آلامه . وحين طوى كوكب النهار أطناب خيمته
الذهبية ، وضربت القبة السماوية سرادقها الأسود كخيمة أعرابي ، وضع المسكين
رأسه على حجر ، وامتد على سرير من الحسك ، فاقد الشعور ، لم تهناً عينه
بنوم طوال الليل ، ولكنه بقي فاقد الوعي ؛ وهكذا كان ينام (١) .

(١) يقع أحياناً في كلام المجنون تكرار لنفس المعانى ، وأحياناً ما يوقع في اعتقاد التناقض
في خواطره ، ولعل المؤلف يقصد بذلك إلى تصويره بصورة من اختلطت خواطره لاختلاط
فكره ، وقد نقلنا النص على ما هو عليه كما تقضى أمانة الترجمة . هذا والمجنون في نومه لا يشد
الراحة ، ولكنه مشغول بما يعانى من وجد . والفرق بين نومه ويقظته أنه في نومه يفقد الشعور
والوعى بما حوله ، ولكن وعيه الداخلى يظل غير مفقود ، فإذن هذا بما يحكيه الجامى عن نوم
بعض الصوفية الذين بلغوا في قربهم من الله درجة قصر عنها سواهم : انظر الجامى : نفعات
الأنس مخطوطة فارسية بجامعة القاهرة ورقة ٢٠٤ .

(٢٦)

الظبية^(١)

عندما كسا الصبحُ وجه الأرض من خيوط الغزاة^(٢) غلالة من الذهب
ونفض عن الفلك ينبوع قار الدُّجْنَة ، فاستمرملت من قرن الشمس قطرات
النور حلوة وضاءة ؛ حينذاك فتح المجنون ناظريه من غيبوبة نومه على ما به
من بلاء ، وخف نسيطا من فوق الاشواك والأحجار ، حتى لكانه شرارة
انبجست من الصخر . وهبط من الجبل إلى السهل ، ثم أخذ يدور في السهل
كالإعصار ، ينظر إلى قطعان الحيوان ، مرسل من صدره توجعات
الآسيان ، وكان يحسد الطير والوحش^(٣) ، وترسل عيناه الدموع قائلا في
نفسه : لكل مفارق خلاص من فرقته ، أما أنا فأسير لا خلاص لي . وليكل
حتى رفيقٌ هو أنيس وحدته ، فهو على قرار في طعامه ونومه ما عداي ،
فأنا بمعزل من الأليف ، ضال في وادي الفراق ، لا طعام لي ولا نوم .
وإن الجبل لينوء بما أحمل من عب . وبينما ينقل على هذا التخيل الخَطو ،
إذ به يرى من بعيد شبكة نصبت حيث يسرح الغزلان ، وقد وقع في ربقتها
غزاة . وأصلت الصياد السفاك على رأسها سيفا حادا ذا بريق كبريق
عليه . والغزاة ترتعد جزعا أن يسرع الصياد بفصل رأسها عن الجسد .

(١) في أخبار المجنون أنه كثيراً ما كان يفدى الظباء حين تقع في أشراك الصيد ، راجع
مثلا الأغاني طبعة دار الكتب المصرية ص ٧٣ — ٧٤ ، ٨١ — ٨٢ .
(٢) الغزاة : الشمس وهي نفس الكلمة في النص الفارسي .
(٣) المعنى هنا مأخوذة من قول أبي صخر الهذلي :
لقد تركتني أحسد الوحوش أن أرى أليفين منها لا يروعهما الذعر
(ديوان الحماسة طبعة القاهرة ١٣٢٥ هـ ج ٢ ص ٦١) .

فأطلق المجنون على رؤيتها صيحة ، ليأخذ الطريق على القائل حتى يصل إليه . ثم أخذ بيده وأهاب به قائلاً . الانصاف والعدالة من جورك ، فاتق الله إن كنت ترجوا منه خلافاً ، وكف يدك عنها ابتغاء مرضاته . واحملها بيد اللطف ، وأبعد سيفك عن عنقها وقيدك من ساقها . فساقتها قلم خير زاني يمشق رأسه حين تعدو ، وهي تخط على صفحة الأرض بأربعة أقلام . وما من شك في أن هناك سبعة أقلام ، وقليل ما بين الأربعة والسبعة . فلا تكسر هذه الأقلام بقيد الإسار ، فإنه لا يجوز عمداً تحطيم الأقلام . ولا يليق بحال أن يسام مثل هذا العنق مقود العسف . فهذا ظلم لدى العقول النيرة ، فاجعل من قولي حلية لجيد المعرفة . واصرف عنانك عن هذه المظلمة وخلص عنقك من ربة العهدة . وانظر إليها إن كنت ذا عينين ، وتأملها من رأسها إلى القدم . فمن الجور أن يطفأ النور من عينيها اللتين غنيتا بالكحل الإلهي عن كل المروء ، فتحرما ذلك النور . أترى ذلك الجيد الحال على عطلة ، الذي لم يمسه سهم صائد ، أليس أهلاً لقلائد الذهب ؟ ! فياذا القلب الفولاذي ! أي مكان فيه للسيف ! وهذا الصدر النقي كصفحة من الفضة شبيهة قلبي ليس أهلاً أن ينفطر ! وإن صدرها لظاهر الطوية من ضغائن الناس ، فأى ضخينة لها في صدرك ؟ ! نخذ مكانك إلى جانبها في لطف ، وحررها من يد عسفك . والخنجر قلم في قبضتك ، فلا تسكتب به على لوح الظهر ولا تحمد القيد لمثل هذا الأسير ، واتركه مترفقاً به حرراً من القيد . ألا ترى جيدها وظهرها ؟ آيتان من آيات الجمال والدلال ! فانزع أسنان الطمع من عجيزتها . فمن مديده حول الفخذ استهدف أن يأتي بأمر (١) . وكيف تكون الحال إذا تمزق فراؤه الذي ينفخ — مثل ناجفته — المسك ؟ ولأن تطعم معدتك الجشعة التراب خير من أن تغذيها بقطعة من ذاك اللحم . .

(١) أي أن من حام حول الحمى يوشك أن يواقعه .

وصاغ المجنون من أقواله للصياد شبكة ليصيده بها ، فوقع الصياد في
قيده كما كان الصيد أسيرا له من قبل . وذاب شمع قلبه رقة ، فرمى بسيفه
من يده . لكنه ظل يفكر في هم عياله ، ولا زالت الظبية أسيرة قيده . ولم يكن
على جسم المجنون حلة ، ولا على رأسه عمامة ، فتحير مفكرا فيما يمنحه
الصياد . خفف إلى قطيع أبيه ، وأخذ منه شاة لم يمسها من الذئب سوء ،
ثقيلة العجز ، ذات العنق جميلة المظهر ، قد اكتنزت شحما من رأسها حتى القدم .
وأحضرها ، وأعطاهها الصياد . وبسط عنده له قائلا : إن هذا الصيد الذي
هممت به شبيه ليلى جيداً وعينا . وإن أقومته أو أساوم فيه ، فكل شعرة
منه تقدر بشاة . فلا يقع في ظنك أن هذا ثمن له . وإنما حملته لك فداء .
فامنحني رسن الظبية ، إذ هي في يدي خير حالا ، لآدين لها بالخضوع مكان
ليلى ، وأطلقها فداء لليلى .

وحين تسلم المجنون قيادها قبلها مائة قبلة في عينيها النجلاوين . وحلَّ
عن عنقها رسن الصوف ، وطوق جيدها من ساعديه بطوق من ذهب ،
وكتل بتراب أقدامها عينيها ، وغسل وجنتيها بدموعه ، قائلا : يا من جيدك
كجيد الحبيب ، وعيناك عيناها ، غنيتان بألوان الفن . لو أن سائقك ،
يا ذات الساق الدقيق ، كان من ذهب ، وممتلئا كساقها ، اقلعت بلسان الصدق
مؤكدًا : إنك أنت هي وهي أنت . مادام حبيبي ينعم بالسلام ، فظلي طليقة
من سيف الخوف ، وأرضي حـول ديار الحبيب ، واقطني السوسن ،
واطعمي الخزامى . وعندما ترعين الخزامى حول ديارها ، رددى مثلي الدعاء
لها : ليدم ذلك المحيا ندياً كالخزامى ، ولتدم ذائعة صيتها بالحياء والعفة .
وعندما ترعين السوسن في المروج القريسة منها فليدركك الشجن لذكرى
طيب غداؤها تنفح مسكا ، وترددى : ألا لا ير إنسان تلك السوسنة

الندية اولا يقطف امرؤ من بستانها غصنا ا

وانطلقت الظبية، وجد على أثرها كأنه أحد أطلانها^(١)، وتابعها حتى ديار
الحبيب، وأخذ مكانه هناك دون صخرة من الصخور، وانصرفت الغزالة
ترعى في المروج. فكان ذاك يئن من فراق الحبيب، وهذا يطوف في المروج
حول ديار الحبيب، حتى غابت الشمس، وأقبل القمر؛ ثم أغار الليل
بدجسنته، فلم يعد يرى أحدهما الآخر، واستلقى كلاهما على العراء
يلشد الراحة.

(١) الطلا بفتح الطاء : ولد الغلبة جمعه أطلاء

(٢٧)

لقاء مع راعى ليلي

حين انبلج الصبح ، وبدت الشمس وكأنها أمل من لا أمل لهم ، تنثر
عن إبريقها خيوط الذهب ، وتصب من حُقَّتها جواهر الضوء . دار المجنون
— وقلبه نهبٌ لآلف يأس — فى الجبال والوديان ، يردد اسم ليلي ، رفيقه
فى طريقه دموعه وآهاته . وأينما رأى أثر مسافر طار إليه من بعيد كالريح ،
وخفَّ إليه كنسيم الصبا ، جاعلا من غبار قدمه كحلا لناظريه ، يستخبره
عن أحوال ليلي ، وملء قلبه نار ليلي . ونجاة أقبل قطع من الطريق على
رأسه راعٍ مرح ، محدثٌ فى مجالى الطرب ، عليه عباءة صوف سوداء ،
شبيهة موسى فى كفه عصاه فى عين الذئب ثعبان ^(١) مبین . فألقى تيس بنفسه
دونه ، كأنه ظل وقع دون قدميه ، وقال له : يامن قلبى وروحى فداك ، ضوءُ
بصرى فداءٌ لغبار أقدامك ! إني لأجد منك ريح الصداقة ، فمن أنت ؟ ومن
أين أنت آت ؟ وأى أثر يحمل هذا القطيع الحسن المنظر من معز وضأن
الذى حَفَّ بك من أمام ومن خلف ؟ وَمِنْ مَنْزِل مَنْ قَد آتَى ؟ فإني
أشم منه ريح المسك والعنبر . ولمن ذلك المراح الذى فيه يبيت ؟

فقال الراعى : أنا راعى ليلي ، وقد ربيت على هواند ليلي ، ومن هذا
القطيع خوان جودها ، وهو ثروتها النامية . وتلك السمات برءوس
القطيع وآذانه من صنع يدها ؛ وهو يأوى فى الليل إلى مسكنها ، فذلك
الطيب هو من عطر أذيالها . فأينما خَطَرَتْ فى غداثرها المتهدلة ، وجَرَّتْ

(١) فى الأصل أتردها وهو الثنين .

أذبال الدلال ، فإنها تشر على أثرها رائحة المسك ، ويفيض من طيب روحها ريح الغنبر .

وسمع المجنون وصف حبيته ، فتمرغ في وحل دم دموعه ، ووقع على الأرض فاقد الوعي ، فلم تَعُدْ ترى عيناه ، ولم يستطع لسانه كلاماً ، وبقي على الأرض طويلاً فاقد الرشيد ، وظل على حاله ردحا من الزمن ، وأخيراً عاد إلى رشده ، فأقبل على الراعى باكياً يقول : أيها الأمين المذلُّ بدار الحبيبة ، ويامن تبيت كلباً حارساً على عتبة دارها ، ماذا لديك اليوم من أخبارها ؟ نَبَّئْنِي في صدق عن كل ما عندك من أحوالها . إن صدرى مليء بالغم حتى الشفاء ، فبالله إلا جاءتْ عليَّ شفاهاك .

فأجاب الراعى : في الحى فرصة طيبة لك الآن ، فليس حول خيمتها إنسان ، وهى وحدها فيها كالهلال في دارته . وقد شد رجال القبيلة رحالهم وخرجوا من عرصة الحى ، يتصيدون غفلات بعض القوافل ، فهم لهم منذ الغدوة كامنون ، ليغيروا عليهم دون أن يأخذوا حذرهم في الحراسة

وسمع المجنون هذه البشارة ، فاشتد به القلق ، وشن عليه صبره الضائع غارة ، وقال للراعى : أيها الراعى الحميد الخلق ، منّ على بلطنك ، استجب لرجائى ، وامنحنى هذه العبادة القديمة ، يكن لك على ألف منّة ، فهى سوداء ، وهى أليق بى ، أنا المحروم من حبيبى القديم ، فأعطينا عَمَلِي أدق بها خفية طبول الطرب ، على الرغم من أنه لا يقع فى حيز الإمكان إخفاء طبل تحت عبادة .

قال هذا القول وارتنى العبادة ، ومضى فى طريقه يحيش بالشوق ، وغشى الحى فى طلب ليلي : مردداً فى نفسه صيحات الوجد . وكلما تقدم

خطوة في الطريق كان يغيب قليلا عن وعيه . فلما وقعت عيناه على منزلها
تقوَّض كيانه من أسسه ، وأطلق من قلبه المسكروب صيحة ، ثم خر على
الأرض كأنه الظل . وسمعت ليلى صيحته فمرفته ، وخرجت إليه ؛ وبصر
بها المجنون مقبلة من باب خيمتها ، فخرج من نطاق عقله . وعلى رأسه جلست
أصوب إليه من عيونها قاتل النظرات ، وترسل من نرجس ناظرها سهام
الفتنة . وصبَّت على محياه من ماء الدموع ، وليس بماء ولكنه من الدم .
فأفاق من نومه الثقيل ، وترددت فيه أنفاس الحياة على ماء نرجسها .
وجلس ينظر إليها ويحادثها . وظلا يتناجيان ويشرحان هموم الماضي ،
فاشتكى المجنون إليها من أهوال السفر ، وصاغت ليلى درر الكلام فيما تعافى
من أسى الإقامة ، وقرأ عليها حديث الجبال والوديان ، وثبتت هي بشرح
قصص العزلة والياس . وكان يصف لها ما يرسل من آهات ، فترسل الدموع
تغسل بها خدودها . وقال لها : بدون محياك أظل كالمحتضر ، فأجابته : آلامى
أشد تبسريح . وقال : إن قلبي قد تناثر مَزَقًا ، فأجابت : هكذا الدهر
فما الحيلة ؟ ! وقال : قد سئمت العيش وضقت ذرعاً بنفسى . فأجابت :
إن موتى قد أطل حينه صائلا . وقال لها : قد صهر الهجر روحى . فأجابت :
في الوصال الدواء . وقال لها : أبعدونك فريسة الجوى . فأجابت : وأنا من
أساك على شرف الهلاك . وقال : قلبي جريح الهموم . فأجابت : جراحى
أشد عمقا . وقال لها : إن أبرح هذا الحى . فقالت : إذن فتخل عن روحك .
وقال : طال اصطلائي بالنار . فأجابت : اتخذ الصبر ديدنا . وقال : روحى
فداؤك من حبيبة . فأجابت : عيونى تمطر الدموع . وقال : ليس من طبعى
الصبر . فقالت : وليس لنا سواه من دواء . وقال لها : ما أطيب النجم . فقالت :
ما أشد حنة الفراق !! وشكا المجنون من ذوى الحقد والضغينة ، فدعت

عليهم بالويل والثبور . وقال لها : قد فطر الاسبى قلبى شطرين ، فأجابت :
وما الاسبى بالقياس إلى كرم الله ؟ .

وعند ما أفرغا كل ما عندهما من قول ، وفضا ما لدهما من أسرار ،
التهم نار الخوف قلب ليلي ، خشية أن يقدم فجأة من الطريق هؤلاء القوم
الذين ضلّوا حظه من العقل والدين ، فيعجلوا بخاتمة هذا الولهان ، شاهرين
عليه سيف الظلم ، حيث لا يسرع لإنجائه أحد . فقالت له : أيها الفرد بين
العاشقين ، وذا المروءة في وفائك ! أسرع بالانصراف ، فسيف القدر
مصلحت على رأسينا كلينا .

فوقفا معاً للوداع ، وأسالا من جفونهما أنهار الدم ، ثم انصرف
إلى العراء يضرب من جبل إلى جبل ، وبقيت هي في مكانها كأنها من ثقل
الهم جبل .

نعم هذا ديدن الدهر الغادر ، فأقصر عن طلب الراحة في هذه الدار ؛
فقد تعانى فيها قرناً من البلاء والكروب ، لكي تجلس لحظة كالمستريح ،
ولا تكاد تدفى مكانك بالجلوس ، حتى يتعجلك الدهر في غير استحياء ،
ويأخذ بيدك مهيباً بك أن أسرع بالانصراف ، ويقرع قدمك أن 'لذ'
بالفرار .

(٢٨)

المجنون وكثيرٌ أمام الخليفة^(١)

كان كثيرٌ مشرق الديباجة في القول بين فصحاء العرب ، وكان في سماء النظم نجما نيرا ، وكان هائما بعزة التي يحسدها لجمالها الحور العين ، وتمحو بجملها رونق فائنات الصين ، وكان هيامه بها يفوق القياس ، مثل قيس في هيامه بليلي . ولما تفتحت على نسيمها زهور فصاحت ، قال في هواها ماقال ، وشعره في طلاوته مدين لذلك الهوى . نعم ، ملح الفصاحة من العشق ، ونور فلك البلاغة من العشق . فمن حرقه القلب يكتب القول قوة وحرارة ، ومن شعله العشق يضيء الفلك .

و ذات يوم دعا الخليفة كثيرا ، وأجلسه على مائدة كرمه ، وقال له : على مائدتي خذ مكانك اليوم ، وأضئ بنار عزة مجلس القوم ، فرفع كثيرٌ صوته بلحن لذكرى حبيبته ، وأطلق من عينيه مسيل الدموع . فصير — من دمعه ونظمه — أذباله مليئة بالعقيق ، والمجلس مليئا بالدر . ورأى الخليفة منه هذا الأسى والألم ، فسأله قائلا : أيها الفتى ، أعلم أنك رأيت كثيرا من العشاق ، فهل رأيت بينهم لك شبيها ؟ فأجاب كثيرٌ : نعم ، ذهبت في سابق العهد إلى ديار عزة ، والقلب جريح الأسى ، ف وقعت في طريق على واد أصابني فيه الخوف ، فضاع من يدي الزمام ، وسرت يومين أو ثلاثة بلا نوم ولا طعام . ولم أستشرف^(٢) فيها ماء ولا خبزا ، وإذا بي أمام امرئ .

(١) ليس لهذا الفصل والفصلين بعده أصل تاريخي في أخبار قيس التي وقفنا عليها ، ويقوم فيها خيال الشاعر فيها بدور كبير .
(٢) حرفيا لم أر من بعيد .

مضطرب الحال ، مقوَّس الظهر كالهلال ، ذى كبد دامية من قرحها كناجفة
 المسك ، يمس جلده على جسمه من الغم ، وقد نصب للصييد شبكة .
 فذهبت إليه ، وقرأته السلام ، وخاطبته فى أدب ، سائلا إياه بعض الخبز
 والماء . فأجاب : إني بعيد من أهل الحى ، وبى نفور من أهـل الحى
 موتى القلوب . وليس معى من طعام ولا شراب ، فطعامى العشب ، وشرابى
 من السَّرَب^(١) . ولكن اجلس لحظة فربما فتح لنا باب الرزق ، فيقع فى
 شبا كنا صيد ، ويزول عنا هذا العناء . فانتحيت منه ناحية ، وعلقت أنظارى
 على طريق الأمل ، وإذا ظبية رشيقة تقع أسيرة قيد الشبكة وحلقاتها ،
 ظبية لا تحاكيها رسومُ مصوِّر ، بديعة الشكل جميلة المنظر . فى عيون
 تفوق عيون الغزلان ، سوداءً بلا كحل ، ثملة بلا قدح . يسكر من يراها
 بخمر عينيها ، وتقع ظباء العيون من النساء صيدا لناظريها . ذات قرون
 مفتولة من العنبر ، يترامى من بينها شعرها الساحر ، لم ير أحد مثلها غصونا
 بلا ورق ، حتى لسكأنها نبات من المسك . وفى سرتها ناجفة جميلة المنظر .
 ولها من قرون ناصيتها قوة تنمو ، كل عقدة من عقد قرونها طعمة تجذب
 قلب ألف صائد . ليس لها عقدٌ ولا وشاح ، فعنقها ساذج كدورق الخمر .
 ذات عين فاتنة يذبجس منها دلال يكاد يقطع عُقد وثاقها ، وفراء صدرها وبطنها
 فى لون الكافور ، وناجفة سرتها كحُجْزة^(٢) إحدى الحور . وعجيزتها
 كزهرة السريرين فى حديقة جسمها ، لم تُبَلَّ بحرقه الشقائق^(٣) . لم يوضع

(١) فى الأصل سراب ومن معانيها بالفارسية الينبوع أو الماء الجارى ، وفى القاموس
 العربى السرب بالتجريك الماء السائل ، ولعلها معربة عن الفارسية : سيراب أو سراب .
 (٢) الحجرة معقد الإزار ، وهذا المعنى هو المراد هنا من كلمة نيفة فى النص الفارسى
 (٣) يكثر فى الأدب الفارسى تعليل حمرة الشقائق بحرقه القراق أو الحب .

على ظهرها من حمل سوى الغبار ، وقد تربت بين الخضرة والماء ، في مأمن من يد القصاب . قدمها قلم مارس الخط ، غير أنه لم يجر رأسه إلا على صفحات المروج الخضر .

فلما رآها قيس قد وقعت في شبكته ، خفَّ إليها ، وعانقها معانقة الحبيب ، وقبل عينيها ، وأخذ ينفذ عنها الغبار ، وأنشد مائة بيت في وصفها ، وخلص أقدامها من حلقة الشبكة ، وتركها تذهب إلى المرعى . ولكن الظبية حينما أطلقت من إسارها لم تهرب ، بل ظلت قائمة بين يديه ، فأطلق صوته قائلاً : في عينيك مائة المشابه من عيني ليلي ، فعودي ، ولا تخشى شيئاً ، فأنا صديقك من دون الناس ، وحسبك مثلي صديقاً ، وما دام في العالم إنسان كريم فضلي ويلي طليقتين من الغم .

وما إن فرغ من قوله ، حتى وقع في الشبكة صيد آخر يفوق الأول جمالا ، فانهى منه كما انتهى من الأول . ثم وضع يده على صيد ثالث ، فجرى على نفس القاعدة ، وهكذا سلك أربع مرات أو خمساً ، لم يشعر فيها بجهد . ولم يبق لي على الجوع من طاقة ، فقلت له : هيا فأطعم نار الجوع ، وإلا فلماذا تنصب شباكك للصيد ؟ ! ولم تطلق الصيد بعد الظفر به ؟ ! وأنا ضيفك ، وفي حاجة إلى طعام ، فلماذا تضيعه عبثاً ؟ !

فقال : إياك وهذا الهوس ! وعد — مثلي — إلى العقل والزناة . إني أصيده لأنه مثل ليلي ، وعندى مثلها ميل عظيم . أقبل في محبتها قدمه ، وأستعيص عن ناظرها بناظريه ، وأحيي به موات الأمل ، ثم أطلقه فداء لها . وشيء يحمل لي مثل هذا الأمل ، خبرني : كيف أقوى على ذبحه ؟ وشيء شبيه بالحبيب ، كيف تكون لي طاقة بأكله ؟ وإلا فإنني لهذا الصيد أشد

حاجة منك ، فلم أطعم شيئاً من رطب أو يابس إلا أعواد العشب ،
لا شيء آخر .

وبينما يتحدث إذا ظبية أخرى تقع في شبكته ، فقلت في نفسي : سأسبقه
إليها وأصرعها بخنجرى ، ولكنه سبقنى عدوا وأخذها كما أخذ سابقاتها ،
وطبع مئات القبلات على وجهها وعينيها ، ثم ردها طليقة فداء لليلى . ففقدت
الآمل فى أمره ، وبقيت بلا طعام من صيده . ومن هذه المحادثة فى ذاك
المكان أيقنت أنه مجنون بنى عامر ، قد تبدلت حاله من جوى ليلى لونا آخر .

(٢٩)

الروضة

ما كاد الكريم كُشِّير يغادر مكان الصيد ، حتى رأى غير بعيد روضة جميلة تُذكر برياض الجنة ، قد كست أرضها الخضرة ؛ ذات ورود كثيرة مختلفة الألوان . وكأنها مصحفٌ حروفه من الزمرد ، تقوم فيه الشقائق مقام الخيرات ^(١) . أو كأن أرض تلك الروضة صحائف خُطَّت عليها بسماء الزنجر ^(٢) ألفات مكررة ، تترامى كأنها بنات العشب أو بنات الربيع ممشوقة القد ؛ وكأن شجيرة العرف قد احتمت برداء أدكن ، فلم يست من الخضرة ثياباً محكمة لتتقى الغرق ، وتحتفى من سهام السحاب ونبال البرق . وقد أطلت من جيوب الأرض الشقائق كأنها كشموس من عقيق ندى . وكأن أزهار العرف أقداح مليئة بالصهباء على حراب من الزمرد ، يداعبها النسيم في دلال ، فتتمايل تمايل اللاعبين بالكشموس ؛ أو كأنها مشاعل تتوهج ولكن بلا زيت ولا فتيل ، على سيقان دقيقة رنحت في الأرض أصولها . والورد فيها معانق للياسمين ، والخبّازي في انسجام مع السريرين ، والبنفسج يميل على خد الفلّ ليقبله ، وقد اشتعلت في قلبه نار الحب ، « فبدا كأنه أوائل النار في أطراف

(١) معرب الشكرف أو الشنكار وهو نبات لاصق بالأرض في غلط الأصبع أحمر كالدم تصبغ به اليد إذا لمسته ، راجع : الألفاظ الفارسية المعربة للسيد أدنى شير طبعة بيروت ١٩٠٨
(٢) منه ما هو معدن ومنه ما يستنبط من النحاس بوضعه في دردى الحُل ، انظر المرجع السابق .

كبريت (٣) « وكان النرجس ، وقد انتحى جانباً ، عيون تبص هنا وهناك . وكان السوسن السنة تتحدث إلى هذه وتلك من الأزهار . وأطلاء الظباء في لعب ورقص كما يفعل الأطفال ، فتخطف هذه من فم تلك زهرة من الشقائق ، وتنزع تلك من هذه صيحة ألم . وبدت شفاهها حمراء من رعيها الشقائق ، وحوافرها خضراً من سيرها على العشب . وبجانها سرب كبير من الغزلان مرعاه الزهور والخضرة ، متحرر بسرعة عدوه من سلطان الراعي وحراسة الكلب . وحين رأى السيد الرأى كشيير هذا السرب من الظباء ، عاد مسرعاً إلى مكان الصيد حيث جلس المجنون ، وقال له : أي هذا الذي هو الصيد ، انهض ودع عنك هوى ذلك المكان ، واجمع منه شباكك وما بها من حب ، وانقل خطوك قليلاً إلى مكان كذا ، وانصب هناك شباكك في طريق الغزلان ، فسترى هناك صيداً يتلو بعضه بعضاً ، فتقيم فيه مستريح الخاطر .

فبكى المجنون وقال : ذاك حمى ليلى ، وحرم ليلى كالسكبة . وهناك أقامت ليلى ، وخطرت مع رفيقاتها المجدودات ، مغردات كالبلبل الثمل ، صاحبات الذبول على العشب والزهر . فكل خضرة نبتت في تلك الأرض قد جررت عليها ذيلها ذات يوم ، وكل حسك فيها قد ترك كالورد أثراً في أذيالها . واكتسبت الورود عطرها ولونها من ذوائبها وعارضها . وإنما صارت الشقائق قانية لأنها نبتت على دموع حرقتها ، وقد فتح النرجس عيونه

(٣) مقتبس من أبيات لابن الرومي :

ولا زوردية تزهو بزرقتها بين الرياض على حمر اليواقيت
كأنها فوق هامات حقفن بها أوائل النار في أطراف كبريت

(معاهد التنصيد ، لعبد الرحمن بن أحمد العباسي ج ٢ ص ٥٦)

تضرعا دون تراب أقدامها ، وبسط السوسن لسانه ليتحدث عن محاسن
محياتها ؛ وعلى البنفسج طابع الذلة لأنه لبس لفرقتها ثياباً زرقاء . وأطلاء
الظباء النافخة بالمسك صيد لسهام نظرانها ، فتظل أنظارها مصوبة إلى الطريق
علما تطالع فجأة محياها ، ومنذ ذلك اليوم الذي خطرت فيه بتلك الأرض ،
حُرِّم صيدها كالحرَم ، وكيف أنصب شبكة لغزال يرعى في روضتها ؟
وكيف يحمل بي صيده ، ومن ضحاياه قلبي ؟ وأينما أكن ينجذب قلبي
إليه ، فأسير إليه على عيني تدميان بكاء . أطوف حوله طواف الحبيج
وإنسان عيني هام بسيل الدموع . فلا غزلا نه مولية عنى خوفاً ، ولا أنا ألوى
من أعواد نبتة عودا . ولأن أظل صيداً للسهام خـيرٌ من أن أذعر فيه
صيداً .

هكذا قال ومر لشأنه ، وانصرف لصيده يردد اسم ليلى ، وفي كل آونة
كان يتمع صيد جديد من الظباء فيقبله عَوْضاً من ليلى ، ويطلقه لها فداء . وكان
هذا شأنه من الصباح حتى المساء ، لم يركن قط إلى راحة في هذا الأمر .

(٣٠)

دعوة الخليفة اقيس

الدهقان الذى تعهد براعم هذه الأغصان ، والصناع الذى أبدع هذا التصوير ، هكذا سطر فيما كتب .

أضحى معمر الخربات مشهوراً بحديث العشق ، مهجوراً ممن شهروا بالعقل . وترددت فى مجامع العصر طرف نظمه كالدر ، ولم يخل من تلك الآلىء قلب ، وتشنفت بها الآذان ، وحليت بها مسامع الخليفة : فاشتدت رغبته فى لقاء قيس ؛ وأنهى رغبته إلى والى نجد ، فكتب هذا إلى أعمال ولايته : أن إن يسمع من امرئ عذر إذا لم يرسل إليه من دياره ذلك العاشق العامرى النسب ، اللبيب الأريب ، الذى شهر بلقب المجنون .

فلما انتهت هذه الطرفة إلى أبناء الولاية قالوا : إنه بعيد من العقل ، نافر من صحبة العقلاء ، لا قرار له فى منزل ، ولا طعام له سوى العشب ، فأحيانا يتخذ مقامه فى الجبل ، وفى صدره من الهم مائة جبل ، كفاه كمخلب النمر قوة ، وماواه ليلا الكهوف . وحينما يطوف حول السهول والوديان ، وقلبه نهب لآلف يأس . يسير نهرا مع قطعان الحيوان ، ويلشد الراحة ليلا مع حمر الوحش والغزلان . تحيرت فى أمره الخلاق ، فكيف يليق بالخليفة لقاء مثله ؟ أفأجاب الوالى : هذه رغبة الخليفة ، ولا حيلة .

فأعملوا الطلاب فى كل جهة للعثور عليه ، وبحشوا هنا وهناك عن آثاره حتى وجدوه على قمة جبل فى مجلس خطير الشأن ، له من شعره فوق قمة رأسه مظلة كمظلة الملوك ؛ وهو مثل الخليفة وسط جيش من الحيوان

في حلقة محكمة من حوله ، وهو طيب الخاطر بمجلسه بينها . فقالوا له : قم وشد رحلك ، واعقد وشاح الطاعة لأمر الخليفة .

فقال : ليس لي رحل فأشده ، وقد وضعت رحلي في الجبال والهضاب ، وهيهات أن أدين بالطاعة لإنسان . وحظي أسود كسواد الدخان ، وكفاني حملا ما أنا فيه من بؤس ، وصدرى مفطور بسيف الهم ، فكيف أعقد عليه وشاح الطاعة . فقالوا له : حذار من هذا التطاول ، ولا تحمد مغبة ما قلت . فأجاب : استمن يذله الطمع ، فما أبالي عاقبة التخلف عن الخليفة ، ولا أقاد بخظام الحرص ، فلمست أهلا لمجالسة الخليفة . والعاشق فوق الخلق ، إذ يحدوهم في أمورهم الطمع والحرص ، وقد تخلص العاشق من كلتا الخصلتين ، فتحرر من عناء العالم ^(١) .

فقالوا له : تحاش غضب الخليفة لئلا يهدر دمك بدون حجة . فأجاب : أما وقد استباح العشق دمي ، فكيف يخضعني سيف الخلق ؟ ! ولم أطلب النجاة من الخنجر البتار ؟ وضواء لدى مت بورق الورد أم بالخنجر ^(٢) . فالحي يتحمل أن يكون مسودا ، أما إذا كانت الحياة قد شدت رحالها مولية عنه ، فإن الخنجر يلعبو عن هدفه .

ويئس القوم من جداله ، فأتوا بناقاة من الطريق وجروا بها إليه حيث كان في ظلة جبل البلاء والآسى ، فبسطوا إليه أيديهم ، وشدوا على جسمه القيود والأغلال ، كما يلتف في الجبل ثعبان بحلقات جسمه حول غصن لدن . وقد عانى من حبال القيود كائنات حلقات ثعبان ، ولكن كان في

(١) قد يكون هذا هجاء من الشاعر لمن يترامون على أعتاب الملوك ، وقد كان الشاعر ممن يخطب الملوك وده ، وقد ربأ بنفسه عن الترامي على أعتابهم ، انظر :

Browne : Lit. Hist. of Persia, III, P. 510.

(٢) قارن هذا المعنى بقول شوقي (الشوقيات ج ١ ص ٢٤٣)

لا تحفل بجناها أو جنايتها الموت بالزهر مثل الموت بالفحم

صدره أضعاف هذا العناء . وأخذ بتلوى تلوى الشعبان ، وينثر الدرر من دموع عيليه قائلاً :

أنا مشدود الوثاق بحلقات غداثر الحبيب ، فقيدى ذوائب شعورها
كالمسك ، فما قيد آخر فى قدمى ؟ ! وهل هناك من قيد للبلاء فوق بلائى ؟ !
وإذا رنّت فى قدمى حلقات قيود العشق ، سر منها العاشقون فى حلقاتهم .
والمقيدون بقيود التدبير ، لهم مخرج لتحطيم القيود ، فعلى قيد خطوتين
أو دونهما تتحرر الأقدام من قيود هذا العالم . وأنا المحاصر بالبلاء حتى ضاق
بى فسيح هذا العالم ، فكيف بى فى مضيق هذا الإيوان ؟ ^(١) وهيهات أن
يمسك بى فى محضر الخليفة حلقة أو حلقتان من الحديد يضعهما فى قدمى . وإن
سفرا لا يقود إلى الحبيب ، وليست غايته وصال الحبيب ، حتى ولو قاد إلى
الخلد ، هو فى اعتقادى أعظم جرم . فهذا القيد الثقيل هو جزاء ذلك
الجرم فى مذهب العارفين لطرائف الأمور . وساروا به هكذا على راحلته
أسبوعين أو ثلاثة ، حتى وصلوا به إلى باب الخليفة ، فأخذ حماما دافئا ليزيل
الأدران عن جسمه ، وحلق شعر رأسه ، وكساه الخليفة حلة جديدة من
جوده الذى يفيض على الوجود كنور الشمس . وصبوا عليه عطراً ،
وأجلسوه أمامه على مائدة نواله . ورأى المسكين أنه فى مقام مهين ، فلم
يحمد مقامه ، وأدرك أنه غرض لحيلة ماكرة ، يتعرض بها لأذى المهانة
من المزهوئين بنفوسهم ؛ فضاق به فضاء الكون ، وأخذته فى جنونه نوبة
وجد ، فمزق خلعتة ، ورمى إلى الأرض بعمامته ، ولم يفتس ببنت شفة ،
وركن إلى الصمت . فأمر الخليفة أن يؤتى بكُشَيْرٍ إلى المجلس الخاص ،
لأنه طيب المحضر مع أهل العشق . ودخل وحيد عصره كُشَيْرٌ على

(١) فى الأصل هنا اصطلاح فى لعبة الرد مفاده ما ذكرنا .

أليف الأسفار وقال كُثِير: إيتوني أولاً بقلم ودقتر. وكتبوا له على صفحاته
أشعاراً طيبة كالشهد. وانطلق صوت كُثِير من الأعماق بلشيد يصف
فيه جمال ليلي، والحرمان من وصال ليلي، وسقام قيس من فراقها، وآلامه
المبرحة من الشوق إليها. وما إن أنشد عدة أبيات حتى وجد منها مصباح قيس
زيتة، وكان حبل وريده فتيلة ذلك المصباح، فحرك لسانه الفصيح كأنه
شعلة نار، وأنشد في حرقه قصيدة بلغت عقود أبياتها مائة: كل بيت منها
كلمة من سندس، مليء بالآلء الدموع، صاف كالدر؛ وكل مصراع من
مصاريعه باب، وتلك الأبواب معابر تنفذ منها الآلام. ومقاطع أبياتها
شفاء مقاطع الصدور الكريية. وبحر القصيدة ذو أمواج تقتلع الجبال،
وهو مع ذلك يفجر مسایل الأشجان، ويضرب من قوافيها ذوو الصدور
المكومة صدورهم بالأحجار؛ وفي كل حرف للعشق قصة، وفي كل نقطة
قطرة من دم القلب، ويسيل من حروفها ماء كالدم هو رشح السكب الممقروحة
وعصارة القلب الجريح؛ ومطلعها مشرق الديباجة من نور طلعة ليلي كالشمس،
وفي مقطعها قناع الأمل من طلعة ليلي السعيدة الجد المشرقة القسمات. وتنال
صواعقها على ساحة القلب من ذكرى الحبيب والديار. واستفاض فيها
في شرح أحواله، وفي وصف الخيام والأطلال. وهَمَّست جفونه بالدمع
سيلا، فأودع القلوب مئات الحرق، وحمل الطير والريح رسائل شجي
مكروب. وخط تراب قدمه بدم الدموع، وكتب به رسالة أو دعها
يد الرسول ليفضي بها إلى الحبيب، أو ليدعها حيث يقيم. وأودع قصته
طيب أيام الوصال وشكوى آلام الفراق: حيناً كان يمزق الثياب ضيقاً
بأفعال الواشين، وحيناً يميكي تعس الجد. فكان كل من ألقى سمعاً إلى نشيده
على دمه في قلبه، وكل من ألقى نظراً على تلك القصيدة جادت عيناه بسيل
الدموع.

ولما فرغ من إيداع آلامه تلك القصة ، ووصل إلى آخر مرحلة في وصف حداده ، أو قد النار بشعل آهاته ، فاحترق منها كل قلب ما لم يكن حجراً ، ثم أخذ يندشج بكاء ، فلم تبق عين فارغة من الدموع ، وارتبى في قيوده كأنه الظل ، يمرغ خده على الأرض . ورأى الخليفة أساء وشجنه ، فأمر بفك قيوده ، وأن تفتح باب خزانته ، ليعطى منها مائة بدره من ذهب وفضة ، ثم قال : ليبق في ديارنا ، ولينزل بجوارنا ، ولتُحرر برعايتنا صحيفة يطلب فيها من أمير تلك الولاية أن يبذل جهده في إحضار والد ليلى ، وسندفق في ذلك الجواهر والدرر حتى يتيسر لك المراد .

فلم يلتفت المجنون إليه ، ولم يقر له قرار على وعده ، ونفض أردانه من عطائه ، وانطلق إلى وادي العشق ، وذهب يعدو كغزال فر من شبكة ، واعتقد أنه نجا من كارثة . واستمر في طريقه سائراً أو جالساً أو نائماً ، يردد كل لحظة حديثاً كالشهد ، ويقول : قد نجوت من هم الخليفة ، وعقدت الإحرام لحريم الحبيبة .

(٣١)

في قافلة ليلى

السائح في نواحي هذه الولاية ، والناظم لعقود هذه القصة ، هكذا روى فقال :

إن ذلك المتخذ من العراء مسكننا ، الضارب كالوحوش في الوديان ، شبيهه الظباء في العدو والجريان ، ألقي نفسه بعيدا من ديار ليلى ، فحث خطاه نحو تلك الديار ، يجوبها ، مبلبل الخاطر على غير قرار ، يغسل بدم الدموع عن وجهه الغبار ، ضالا يبحث عن آثار الحبيب . وكان يلاقي - أينما سار - القوافل ، ويكتشف مسافرين ، وكان يسير مكتويا من نار الفراق سائلا عن أخبارها .

وذات يوم هبت سموم الهاجرة على الجبال والصحراء ، فأضحت من الرمال وقطع الحجر كأنها وعاء مليء بالجر والشرر . وبدأ الشعبان فيها يتلوى بحلقات جسمه ، كأنه شعر على نار . وتبثر حوافر الحيوان من حرقة السير فيها . وتضطرم الجواء بهواء لافح كوهج التنور الذي ترمى أرجاؤه بشرر من نار ونور . وتجيش الينابيع كقدور يغلي ماؤها ، ويتلوى فيها السمك ألما ، كأنه من مائها في إناء شواء . وكان صفحة كل صخرة خوان عليه أنواع الشواء من الصيد . والظبي في ظل قرونيه لاهث الأنفاس . والنمر مسكين لا يجد ما يحتمى به من الظل دون أقدام الأشجار ، فهو فوق الأرض كظل شجرة نفدت إليه خطوط من النور . وكأنه صيد مطروح قد لاذ من عنائه بكنف من غيبوبته . وانحدرت السيول في الوديان من الأعلى إلى الأسفل ،

ولم تكن فيض سحاب ، بل كانت سيوفا مصلطة في الجبل . والمجنون في ذلك اليوم فزع مضطرب ، قد صار من القيظ والسموم خمة اتقد داخلها بشمل الآهات كأنها ألسنة اللهب ، ولم يفتر المجنون عن ترديد آهاته لحظة ؛ محترق الفؤاد والقدم ، قد أعيا بذشدان الراحة ، قلبه من الحرقة كإحدى الشقائق . وجلس فوق هضبة ، ودار بطرفه فيما حوله ، فرأى من بعيد نخيما به حشده من الرجال كيأنه فلك عامر بالنجوم . فنهض المجنون يئن نياحه ، وأخذ طريقه نحو الخيم ، وهناك غير بعيد منه التقى بأعرابي مقبل من الخيمة فوق راحلته ، فأخذ المجنون عليه الطريق ، وسأله : أيها السعيد الطالع ، ما قصد هذه الغافلة ؟ وإلى أين تشد رحالها ؟ وما هذه الجوع ؟ وما اسم هؤلاء وأولئك ؟ فرد الأعرابي على أسئلته جوابا جوابا قائلا : وجهتهم جميعا الحجاز ، وقد بدءوا رحلتهم بنية الحج ، أما القوم فهم ليلى وآلها .

وحين سمع المجنون منه هذا الاسم أخذ يشعر بالراحة ، وارتدى على الأرض كالظل . ثم مال بث أن نهض متجردا من ذاته ، ناويا الإحرام بالحج مع الحبيب ، متحررا من الفراق بصحبة الحبيب . وسار يحمل ليلى والمجنون يتبعه من بعيد بفؤاده المسكوم ، يسلك ذلك الطريق الطويل مسوقا بالرغبة في صحبة ذلك المحمل . وقلبه في ترداد أناته وآهاته كأحد أجراسه ، يتردد رنينه كله الملح هودجها . وكان يقول : « وما حاجتها إلى المحمل ، وبحسبها قلبي مقاما ؟ والمحمل حجاب الغانيات فليس أهلا لأن يكون للشمس برجا . وأين الطالع السعيد الذي تشرق به على مسكين مثلي من ذلك البرج ؟ علتي أصير كذرة مهينة في شعاع تلك الشمس بلا عقل ولا فكر .

وكان المجنون يقبّل مواقع أظلاف ناقتها على أثر حاديتها . وكان ينثر

جواهر الدمع من جفونه فوق محيا أصفر كالذهب . ويقول : « هذا أثر
من آثار الحبيب ، وتذكّار ناقة الحبيب . وما دام قد عز لقاء الحبيب ، فأقل
ما تقر به العين هي آثاره » .

مسكين ذلك الذى يقع فى إسار العشق ، يرضى من حبيبه بلا شيء . فإذا
لم يفز بالوصال ، اكتفى بمداعبة الخيال . فإذا لم يجد أثراً لأقدامه ، خَفَّ
إثر غبار طريقه . وإذا لم يصل إلى تقبيل أقدامه قَبَّلَ آثارها .

فانظر — أى جامى — فى أمرك ، وماذا فى يدك من الحبيب فالعالم
كله ثمل بحامه ، والقلوب جميعاً صيد شباكه . وكلُّ ثمل بنوع من الشوق ،
فذاك باللون ، وهذا بالرائحة . فهو شمس فى عرشه ، ظله السماء والأرض .
فتأمل ظل الحبيب . وحيث إنه ظله فلا تؤمل فى الظل رؤية الوجه ، إذ الظل
حجاب الشمس . فاعبر طريقك فى ظلمة الحجاب ، ولا تتطلع فى الظل إلى
رؤية الشمس .

(٣٢)

لقاء في مناسك الحج

قد كان في فسيح البادية ضيق العطن ، ذلك المسافر صوب الحجاز وغايته
الكعبة ؛ فهو مع الحبيب ومحرور من وصال الحبيب ، ونهب لآسى البعاد .
وحين نزل بحريم البيت الحرام ، توجه إلى ذلك المقام الفريد ، وأخذ
يطوف ، سالكا سبيل الوفاء . ونهضت ليلى متجهة شطر البيت ، فتزين
البيت بجملها . ووقعت عينها على ذلك الشريد ، فتحدر من عيونها دم القلب
وقالت وهي تبكى : أيها النائي عن العين ، وأنت مثار كرب الشوق في العين !
كيف أنت في صراع الفراق ؟ وكيف أنت في نار الفراق ؟ أما أنا فما بي
حاجة لشرح حال بدونك ، وهأنذا غريقة في دموعي ! أنا طوال الأيام
والليالي أسيرة شوقك ، وحيدة مع خيال وجهك . ليس لي من إنسان سوى
إنسان العين ، أسيل منه دم القلب . وأنت في ذاك الآسى خير حالا ،
إذ تلمس العزاء في نظم القول .

وأخذ المجنون يناجيها بالمعهود من نجوى ولكن بلسان الصمت ،
ناظرا إلى الامام والخلف حذرا من أدنياء الناس . وشرعا يطوفان بالبيت
في مدى مآتيا من فرصة كانت قلوبهما فيها نهب لآسى لاحد له . فبدأت
ليلى الطواف ، وقتني أثرها المجنون كريب الصدر . فكانت تقبل الحجر
الأسود ، والمجنون طروب بخيالها على الارض . ووضعت ليلى شفاها على

ماء زمزم ، فملا المجنون بالبكاء عينيه ماء . وسعت ليلي بين الصفا والمروة ،
وقد بلغ المجنون ذروة الوفاء لها . فعانى الهموم من شعرها الفواح بالمسك .
وشهرت السكين في يدها حادة لنحر الهدى في منى ، فصاح المجنون :
بل أربق دمي أنا . وشرعت في رمي الجمار ، فكان قيس يعطو برأسه في
طريق تلك الأحجار . وبدأت تودع البيت المرفوع ، فأطلق المجنون
صيحانه خشية الهجر . وفرغت ليلي من طواف الوداع ، فرمت بمسند
هودجها ، واغتتم المجنون الفرصة فاتخذ قبالتها مجلسا . وجلسا معا جلسة
الوداع ، يسيلان من مآقيهما دم الدموع . وبدون قول أسفر عن آلام
صدرهما لسان العيون الفائضة بالدم . وودع كلاهما الآخر كما يودع الجسم
رأسه ، ولا يتيسر العيش لجسم حرم صحبة الرأس . وسافت ليلي محلها
على حرقه وشجن ، وبقى قيس وقدماه من دموعه في وحل . وأضحى الهودج
بليلى كنافذة الظبية ينفخ مسكا ، وأما قيس فقد تجمد دمه في جسمه كنافذة
الظبية ، وضاع سره مثل النافذة .

وباح من حاله بهذا القدر الضئيل فقال : وأسفا أن يبقى الجسم
وتذهب الروح ! وأن ينأى عن القلب الصبر ، وتذهب القوى من البدن !
لاح لي جمالها بعد طول هجر ، وأخشى أن تكون قد ملتي . وقد أفنيت
عمرا ، أحدث الخطي على أثرها ، حتى رأيت وجهها دون نقاب .
ولم تكذ تفر عيني برؤيتها حتى توارت ولم تخش في الله . وما أنا إلا
ظمي . الشفاه في القفار ، أجرى في العراء كل سوب أطلب الماء ، وقد نفذ
صبري نفاد الماء ؛ ووصلت إلى حافة اليلبوع ، فلم أكد أجلس لأطفي .

نار ظمئى بوصالها حتى شهرت على خنجرها : أن قم . وما طريقى إلى الموت
ببعيد . وليس فى الدنيا إنسان فى مثل عيشى . القلب منى ذاهب ، والصدر
محترق . فلا ذاق أحد يارب مثل هذا العيش .

هكذا قال وافترق عن آل ليلي ، ولكنه صاحب الركب بالخيال ،
متخذاً له رفاقاً آخرين فى الطريق ، قد نفذ حوله وطوله ، وعز صبره ،
وعزبت عنه الراحة ، خشية أن يكون بين رفاقه امرؤ سوء ، يقع
من قلبه على موطن الداء ، فيدرك ليلي منه ملالٌ ، أو تعلموها سورة
انفعال .

(٣٣)

زفاف ليلي إلى شاب من بني ثقيف

ناظم عقد هذه الجواهر ، قد ملأ سلك نظمه بالدرر ، فقال :
إن تلك المكنونة كالسر في محل الأسفار ، ذات الدل المخدورة
في هودجها ، هي ظبية صيادة الأسود ، مغيرة على قلوب الأبطال ،
مشار جنون العقلا والحكام ، تنال من كل ذى مقدرة .

وخرج ركبها من الحرم ، وأخذ حاديها يغنيها بحدانه . وكان الحجيح
قد أخذوا يشوبون بمحملهم مسرعين . وكان من بينهم فتي مشوق القوام
من بني ثقيف ، يحياه شمس وجبينه قمر . وحول محياه عذار ينفح العنبر ،
هو دائرة من المسك حول بدر وجهه . في إصبعه خاتم الرئاسة ، وهو كبير
قبيلته أبا عن جد . فيض نواله يفوق الحد ، يغمر الجبل والسهل . فهو خالي
الوفاض بما ينثر من كنوز عطائه ، وغيره في غنى بفيض نواله . واتفق أن
مر تجاه محملها ، فوقع في قلبه جنون حبها . وكان قد ألقى نظرة على حجاب
هودجها ، وهبت ريح فرفعت الحجاب ، فتبدت له من خلف الحجاب
وشمسا يفيض من وجنتيها الشعاع . تلسدل غداثرها حتى مهوى القرط ،
فرأى الليل والنهار مجتمعين . وحاجبها مصلت إثر آلاف الفرسان مولين
تقدح سنابك خيولهم بالشرر ، وترنو بعينين فيهما إغراء الخلود وسحره .
ويبتسم فيها العذب عن نصيد يفك عُقد الروح .

ويترامى ذقنها وضيئنا أمام عنق كالماء النير ، هو لوح به مئات العظام
للمتأدين . ورأى من خلف النقاب ذلك القمر فعزب الوعي عن روحه

البقطة ، وهوى طائر قلبه صيدا للعمق ، ووقع فؤاده جريح العشق . وأضحى مسكيناً لا حيلة له . وأعمل فكره في طلب النجاة ، فوقف به العجز دون الحيلة . وبحث عن وسيط يستعين به . وكيف يستطيع المرء الاهتداء إلى وجه الحيلة في أمره مهما كان ذا حكمة وتجربة ؟ وبعيد لدى العارفين أن يستطيع السكين قطع مقبضها . فالخير إذا في الاستعانة بوسيط بصير بمدخل الأمور ، ليكون زينة مجلس العرس . وبدونه كيف يحظى صهر بوصال عرسه ؟ فوقع على خير ساحر القول ، راوية للقصص ، كمل عذب القول في مضائق الأمور ، يستطيع أن يصلح بين الماء والنار . وأرسله إلى والدها ، فقام بالدعوة وحدد لها موعدا . وحينذاك قال : نسبي عظيم يضارع نسبك . ومالي نظير في الجاه والجمال ، وفي المال والنوال . أجيئك إلى كل ما تطلب ، وأصب دون قدميك كل ما أملك . ولى من القطعان ما يغطي الوديان وأديا وأديا كما تكسو الطريق أشجار القشام . ولى في كل مكان خدم من النساء والرجال كقطعان الإبل والخيل رأسا رأسا . وعندي من الذهب والفضة ما يفوق العد والوزن . وأنا مملوك لك ولا حيلة لي ، والعبد وما له لمولاه . وأنا لك صهر طيب العشرة ، أقبل قيد إسمارك لي . وإذا حزتُ لديك القبول ، كنت سعيد سعادة يقصر دونها الكلام ، وإلا فلن أستطيع بكل مالي أن أحوز ذرة من السعادة .

وتذوق والدها مائدة ذلك الكهل الشهية ، واستملح هذا الشاب ، ووقع في قيد حبه طواعية بلا شرط . وقال : إنه في الجمال لا مثيل له ، وهو ابن لي ونور عيني . وفي استجابة رغبته سكن لخطاري الحائر . ومع هذا فلا عيب عل أن أستشير أهلي .

وذهب فطلب والدتها العارفة حق المعرفة بقدر جوهرتها وانفرد بها دون

الناس ، وأسر إليها بذلك السر . فرضيت هي به كذلك ، ونزل في صدرها منزل القبول . وقالت : هو أمر موافق لـكلا العاشقين . فحين تصير ليلى في حيازة ذلك الزوج ستفسى بذلك صديقها القديم . وسيتوجه المجنون بحبه إلى أخرى حين يشم هذا الخبر ، وتتخلص نحن مما يدهمنا من أمر ، إذ غدونا أحدىثة القوم .

ولسكنها حين أفضت إلى ليلى بهذا الكلام ، عرا قلبها اضطراباً كاضطراب ذوائبها ، واحترق فؤادها غماً ، وصارت بشرتها الفضية كإحدى الشقائق حرقة . وارتوى ورق خدودها بدموع حمراء كماء الورد . وامتلا جيبها بدرر الدمع ، ونفضت يدها من خيال وجودها ، واضطربت حائرة في أمر نفسها . لا طاقة لها بمخالفة رأى أمها . وهي بعيدة عن الرضى بقولها ، إذ لا حيلة لها في ترك حبيبها القديم . ولوت برأسها لا تحير جواباً . وبدت العذرة خلف نقاب الحياء ، وعلا وردة وجنتها ماء الخجل . فإذا تقول لأمها وأبيها ؟ وإلام تلجأ إذا خرجت عن رضاها ؟ وإثر هذا الحديث الذى دهم بالخطر روحها ولت باكية منتحبة ، ولم تحاول أن تنبس بكلمة . فقالوا : هذا السكوت رضا . وحرراً للخاطب رسالة حتى يسعى فى إثر مقصده . وحين سمع المحب هذه الرسالة رأى فيها سعادته فى الدارين فطاول بتاج نخره الثريا ، إذ أصبح كل شئ فى أمره مهيئاً . وحين غطت عروس الغرب (الشمس) نقابها بغدائر الظلام فى لون العنبر ، وأوقدت بجمر الفلك بحب الحرمل ، وأضاءت المجلس بمصباح القمر ، كان قد هيئ محفل الطرب ، وأقيمت الزينات ، ودعى أشراف القبيلة للحضور ، وجلس كل فى مكانه المعد له ، وعقدوا قران البدر بالنجم . وأتى الأصدقاء بأطباق الذهب والنقد . لينشروها حين العقد . فكان هناك قوم ينشرون الذهب ، ودونهم

جمع غفير يلمونه ، وكانت أكف الأثرياء تصب الدراهم ، فيجمعها الفقراء في أذيالهم . فهذا يجمع من قطع النقود ملء راحتيه ، وذلك يملأ بالذهب قبضته . والقوم في سرور إلا ليلي ، باسمون بالامل ماعدا ليلي . ورأى الصهر هذه التحفة تزف إليه كما انتهى ، فلعب برأسه السرور ، مؤملا من ورائها الخير ، غافلا عما دس له من السم . كطير حوم بعيدا عن عشه ، ليقع على كل حب يتاح له ، فوق نظره على حب قد هيء ، فهو إلى ليلته ليلته ، فقفز له من فوق الأرض فخ ، وأحاطت بعنقه حلقة الضيقة . ومضى هزيع من ليل الزفاف ، ملأ الشوق فيه جوانحه ، فسعى في أثر تلك الشبيهة بالبدر في أوجه ، في محفها المزينة كالفلك ، وحملها مكرمة إلى منزله ، وأجلسها في حجلة الدلان .

وتبوات مقعدها معززة مكرمة ، ناظرة كالقمر بوجهها إلى الأرض ، لم تفك عقدة عن عقد حواجبها ، ولم تفتر بابتسامة عن فضيد الجواهر من ثناياها ، بل أمطرت اللؤلؤ الرطب من بكائها . وهو دونها ظامئ السكبد ، ينظر ماء ربه من بعيد . وليس له في حرقة ظمئه على الصبر يدان ، ولم يؤذن له بعد بالورد . وراود نفسه يومين أو ثلاثة ، حتى طغى الشوق فقصم متن الصبر . وهم أن يضع يد هوسه على قامه هي بحق نخلة ذات ثمر . فأهابت به : انشأ عني ، وخذ مكانك دوني واصبر عن جنى هذا الرطب الشهى . فلم يقطف أحد من هذه النخلة ثمرة ، بل لم ير امرؤ ثمرها . فلا يليق أن تسكر منها غصنا ، فهذا هوس بالغ المدى . فأنا جريحة القلب ، في انتظار من غدا رهين الأسى والخور ، من فداني بالصبر والفؤاد ، وجعل روحه هدفا لبلائي . وهو بي ضيق الصدر في رحاب البادية ، يعانى في شعابها ألوانا من الهم . وعلى خيالي يرعى الظباء ، وفي هواي يمزق الشيا ، ومن سم فراقى يتقطع نياط

قلبه ، فيبحث عن ترياق في دموع الأطباء . ولم يغفل عن ذكرى لحظة ، ولم يمل إلى سواى . ولم يحفظ برؤية وجهى مرة واحدة ! ولم يسر قط إلى سير المتطاول . هو قانع من سرو قامتى بالظل ، راض من التدرج بريشة من جناحه . هذا ولم أرفع إليه رأسى فى ذلك الظل ، ولم أسر إليه إثر تلك الريشة . وأنا بعد على عهد وفائه بمالى من طوق ، ويغلبنى إلى لقائه داعى الشوق . فانظر بعين الاعتبار إلى حاله وحالى ، أنا المبتلاة بوصول سواه ، وعشرة غيره . وإياك وذلك الوسواس ، فلا تغتر بطولك ، ولا يبطرك جاهك وعزتك . قسما بصنع الخالق المنزه ، المبدع فى تصويره على ألواح الثرى ، إذا تطاولت مرة أخرى على كى ، لأبسطن إليك يدى ، شاهرة على أم رأسك سيف الانتقام . فإذا قصرت يدى عن الانتقام منك ، ففى مكنتى أن أقتل نفسى ، فأزهق روحى بسيف الظلم ، لأججو من نير عسفك .

وسمع المسكين هذا الوعيد من شفاه لا تفتر إلا عن حلو البسمات ، فعلم أن قدم حظه كليل ، وأن الناقة بلا زمام صعبة المراس . ثم وجد نفسه أسير شبا كها ، ووجل قلبه لفراقها . فلم يجد بدا من العيش على حرقة الوجد ، واكتفى من تلك الحديقة بمطر زهرها ، فكل لحظة للوصل موصولة بالفراق . وتشير فى نفسه أوقات الراحة ألوان المحنة . قد اجتثت جذور أمله ، له من أسباب الأسى ما يموت به مائة مرة ويحيى . ودام على هذه الحال أمره . وكان هذا كل ماله فى حياته من خلاق .

وقضى نحبه يوم أن قضى فى ذلك الأسى ، متخذاً منه زاداً لأخراه .

(٣٤)

المجننون يعلم بزواج ليلى

موسيقى غناء هذا العرس ، الموقع على آلاته من عاج وآبنوس ، قد دق
على طبل بيانه الثمين ، وأطلق من صدره هذا اللحن الحزين ، فقال :
حين عاد من الحجاز ذلك المعاني لطعنات العشق ، المطلق الصيحات
من تباريح العشق ، مر بحريم الحبيب ، فانتكأ جرحه ، وعادت حديقة
ذكرياته أنضر ثمارا ؛ وعراه الوله من جديد ، فأطلق أناته من السطوح
والأبواب ، وعقد من حبال دموعه قيثاره وغنى عليها أنشودة ، ووقع
من لواعج قلبه لحنا . باحثا أينما ولى عن آثار الحبيب . وكان كلما جلس
على دمن ، أو قام على طلل ، فقليل له : إن هذا أثر من آثار تلك الشبيهة
بالبدر ، الشهيرة بالجمال ، أى ليلى بلاء روحك ، التى ذهبت بمالك من حول
وقدرة ؛ وضع جبينه عند سماع هذا القول على تلك الدمن ، وأسأل عليها
من دم الدموع ، وتغنى غريلا بذلك الطلل ، تمرغا وجهه على الأشواك
والحشرات .

وكان يجلس في حريم الخيام المضروبة ، فإذا قيل له : ليلى هناك ، جعل
مأواه ظل الخيمة ، واتخذ منها حرما يطوف حوله . وأينما جلس في البادية
كان ينقش اسمها على الرمل ، ثم يمحو ما خط بفيض دموعه . وقد رآه
شخص مرة يلتقى الثرى ويضع منه على رأسه ، فقال له : عَمَّ تبحث
في الثرى ؟ من أجل من تضع فوق رأسك التراب ؟ فأجاب المجنون : لاني
أنتقى الثرى من كل أرض ، على أجد ربح تلك الجوهرة النقية ؛ وحين

لا أجد ربحها أضع الثرى على مفرق ألما وحسرة . وسأظل أطلب هذا السر من التراب حتى أصل إلى الماء . وحظي من الطلب مذاق الطلب ، أما الدر فلا سبيل إليه . فأجابه الآخر : أرح نفسك من المطلب ، ومن طي الأيام والليالي في هذه المحنة . إذ أن تلك الجوهر النضرة التي تمضي عمرك والها في التطلع إليها والوجد بها قد أقتلعت منك قلبها ، واستبدلت بك آخر حين وجدته خيرا منك ؛ فانفض أنت كذلك يدك منها ، واطرح من جانبك هوى هذا الصديق . فمن لم يخلص كل الإخلاص في طريق الوفاء فلا تساوى مائة كومة من حصيده حبة واحدة من الشعير . فبينما تقيدت حين بسطت يدك إليها بالعهد ، مدت هي يدها لبيعة آخر . وتحدثت أنت عن ليل درة مكنونة ، بينما أمسكت هي لسانها عن النطق باسمك ، وربطت قلبها بحبيب طابت شمائله ، وأخلت قلبها من كرب حبك ، واختارت شابا في مقتبل الشباب من بنى ثقيف ، ذا عقل راجح ، وتزوجت به . وباعتك كعقد وضع القيمة بجوهرة . فهما كاللام والآل في مكان ما ، وأنت قائم كالآلثف وحيدا . وهما كالظفر واللحم رقيقان ، وأنت كالظفر قلع من رأس إصبع . فانهض وانزع من رأسك هذا الخيال ، ودع عنك الهوس في المحال . وما معنى الصفاء مع ذوى الدخائل السود ؟ وما جدوى مجازاة الجفاء بالوفاء ؟ والحسان كورد^(١) الفجار لا يعرف للوفاء عهدا ، وإنما يغتر فيه بلونه ورائحته ، وكل من بكر إليه قطفه . وكيف يتخذ الأرغوان من الصفصاف ؟ وكيف يجعل من اللص بستانى ؟ وما دامت قد وضعت أذيالها في قبضة الأشواك ، فدعها والأشواك . ووردة ليست لك خير لك أن تتركها مهينة في الأشواك . فسكن رجلا ، وانأ بجانبك عن كل امرأة تبحث

(١) الكلمة الفارسية هي گل دوروى ، انظر Desmaison: Dict. Pers. Franç.

عن إرضاء نفسها بزواج . ومنذا الذى رأى فى نعل واحد قدمين ؟ أوفى منزل واحد سيدين ؟ والمرأة مخلوق كله سحر وخديعة ومكر ؛ أما عن إخلاصها فلألون ولأرائحة . والمرأة صعوة جناحها^(١) أحمر أصفر ، وإرضاءها محال . فإذا صدفت عنها وقعت فى حبال الموى ، وإن أكرهتها قضت ألما . وهى نخلة بمشوقة القد ولكنها من الشمع ، فما إن تهزها حتى تكسر ؛ فلا زهرتها نافذة بالمسك ، ولا ثمرتها حلوة المذاق . قد حليت بكل الأوراق والأغصان إلا غصن الوفاء ، فقد قطع من شجرتها . سرعان ما تنسى عهدك إذا عانقت سواك ، وطريق الخلاص من نائض العهد أن تنقض عهده . فانقض يدك من وصال ذلك الحبيب القديم ، ما دام قد نفى يده من حبك . فإذا صبغ كفه بلون آخر ، فلا تلون كفك بخنائه .

وسمع المجنون هذه الأنشودة ، فهض يرقص رقصة الصوفية ، ثم صرع فتمرغ فى التراب الرطب بدم دموعه كطائر نصف مذبوح . ثم أخذ يضرب بالحجر صدره وقلبه ، على أثر فجيعته فى حبيبه الحجرى القلب . وصار أمره نهبا لمائة خسار ، ثم سقط فاقد الوعى ، فلم تتردد من شفتيه أنفاسه ، ولم يعد للحياة فيه من أثر ، حتى لم يُدَرَّ أحيى هو أم ميت ، وفقد الأمل فى بقاءه . وبعد طول إغماءه عاد إلى الحياة ، فألقى روحه نهبا لآلاف الغم ؛ وجرى فى حلقة النفس فلم يردده بسوى الآهات التى تخرق صدره بسنانها ، واستمر يردد ها قائلا :

أواه من قلب حبيب حجرى القلب . وآه من كرب حبيب ولوع
بتحطيم القلوب . وأأسفا أن تتقد شموع الحسان بصدر نافذ الصبر ولهان .
واحزننا ألف مرة أن مزق ذلك الحبيب جيب شرفى حين مزق الجيب

من لباس الطهر ، فثنا على رأسى تراب الحسرة والندم . قد نقض كل عهد
أوثقه ، وانضم إلى من لم يكن له به عهد . فهو ذو قرين وأنا وحدى فرد .
وقد وجد طريق الشفاء وخلانى لآلامى . فخر مانى منه يحرق كبدى الكريب ،
وحظوة الآخرين به يزيد اللبيب اتقاداً . فأنا بذلك الحرمان كالشعرة السوداء ،
وبهذه الخطوة فى نزع المحتضر . وقد يسهل على العاشق الوطان احتمال
البعاد والإشراف على الهلاك ، ولكن العبء الذى ينوء به هو علمه أن
حبيبته فى أحضان الآخرين . لقد ظل دهرأ يستخرج الكنز ، فلما جمعه
حملة غيره . وقد غرس فى حديقته شجرة ، فاقتلعها فى غارته جيش . فيا من
كننا معاً جلسين ، وقد أخذنا الطريق على الريح حتى لا تسوق إلينا وجه
إنسان ، ولا تحمل ريحنا إلى الآخرين ، هاأنذا أحميا فى أمل أن أفضى إليك
بلوعتى ، وأن أحمل النسيم إلى تملك الحسنة ما به تذكرنى مع من تذكر .
أيها الريح توجه إليها ، وألق نظرة منى على حسننها ، وقل لها : يا من هربت
بقلبها منى وركنت إلى آخر ، حين تصيرين نديمة كأسه ، وتنقلين النقل
على الشراب من فمك إلى فمى ، تذكرى آنذاك حال مرير الحلق محطم الكأس
من ألم القلب ، يعدّ نفسه للبوت من هموم حبك ، ولم يظفر من وصلك
بطائل ، وإنما يضرب فى الأرض نادماً صادق العهد .

(٣٥)

أسى المجنون بعد زواج ليلي

في هذا الوادي الذي يصهر الروح ، كان الخبير بمراحله ومنازله يتغنى
أحياناً بألحانه ، مطلقاً أنغام موسيقاه قائلاً :

إن هذا الحب الفريد في لطفه ورفيقه الجور ، قد أفلت من العقل زمامه
عقب حديثه عن ليلي وزوجها ، وتحرر من الفكر خيره وشره ، وصار
مجنوناً بخمر العشق ، وطار صوابه بذلك الرحيق ، وناله الأسى بحرقه
على حرقة البالغة بالفراق ، وزاده الهيام اضطراباً على اضطراب ، فنفر
من الناس ذوى الطباع المسفة ، مولياً وجهه شطر الوحوش النقية الدخائل
من حقد الإنس ، التي لا تسعى له بأذى ، فكانت كلها تألفه ^(١) ، تأنس به
وتهش له ، فكان ينطلق في الجبال والوديان ملكاً يرافقه جيش من الوحش ،
فإذا استراح في ظل شجرة ألقى دونه بعض قطعانها على الرمال والأحجار
حلقة محكمة حوله ، كأنه فيها فوق عرشه ، وإذا وقع بينهم ما يعكر الصفو ،
فسرعان ما يستضيئون بعدل ملكهم فيعود لهم الصفاء والوثام . فلا الظبي
بوجل من الذئب ، ولا التيوس في خشية من الليث . والحملان لاهية بذيل
النمر . وإذا سار في وادي همومه جرت حمر الوحش أمامه وخلفه ، وكس
الثعلب له الطريق ، ونثرت الغزلان فيه دموعها تاطف حراً ، وقام سرب

(١) من المؤلف عند الصوفية أن الوحوش تألف ذوى السكرات منهم راجع مثلاً :

الدكتور عبد الرحمن بدوي : شهيدة العشق الإلهي رابعة العدوية ص ٩٣ — ٩٤ .

من الغربان ظلمة فوق رأسه . وإذا مال عنهم في مكان ليسكتب رسالة لليلي ، أعطاه الطي ساقه قلماً ، وصفحة عجزه ورقة ، وحمل عينيه طيب الخاطر ليتخذ قيس من مواردها مداداً . وهكذا كان يسير مردداً ألحانه ، مرسلاً ياقوت دموعه ، تمشي بين يديه أسراب من الطباء رشيقة مطمئنة ، وإذا به فجأة أمام روضة ، وعلى مسافة منه جماعة دون أقدامهم بساط الخضرة ، تنشج كمنوسهم بالخمر في لون الورد ، فلولى المجنون من بعيد عنهم عنانه ، ليجنبهم خطر جيشه . وكان في أولئك القوم من عرفه ، فناداه متغنياً بالثناء عليه قائلاً : يا طلبة من جن جنونهم من العشق ، ومن يحياه يتألق بنور العشق ، مقامه في الخربات متحرراً من القبيلة والقرابة ، أيها السالك طريق التجريد ، وحيد المسير في مضائق التوحيد ، أيها المصلت على رأسه حسام الآسى ، وهو دون الحسام مقيم كالجبل ، أقسم عليك بمن جنت بحبها ، ومن فقدت من جرائها الرأس والقدم ، أقسم عليك بمن لا تعرف الحياة إلا في كنف وصالها ، أقسم عليك بشفتيها الياقوتيتين حسناً ، وبغداثرها الملتوية وبعيديها النجلاوين كعيون المها ، الفاضتين بالسحر والخمر ، وبجدائل شعرها فوق قر أذنيها ، ألا تنأى عنا بجانبك ، فمذمة ونحن على شوق إلى لقائك بعد البعاد ، واليوم ظفرنا باللقاء عقب السفر ، فلا تستبج إذا فطيعتنا ، وقد وصلنا إليك فابق معنا لحظة ، لنلقى عن عاتقنا ثقل الغم .

ورأى قيس حاجته ، وسمع منه آيات رضاه عنه وحبه له ، فترك جيشه في مكانه واتجه نحو هؤلاء القوم ، وسألهم : أي الديار دياركم ذات الروق والطيب ؟

فأجابوا : نواحي الحجاز مقصد كل تقي ، وطالما قصدتها ليلى ، وسارت

هناك بمحملها ، وجرت في تلك الرسوم أردانها تنفخ المسك .

وسمع المجنون قولهم ، فوق كالظل على الأرض فاقد الوعي ، وصاح
متغنيا بهذا الشيد :

أيها الرفقاء القاعنون بملك الديار ، ذكرتوني بالحبيب ، الألفاء لكم
روحي وقلبي ، ودون أقدامكم رأسى ! ليس بي من هوى لقصد الكعبة ،
وما في نيتي القيام بالحج ، وإنما قصدى الطواف بليلي ، وسوى ذلك فضل .
وما لي من جدوى من الطواف بالكعبة مادمت لا أستطيع أن أمر بمنزلها ،
فجئ وعمرتي رؤيتها ، وبدونها لا حيج لي ولا عمرة . وسهم وصلها المسدد
من الجعبة تدور به الرأس طوافا بالكعبة . فأنا الظامى إليها بوادى الآسى ،
فكيف أروى من زمزم ؟ وأنا الطروب في زمزمة همومها ، أجريها هائما
على لساني فتجري من دموع عيني زمزم أخرى . وأينما أسر فغايقي
من السير وصلها ، وكل مقام لا يضئنه مصباح يحياها فهو النار ولو كان الجنة .
فليلي أينما حَلَلْتُ هي المراد ، لا أطلب بها سلمى ولا السواد^(١) . وسأظل
على ذكر منها لاهيا عن العنيد حتى أطفئ أساى في أحضانها . فلا رأى
عدو ما عانيت من حبها ! فقد وقعت في مخاب العشق غير مبال ، ونبتتني
في شرخ الشباب ، وأفلتت من برائن العشق . واليوم وأنا في انتظار الوصال
وروحى من الفراق في وبال ، أضحت هي نَقْداً لغيري ، وصارت لقمة
في فم سواى ، فلها رفيق حبيب ، وأنا ناء بعيد ، وتنعم هي بالوصال ،
وأظل غريباً مهجوراً .

(١) هي نفس الكلمة في النص الفارسي ، ومن معانيها في العربية : المال الكثير ،
وسواد البلدة قراها ، وسواد القلب حبه كسودائه وسويدائه .

هكذا قال ، ومرغ في الأرض جبينه ، مرسل الأهات من صدر ممزق ،
با كيا بدموع من الدم ، حتى وقع من بكائه في إغماءة . وحين أفاق في المساء
كان الفلك قد استبدل بلباس النهار لباس الليل ، فصار ذا لون واحد وهو
الخداع ذو اللونين ، يحتمل المراده وهو في قوة النمر ، نخرج قيس من حلقة
رفقائه ، وانضم إلى سرب الظباء ، تكاد روحه تزهر من الهجر ، وأمضى
الليل كما كان يمضى كل ليل .

(٣٦)

الحمامة المطوقة

عند ما بزغ الفجر ، وحال لون نجوم الفلك ، واسترسلت من القبة
اللازوردية على الأرض أشعة مبهوتة ، أفاق المجنون من غيبوبة نومه ليجد
في طلب حبيبته ، وسار يردد اسم ليلى حتى انتصف النهار . وهبت سموم
الهاجرة ، فأخذ يقع وينهض متمثر الخطى فوق الرمال المتوهجة ، ظامئ
الشفاه ، ربه من خنجر الفراق ، يعانى فى صدره من آهاته خناجر الفراق ؛
وإذا به يمر على قرية بكجة الخلد والقرار ، فيحاء كأنها وسط الوادى القائط
نار الخليل^(١) . فأوى منها إلى حائط قصير جلس عليه أسرد كالغراب من
لفح الشمس . وأقبل رب الحديقة عليه قائلاً فى لطف : أيها الرفيق ! قد
صرت أسود كالغراب ! فكن ضيفي ولك المنة ، وزين بمحضرك عُششى .
فليس الجلوس على الحائط بمقام لك ، نخذ مكانك من البيت فهو بيتك .
ولا عليك إذا صرت أسود ، فحبة العين الصحيحة سوداء .

فتأثر المجنون بلطف هذا الشاب ذى المرومة ، وخف إلى منزله ، وقد
قال حقاً سيد العرب : « نحن العرب نكرم الضيف » وبسط المضيف
للضيف الكريم مائدة نواله ، وأعد له على المائدة شهداً صافياً وشواء من
الطير . ولم يمد المجنون إلى المائدة يده ، وامتنع عن تناول الطعام ومذاقه ،
قائلاً : « ما هذا طعامى ، ولست بقادر على إساغته ، فسيدين الناس صيد

(١) إشارة إلى قوله تعالى : (وقلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم) سورة

الحيوان والاغتذاء بذبحه ، وأما أنا فكل حي حرام على ، ولذا ألفني كل الحيوان . وإذا أنشبت في الحيوان أسنانك فلا مناص من نفوره منك طلباً للنجاة . وأجدني أعاف شراب البلح إذ هو في النخل ، وكيف أطعم قيثاً ؟ ويمر في حلق عصير النبات الحلو . وإنما يحلو في ذوق النبات (١) . فكانت الأعشاب فطوره ضحى ، وكانت كذلك عشائه مساء . وحين مى الليل رونق النهار ، لبس رب البيت لباس النوم وأوى إلى حجرته . وكانت في صحن الدار نخلة سهلة الغذاء نفيسة الدخل . فهي تقنع بقطرات السحاب زاداً ، ودخلها في رأسها وسعفها وعصيرها وعذوقها . وتدنو أعذاقها مدللة القطاف ، يحلو بها ريق من أمسرت حلوقهم . وعرجونها ذو شمرايح من ذهب قد علق بها عقيق سائل ، فهو في اللون عقيق ، ولكنه في الطعم شهد يغرى أفواه الطاعمين . وقدها شبيه بقذائف الفاتنات الغيد ، وعلى رأسها الطيور تتلو أناشيداً . فقال المجنون إليها ، ووضعه رأسه على جذعها ، متذكراً قد ليلى وأخذ يبكى قائلاً : لا تطيب الحياة على نأى الحبيب ، وإنما يهنأ عيش من يتمتع من حبيبته بنصيب ، فيرفع رأسه مزهواً بتقيل أقدامه ، وقد طويت العالم في هذا المطلب ، فلم تظفر يدي منه بقدم ولا أثر .

(١) من المقطوع به أن بعض المتصوفة كانوا يعفون ورعاً عن أكل الحيوان راجع مثلاً :

Massignon : Essai... p. 233 -

وما أشبه حال قيس هنا بما روى من أن رابعة العدوية « صعدت جبلاً فأقبل من حولها كل ما كان هناك من غزلان وبقيت حوالها آمنة كل الأمان . فجأة أقبل الحسن البصري فقرت الغزلان . فقال لها : يارابعة : لماذا فرت كل الغزلان مني ولم تفر منك أنت ؟ فسألته ماذا أكلت اليوم يا حسن ؟ فقال : أكلت طعاماً طهى بالزيت . فقالت له رابعة ، يا من تأكل دهنها ، كيف لا تريد منها أن تفر منك ؟ .. » (الدكتور عبد الرحمن بدوي : رابعة العدوية ص ٩٤-٩٥) وكذا العطار : تذكرة الأولياء ج ١ ص ٦٥

واليوم من ذا يعانى مثل حرقى ؟ ومن له مثل حظى فى ظلمة الليل ؟
وبينما هو على هذه الحال إذا طائر فى سعف النخلة يرفع صوته صادحا
بالحان نفاذة ، ويردها هتوفا ، تنال من القلوب الصم كالصمد . وكأنما كان
يوقع ألحان صداحه على ريش جناحه المهيض ، با كيا يشدو كل لحظة بلحن
جديد من غير عود على أعواد الشجرة . وكان يطلق فى كل آونة من همومه
تغريدة كان لها فى كل ريشة من ريشه صدى ، حتى ليظن أنه أضخى وكلثه
نات أشجان موقعة على أوتار جناحيه ، أو أنه صار بما يغمسه من أسى
الآهات عودا وعروقة فى العود أوتار . وفى كل زفرة من زفرات أساه
كانت عظام جناحيه مضارب لأوتار فؤاده .

وأصغى المجنون إلى شكواه ، فغدا مثقلا بأشجانه ، وكلما صارت
صدحات الطائر أكثر حدة انفطر لها قلب المجنون وتصدعت أركان
روحه ؛ وقصرت به طاقته عن سماع تلك الأناث ، فسعى بجثو على رأسه
تراب الأسى ، حتى وصل إلى رب الدار ، ودق عليه الباب قائلا : يارب
الدار ، ما هذا الأمر الذى 'حمّت به روحى هذه الليلة ؟ وأى ألم عرا هذا
الطائر ؟ وأى حرقه يعانى ؟ وما ذاك السهم الذى به تمزق صدره ؟ فما أشد
ألمه فى أناته ! لقد تمزق صدرى إربا على أشجانه ، وأخاف أن تفارق منها
روحى البدن . وهو يكشف بنوحته عن سر جواه ، فيهبج منى قصة آلامى .

فأجاب رب الدار : كان هنا حمامتان مطوقتان قد حسن منظرهما
يعيشان فى صفاء . قد اتخذتا لهما هذه النخلة عشا ، وبنيا لهما فى رأسها منزلا ،
وكانا فى المنزل أليفين يغردان بالحنان الطرب ، يغدوان معا يطلبان الحب ،
ويردان معا الماء ، لم يعترهما قط ملال من الصحبة ، ولم يعانيا أذى الهجر .
قد طابت غدواتهما وروحاهما ، وقصرت يد الدهر عن أن تنال بالسوء

أردانهما . ولسكن منديوم أو يومين وجد طريقه إلى عشهما بازضار بالصيد ،
ففرق بينهما ، وبسط كلاهما جناحيه للهرب ، وهجر كل منهما الآخر .
وعاد الباز لعشه ولم يعد أليف الحمامة ، ولا يُذَرى ماتم في أمره : أهوحي
أم وقع في مخالب الباز . ففي قلب هذه الحمامة من نأى أليفها لوعة ، وبه
من فراقها - ولا شك - حرقة .

وسمع المجنون هذا اللحن من رب البيت فأطلق من أحشائه صيحة
زلزلات القرية فاستيقظت من نومها ، وبكى قائلاً : هذا هوكل دائي ، ولم يعان
هذا الحرمان أحد مثلي .

ثم سار شطر النخلة وجلس تحتها ، وأخذ يتكلم بفصيح أسائه إلى عجماء
اللسان قائلاً : أيتها المرجانية الساق الياقوتية المنقار . رأسك بندقية ،
وجناحان خضراون كالفسستقة ، فلو أنك - ماحيت - كرقعة السماء ، وأنت
ياقوتية العين عنبرية الطوق ، ورأسك محاط بطوق الشوق . أنت ناقوس
دير الحب ، والمطربة على موائد المهوزين ، توقظين بوعظ أحنائك سكان
هذا العالم ، فيمتبهون على بليغ أشجانك . فأحياناً تعظيهم في جوف الليل ،
وأحياناً بعد غفلة النوم في الصباح . أسأل الله بسابق عنايته ، وبلاحق
ما لا يتناهى من فضله ، أن تجدى أيتها الحمامة من تفتقدين ، فستعيدى ما كان
لك من هناية ، وتدومى موصولة الهناية إلى القيامة ؛ فأنا أيضاً شريك لك
في الرزء ، باق على حالى من فراق الحبيب أبد الدهر . قد قضينا عمراً معاً
صديقين وفيين ، يفدى كل منا الآخر بنفسه ، قد سكن خاطرنا في مهد
الوفاء ، وخلا طريقنا من شوك الهجر ، ولم يعمل بحيانا غبار الأسى . وكانت
قلوبنا مكشوفة من أذى الواشين ، ولم نسكن نلقى بالاً إلى من يعرض لنا
بالنصح . كنا معاً روحين في بدن ، نتوارى من عيون العدو والصديق ،

فرمتنا الأيام بسهام غدرها ففرقتنا ، وهانحن أولاء نقاسى الأهوال .
هيات ! وماذا قلت ؟ هذا كذب ، وشمس الكذب لا تضيء . ففؤادى
كالشقائق حرقه ، وهى خلية البال كالوردة النضرة . وهى فارغة القلب ،
وأنا جدمشتاق . وهى ذات أليف ، وأنا وحيد لا أليف لى . وهذا البلاء
للمصاب بالعشق أشد هولاً من شجون الفراق . وقد ملأت العالم قصة
أشجائى ، بينما هى لاهية فى أحضان سواى . ونزيلة القبور خير لدى العاشق
منها فى يد غيره . والثرثرة التى وقعت فى أرض الحديقة أفضل من تلك التى
اختطفها عادياً الغراب .

هكذا قال ، وأفاض من عيون دماء قلبه سيلاً ، واقترق عن رب البيت ،
وسار إلى حيث لا يُدْرِى أين استقر .

(٣٧)

رسالة ليلى إلى قيس تعتذر عن زواجها

أخرج بائع الدر من درج القصة جواهر السلام قائلا :

ليلى تلك الدرة فى صدف شرفها العظيم ، ودونها الدر المتألق فى أصدافه ،
 عروس حجلة الجمال ، وسيدة القصر الصديحة المحييا ، تغزو بحسنها قمر
 السماء ، وجمالها إكليل على هامة النيرين ، كوكب فى برج الشهرة ، ونور
 حرم الجلال ، ظبية الدمن وغزال الأطلال ، عقدتها الثريا وخلخلها الهلال ،
 حين انتظمت فى سلك آخر ، وصارت حلية تاج سيد عظيم ، فاتخذت
 قرينا ذلك الجليل القدر ، المشهور بندااه فى الآفاق ، لم تزل على خجل
 من أمرها ، غضبي من أجل حبيبها ، وحيلة أن يقع فى ظنه أو يطوف
 فى خياله أنها أدبرت عنه ، فاتخذت باختيارها زوجاً أنست برفقته ، وأذاقته
 رحيق ريقها ، وأسلمته مفتاح كنزها ، واستسلمت له فيما يراذ منها . فلم تر
 وجهاً للرأى غير أن تشرح له أطوار القصة طيَّ صحيفة مطولة ، سلسلة
 التعبير كصفوف ذوائبها ، محررة بدم العين السائل من الأهداب ، ليكون
 الألم عنوانها ومضمونها ، وترسلها إلى المحنون ليرى ما تعاني من أسي
 فى وحدتها ، وما يعتلج بقلبها من شجن ، ويستبين منها حالها وانفطار قلبها .
 وكان من دأبها أن تكتب لنفسها عن همومها . وحين ورد لها هذا الخاطر
 كتبت هذه الرسالة التى تم عن جوى الصدر : بدأتها باسم الخالق سبحانه ،
 مانح السكينة لمكلمى القلوب ، الذى جعل من حاجب الحسناء قوساً ،
 ونشر من لحاظها سهام الفتنة ، والذى حلّى خدود الغيد بالورد ، فهاج بها

شوق بلبل الروح ، دواء آلام ذوى الآلام ، ومرهم جروح الصدور
السقيمة ، يحرق القلب والدين ببرق الجمال ، ويضئ العين بصباح الوصال .
وحين فرغت من ديباجة الرسالة أخذت تتحدث عن حال نفسها
فقلت : هذه الرسالة تحكى ما استجد فى قصتى ، وهى موجهة من عاشق
ولهان إلى من اغتصب قلبه . هأنذى قابعة فى زاوية اليأس ، بينما تقود
راحلتك فى عرض السهول والوديان ، فقدمى فى أذيال الغرم ، وأنت
فى مضايق اللوم . وليس لى من ذنب فى أنى لزمت الصمت ، وفى أنى لم أقدم
إليك بعذب الحديث ، فأنا رهينة شباك ، فكيف أدنو منك وأنت الطليق
من الأشراك . أيها الفار من الخلان إلى شعاب الوديان ، لا رفيق لك فيه
سوى الغزلان . ولكى تخبر الظى بلواعج أشجانك تردد حرفين (١) من
اسمه ذى الحروف الثلاثة . أيها الخاثر الخطى بعيداً من الأهل ، تسابق
الأوابد عدواً ، أسرع إلى مقبلا ، واعد نحوى ، لتشعل النار فى ذوى العيون
العمى من الحساد . أيها النائر الدموع على أسراب الظباء ، وعلى قلبك
من عبء الفراق جبل ، أطلق نفسك من ربة هذا العبء ليتضح الأمر
فيما يكون . أيها الناقى بجانبك عن الخز والديباج ، ويطيب لجنبك المقام
على الأشواك والصخور ، كيف طويت عنا كشحا ؟ وكيف أنت
على الأشواك والصخور ؟ من ذابق اسمك الوسادة ؟ ومن رفيقك فى الفراش ؟
ومن يزورك مساء فى مضجعك ؟ ومن يتذوق العذب من شهد شفاهك ؟
ومن يمس براحتيه جسده حين تستريح ؟ ومن يأسو جراح أذاك ؟
ومن يرى كيف قدمك ثيلا لينزع ما علق بها من أشواك ؟ ومن يبسط لك

(١) من أسماء الظى فى الفارسية آهو والحرفان اللذان يرددهما قيس هما آه .

المائدة ضحى ومساء ؟ ومن يقاسمك الطعام غير الوحش ؟

وعلى الرغم من كل هذا عليك أن تقوم بالشكر ، إذ لا ريب فى أنك أخف منى حملا . فكل ذرة من جبال غمى ثقل مائة جبل ؛ فمن نصيحة الأب إلى جور الأم ، إلى الكروب التى ينوء بها الرأس ، إلى ما فرض على من أمر الزوج . فإذا تأوهت ونظرت إليك قال : من أجل من هذه الآهة ؟ وإذا بكيت من لوعة الحرمان ، قال ليس لك على سلطان ، وإذا أردت أن أخطو خطوة خارج البيت ، قال : لا تتجاوزى عتبة الدار ، وإذا أدت وجهى إلى عين ماء قال : أشيخى عنها بوجهك . وإذا انتحيت ناحية فى جانب السهل قال : إلام هذا الدوران ؟ وإن الدهر الذى تعهد وردتى بالنماء منذ أطلت على الوجود ، وفتحها برعمة صغيرة بين حاد الأشواك ، لم يجعلنى فى وئام مع الزواج ^(١) ، فهو أمر لم آت به عن اختيار ، وكنت خاضعة فيه لسلطان والدى . ومهما نفذ إلى قلبى من شوك ، فكيف يتسنى لمن رأى ورد خدك ، أو تلمس ربحك على مهب الصبا أن يفتح ناظره على إنسان سواك ، أو يصحب امرأ غيرك ؟ فزوجى لم يشاركنى قط مضجعى ، ولم تمس رأسه رأسى ، ولم يجذب بيده كفى ، ولم يظأ بقدمه أرضى . وهو قانع منى بالنظرة من بعيد . وقد أضخى نهاره من الأسى حالسكا كالليل ، ودق جسمه من الألم كالشعرة ، وكادت الشعرة أن تبتر فى صراعه مع الدهر ، ولكنهما مع ذلك سبب احتجابى عنك ، فما أطيب أن تسقط من بيننا ، كي أرى وجهك بلا حجاب ، وأتأمل شمسك بدون سحاب . »

(١) يدعو الصوفية إلى العزوبة للتفرد للعبادة انظر مثلا الدكتور عبد الرحمن بدوى : رابعة العدوية ص ٥٣ — ٥٧ ويدعو شاعرنا كذلك للعزوبة فى قصة سلامان وأبسال أنظر Browne : Lit. Hist. of Persia III , p. 523 — 24.

وقد بدأت الرسالة على استحياء ، وبدأت في آخرها سافرة الغاية ، ثم ختمتها بطابع حبها ، واضعة في نهايتها حلقة ميم السلام ، ثم طوتها كعلبة لؤلؤتها روح العاشق ، ضناً بها على عذول يتربص الدوائر ، وكتبت على الرسالة من فيض دم العين : ليرحم الله تعالى امرأ لديه من المروءة والتضحية ما يسأل به عن خبري أنا التي مللت الحياة في منزل الغم ومقام الهجران ، وفي مدينة البلاء ومُلك الحرمان ، فأسأله أن يوصل إلى قيس خطاب الوفاء ، ليقف على حال أسيرته .



١٦٠٧٠٢١

(٣٧)

قيس يتسلم رسالة ليلى

فرغت ليلى من رسالتها ، وختمتها بالغالية ، وخرجت في قوامها المشوق من خيمتها تبحث عن رسول ، تخطر بين خادمتهين لها كأنها الحجلة رشاقة . وكانت خيمتها تطل على مروج قريية من عين ماء فضية يرد حوضها الظامئون في الصحراء ، فزيت بمقدمها تلك العين ، وغسلت يديها بما سوى الحبيب ، وجلست غافلة عن نفسها ، عينها على الطريق ناظرة كأنها في صفائها عين الماء ، علّ امرأً يقدم إليها ويكون على يديه تحقيق سؤلها . وجأة انكشف غبار الطريق عن عربي على راحلته ، ليس بريح وهو أسرع من قائط الريح ، وليس بسيل ولكنه أسرع عدوا من السيل الجارف . فلم يكد يرتد إليها طرف حتى أصبح منها كالسكبة من زمزم ، ونفض عن أذياله غبار الطريق ، وأناخ راحلته على حافة العين ، وقرب من المورد كالخضر^(١) فروى منه وجلس جلسة الخضر . فقالت له ليلى : من أين أنت ؟ فإني أجد منك طيب ريح الصداقة — فأجاب : من أرعن نجد الطاهرة ، وغبار أرضها كل الأبصار . فمن تلك الأرض نبتت زهرتي ، وفيها تفتح كالوردة قلبي — فقالت له ليلى : هناك بأُس مُمرّ الحلق ، لقبه المجنون واسمه قيس ، يدور في تلك الديار ضالا مكروباً عليه مظهر الحـداد ؛ ألك به معرفة ؟ وهل لك من سبيل إلى التحدث إليه ؟ — فأجابها : نعم ، فأنا له صديق ، مُستظل بكنف وفائه ، مشمر عن ساعد الجد في محبته . وطالما

(١) كالخضر في ورده عين ماء الحياة

تحدثت إليه أسرى عنه اللهم ، وأدعو الله له أينما كنت كي يسكن خاطره .
فقالت ليلى : وكيف حاله ؟ - فأجاب : دائب على إرسال الانات من العشق
دائم النفور من الناس ، فارّ مع الوحوش مستريح إليها فحينما يتلو من القوافي
ما يلهب الصخور ، ويسيل على الجلاميد من حرقة كبده ما يصبغها بالدم ،
وحينما يهذى في ركن غار ، وعلى وجهه من الأسى غبار - فقالت ليلى :
أو تعرف - أيها العاقل - من هي التي وقع في حبّال حبها ؟ فأجاب :
نعم ، من أجل ليلى يرسل كل لحظة من ناظريه سيلا . فليلى حديثه حين
ينهض ، وليلى همه حين يميكي . وهذا الاسم غذاء روحه ، اكتفى به عما
تجود به الطبيعة من غذاء على مائد طعامه ، وهو كل ما يجري على لسانه ،
وهو غايته من لسانه .

فأسالت ليلى من جفونها دموع الدم ، وأبرزت من ضميرها كمين السر
قائلة : أنا طلبة روحه ، واسمى أنا هو الذي يجري على لسانه . ومن لوعتي
احترق صدره ، وعلى ذكرى طاب بستان خاطره . وأنا التي أشعلت نارى
بفؤاده ، وأضأت بنورى جوانب عيشه . وأنا كذلك التي صيرت أنحاء
روحه خراباً ، وشويت أضلعه على حر جمرى . ولكنّه يجهل ما أنا عليه
من أسى يشرف بي على الهلاك ، ومن لوعة تلفح كبدي . وروحي فداك
إذا استطعت أن تنهى إليه من أخبارى . فعلى رسالة مسطرة بدم مهراق من
القلب ، فناشدتك بما له عليك من حق الوداد إلا حملت منى هذه الرسالة ،
لتسلمها إليه يدًا بيد . فقم بما أنت له أهل من دين الوفاء ، وعد إلىّ بجواب
هذه الرسالة . وستحمل إليه أسى وتعود إلى بلوعة ، وستسلم له شمعاً وتأتى
إلىّ بمصباح .

فنهض ذلك الشاب ذو المروءة قائلاً : يا من غمرت بالأسى قلب المجنون ،

حق لي الفخر أن أبذل جهدي ، وأن أسلم راضياً روحى في سبيل نعيمك .
فكل حرف من رسالتك هو لدى المجنون الحياة ، بل هو من الحياة أفضل .
ولا أعلم يدا أسديها له أعظم من حمل هذه الرسالة إليه .

فتبدل ما بليلي من أسى النفس سروراً ، ونشرت من جيها مكشوف
تلك الرسالة ، ووضعت في طياتها رمزا للشوق شعرة من سود ذوائبها
وعود عشب جاف ، تريد بذلك أن تقول : منذ اليوم الذي انفردت عنك
صرت نحيلة كالشعرة ، شاحبة كالعود .

ثم أسلمته رسالتها إلى من شهر بالعشق ، خفف بها من مكانه إلى ناقة
أليفة أسفار ، وأخذ يقطع الطريق إلى مقر المجنون . ووصل سليماً معافى
فأخذ يعدو يمينا ويسارا ، لا يعثر للمجنون على أثر ، فسكاد فؤاده ينفطر
غما . وسار إلى ظل شجرة ليستريح برهة من جهد الطلب ، فرآه صريعاً
كالمثل (١) ، قد أفلت من يده زمام العقل ، ليس بنائم ، ولكنه مغمض
العين ، يقظان القلب ، متحرر من ذاته . فعيته هناك وروحه في مكان آخر ،
وهو باد هناك ولكنه مختف في مقام آخر ، قد خرج عن دائرة القمر
والشمس ، وتسامى عن نطاق الفلك ، وانقطع عن دعوى العشق ، ولوى
عنانة عن المعشوق ، وغرق في بحر العشق ، وانصرف عن كل شيء سوى
العشق (٢) . وعلى الرغم مما بذل الرسول من حيلة كي يلتفت إليه ويعي له ،
لم تأت حيله بجدوى ، ولم يصل بصياحه إلى مسمعه مهما ارتفع به . فأخذ
يحدو جهير الصوت بأغنية تردد صداها في أنحاء الجبل ، وكان حداؤه باسم

(١) يصف الشاعر هنا قيساً وقد عمرته نوبة وجد صوفى .

(٢) أى العشق الإلهى الذى كانت ليلي سبيله إليه ، انظر فصل ٤٨ من هذه الترجمة ،

ثم انظر الفصل الثانى من الباب الثالث من كتابى : الحب العذرى وحب المتصوفة .

(م — ١٠ ليلي والمجنون)

ليلي ، فسرعان ما وصل نداؤه إلى قلب المحبوب ، فأفاق من غيبوبته ، وعاد إلى نفسه على سماع ذلك الاسم ، وقال : من أنت ؟ وأى اسم تردد ؟ وما غايتك من ترداده ؟ — فأجاب : أنا رسول ليلي إليك ، خصّيتني بحظوه تلك الرسالة ، ويلي أنيس روحك ، ونور عيذك ، ومثيرة دموعك — فقال المجنون : ولكنك لم ترع حرمة الأدب ، إذ لم تطيب شفاهك بالمسك وماء الورد ، ومن أنت والنطق بذلك الاسم كل لحظة ؟ ولم تلك الجرأة ؟ فأجاب في عجب : بل أنا لسانها وترجمانها إليك ، أحمل إليك منها رسالة كالدر المكنون أقدمها برهان إخلاصى لك . وها هي ذى الرسالة ، وكل كلمة فيها هي من رشح شبابة قلبها .

ولما سمع المجنون اسم الرسالة مشى على رأسه كالقلم ، وجلس أمام الرسول جلسة ذى الحاجة ، وتسلم منه رسالة الوفاء . ورأى اسمها على عنوان الرسالة فقبّلها وأمرّها على عيبيه ، ونفدت إلى رأسه نكهة الوصال ، وأطفأ ذلك النسيم مصباحه ، فسقط فاقد العقل والوعى ، وفقدت عيناه النظر ، وأذناه السمع ؛ وحين عاد إلى نفسه أخذ يحذو بنغمة الشوق قائلا : ليست هذه الرسالة من الحبيب زهرة في روض الأمل ، ولكنها روض ذو مئات من الورد للقلب الكريب . وهي على مائدة الوفاء لقمة منجّتها سائلا على تلك المأدبة ، مختومة بالمسك كنباجة الظبية ، كأنها ذؤابة من غدائر الحبيب ، وهي رقية ذوى القلوب السليبية ، سجل بلاء أسرى البلاء ، مرقومة بقلم حسن الخط ، وفيها طراوة الجدة .

وحين فض رأس الرسالة أطلق من رأسه ذلك الشيد : ليست هذه الرسالة باكورة ربيع وكفى ، ولكنها بستان من البنفسج ، يشرح الصدر نقش قلمها ، ويشفي القلوب ما تحلى به ورقها ، مسطورة على صفحات الشوق

من قلب كليم قوسه الألم . وكان صفوفها نمل من العنبر اتخذت طريقها فوق صفحات من الكافور ، وتحمل كل نملة منها إلى عشها قلباً من قلوب البائسين كأنه في فمها حبة . ولكل حرف من حروفها مذاق الخمر وشكل الكأس ، فإذا حسوت من تلك الخمر جرعة أخذت ترقص ثملاً . وتبدو سطورها واضحة كأنها سلاسل من المسك ، كل سلسلة منها — قيد لاقدام ألف عاقل .

ثم شغل بقراءة الرسالة ، وحلى بها جيد روحه . ورأى منه الرسول ذلك فقام إليه يرجوه في كتابة الرد . فقال قيس : كيف أسطر جواباً ؟ وإني لا أكتب على وجهي بدم دموعي ، وأنا فارغ من الورق والقلم ، ورقى الرمال والقلم لصبغى .

فامتطى الرسول في الحال ناقة ، وسار مرحلة حوالى ذلك المكان ، وأسرع في كل صوب ، حتى وجد في المساء طريقه إلى قبيلة ، وظفر منها بما كان يطلب . وحين نشر الصباح أعلامه نهض ولوى عنانه شطر قيس ، ووضع أمام الكاتب أدوات الكتابة ، وأخذ المجنون يخط رسالته ، وابتدأ قائلاً :

رسالة المجنون إلى ليلي

ديباجة رسالة الأمانى ، وعنوان صحيفة المعانى ، لا يليق أن يكون غير اسم مسبب الأسباب ، الذى به تفتتح أبواب الغنم ، وهو مطلق يد التدبير ؛ الحى واهب الروح وقاضها ، مقصر يد المحدودين ، ومونس خلوة الغرباء ، مجلّس مورد الوجود ، ونحفي كنز العدم . من أسعفه بنعمة الوصال سما برأسه فوق الفلك ، ومن أحرق صدره بالهجران أحاطت بغلات وجوده النار .

وعندما فرغ من حديث المقدمة أعرب بألحانه عن سر قلبه المسكوم قائلا : هذه الصحيفة آية المحبة ، من مصاب القلب إلى حبيبة القلب ؛ أى مى ضجيع الأشواك إليك أيتها الوردة الناضرة ، ياشبهة الربيع نضرة وابتساما ولكن فى غير عيون البائسين . أنت حديقة واسكنك بجثم غراب ، مرهم لكل الناس ولكنك لى داء . يا ذات الوجه الحبيء دونى كالسكنز ، بينما هودر على أذيال الآخرين . أنت سحاب حظى منه أحيانا البرق ، ولا ينالنى منه قط غيث ؛ بك تصبح كل أرض جنة فيجاء ، ولكن أرضى بك رطبة بدم الدموع ، وكل ماتوليننى من عناية أنك تحرقين ببرقك حصيد أحشائى ، فرفقا بمحترق الحشا مكروب ، وأفيضى عليه من معين لطفك ياءين ماء الحياة ، وأنا دون فيضها ظمى . أكتوى بمئات الجذوات ذات اللهب . نعم كان الخضر أهلا لورود عين الحياة ، فلا ضير أن يموت -وسها إذن

مائة إسكندر^(١) . وقد احترق الاسكندر ظمأً إلى تلك العين ، وجف دونها كأنه ناجفة ظبية ؛ ولكن أين ألمه مما أقاسى أنا رهين ظلمات بحر البلاء ؟ في اللحظة التي وصلت إلى فيها رسالتك تضيع بعطر الوفاء من قطرات قلبك ، وضعتها على عيني الفائضة بدم الدموع ، وأنزاتها من صدري في مكان الروح ، وجعلت منها رقية لقلبي المعمود ، وغذاء للعين ، وقوتا للقلب ! وأسأتُ بكل حرف قرأته منها قطرة من دم القلب . وأثارت نقوشها في صدري ألحان الأسى . وكانت كلماتها نواة السحر ، نمت بها أشجاني وطغت بها على الهموم .

وقد قلت : إنك بدوني تعانين ألم الوحدة ، ولم تنسيني قط . ولكن من الإنصاف ألا تُزهى بعشق إنسان وأنت في أحضان آخر . وما جدوى الحديث عن الإخلاص إذا تدنس شفاهاك بقبلات سواي ؟ وعلى افتراض أنك فوق النقص والدنس ، فأى مجال فى ذاك لظنون السوء لدى العاشق المسكين !! فهو فى كل لحظة أسير مئات الشكوك . وكل شبهة لديه دليل ، وكل ذبابة نافقة هى فى خياله فيل حى . فقد يتوهم من الظنون ما يقتلع الجبال فتأوى جبال الهم إلى صدره . ويرى فى النملة ثعباناً ، فيحس لذلك الثعبان ألف ناب فى قلبه المنفطر . وإذا سقط طائر يلتقط الحب على سقف بيت الحبيب ، أدرك المحب منه غبار الشك فى أنه رسول يحمل رسالة من آخر إلى الحبيب .

وقلت : إنك فى شغل عن عناقه ، راغبة عن قبلاته . وحسبى أسى أنه يرافقتك من الصبح حتى المساء على أمل أو يأس ، وأنه يرى ألف مرة

(١) هى عين ماء الحياة التى شرب منها الخضر نخلد ، ولم يستطيع ردها الاسكندر ، راجع لهذه الأسطورة الشاهنامة تعليق وتحقيق الدكتور عزام ج ٢ ص ٢١ .

في النهار ذلك الوجه الذي لم أره منذ سنين ، وتلك الثمرة التي ان أقطفها
مدى العمر .

وقالت : إنك صريعة الألم ، على شفا الهلاك من الغصص ، توذنين
لو اختفى من الطريق ، أو تبدد في الهواء دخاناً ، وما أكثر ما يبدو لك
من أصدقاء لو اختفى ! وما أكثر ما يظهر من متنافسين للظفر بما حُييت به
من صفات ! وإذا طار عن شجرة التين غراب ، فهناك سواه في الحديقة
مائة غراب . ولكل امرئ من أولئك أسباب يتوطد بها أمله ما عداى ،
فيوم أمله بعيدٌ صبحه ، وأنا طيب الخاطر باليأس . فما لي والأمل ؟ !
وكفاني ما يحز في صدرى من أنك أمل الآخرين . فإذا أردت إرضاء
العدو رضيت أنا بما تريدن ، ورغبت فيما فيه ترغبن . ومن الخيف أن
يُدعى مهيناً من ترضينه صديقاً ، فهو بصداقتك ذو خطر ، قد صار
من الصفوة ولو كان قبل من الدهماء . ولا يحمل بي ألا أتخذ صديقاً من
تختارينه صديقاً ، فهو منى مكان التقدير والوداد . وخير لمن يعانى من أجل
حبيب أن ينزل على رضا حبيبه ، وأن يصرف عنه عن هوى نفسه ليسرع
الخطى في طريق مراده . فالعشق بعيد من هوى النفس ، والعاشق من ينفر
من هوى نفسه ، فهو طروب في أساه راض بهوموه ، وهو تراب في ديار
اليأس ، فلا ظل على حرمانى ويأسى ، طيب الخاطر ببلاء الدهر من أجلك .
ولا زال الدهر طوع مرادك ، ولا زالت مع الخلان في وفاق ، وإذا مت
فلك البقاء .

(٤٠)

وفاة زوج ليلى

هكذا جلا ساحر البيان أسرار هذه القصة ، ومضى في تصويرها قائلا :
 قد شهرت عصا العصيان على زوجها تلك الشبيهة بالكعبة الفريدة
 منظرآ ، الساحرة المحيا كأنها من صور الصين ، أغنى ليلى قمر السماء ، التي
 جازت زوجها سوما على طيبته ، فقصرت يده عن باب حصنها ، وحطمت
 في وجهه مداخل الرجاء ، ولم تفتح له صحائف المراد ، ولم تدن له بالانقياد ،
 فوقع المسكين على سرير المرض ، ولم يحظ من وصالها بغير البلاء ، ولم يكن
 من وراء حسن نيته غير الضرر . والوصل الذي لا يتجاوب فيه الحبيب
 مع الحبيب لا ينال المحب من ورائه غير صنوف الآباء ، ورؤية جنة عدن
 من بعيد دون قطاف ثمارها أشد من عذاب النار على البائسين من أهل النار .
 وازداد به المرض قليلا قليلا إثر ما ساور خاطره من الأشجان . ولفحته
 الحى بلمبيها فاحترقت عروق نبضه ؛ وكان يحس كل من يضع إصبعه ليجس
 نبضه كأنما وضعه على شمع تحته نار . ووقف على رأسه طبيب عالم ، حاذق
 في علاج الصعاب ، وخصه ليقف على مدى مرضه ، وكشف عن عينيه
 فنفض يده من الأمل فيه . واستمر بضعة أيام يتلوى من الألم كالشعبان ،
 وإذا عناية الله تبسط يدها إليه فتضع حداً لآلامه ، فخلصت نفسه من الصراع ،
 وتحررت روحه من سجن هذا القفص ، وطار طائرهما مخلقا في عالم الصفاء .
 قد أسلم الروح ، ومن ذا الذي تخلد آلامه ؟ ! ومن ذا الذي يسلم الروح بدون
 آلام ؟ فالحي لا يندرج في قالب الموت ما لم يقاس الآلام ؛ قد تمكث

في الدنيا قليلا في جهد ، ثم ترحل عنها في ألم لا ينقطع . ففي مقامك فيها
آلام ، وفي رحلتك عنها آلام . واهأ لهذا العالم ، آلام على آلام ! وينجو
من آلامه كل من بكّر منه بالذهاب . ألا فانصرف عن هذه الدنيا موطن
الآلام ، واهرب من ذلك العدو المبين . فالصبح في لون الرومي والمساء
في سواد الزنجي لصّان لا يستحيان ، وهما واصلان منك إلى ما يريدان ؛
فذاك يخدعك بما ينثر من ذهب النور ، وهذا يسحرك بما في كفه من جواهر
الفلك ، حتى يستنفدا منك كنز الأبد ، وينزلاك في عذاب الخلد ؛ فحذار
أن تقع في خداعهما ، وأن تغتربرونقهما وجمالهما .

وكان قلب ليلى من حرقتها لفراق المحنون كبرعمة امتلأ كأسها بدم
الأشجان ، فاتخذت من موت زوجها تعلقة لتسيل دم قلبها دموعاً . وفكّنت
في مآتم زوجها عقد الآهات عن صدرها ، تلك الآهات التي كانت قد
أشعلت النار في حميد صبرها ، وأطلقت في الفضاء خيم أشجانها . وكانت
تصيح باكية : حبيبي ! حبيبي ! وتنظم در القول في فراق الحبيب ، ولم يكن
قصدها به الزوج ، بل كان في رأسها خيال آخر . وقضت زمناً في لباس
الحداد ، قائمة بما تفرضه عليها عدة الوفاة ، فكانت في ليالها رهينة فراش
الأسى ، ساهدة تبكي حتى الصباح ، وفي النهار نهياً لجوى الفرقة ، تشعل
بآهاتها جوانب العالم . وكان مآتم زوجها تعلقة لظهور ما كمن من العشق
في قلبها . فقضت عمراً في طويل البكاء والآهات ، فقصّرت بذلك عنها
إسنة الخلق .

(٤١)

بكاء المجنون على غريمه

أراد ذلك الأعزى — الذى كان قد تجاوز حدود الرشء فمثل يوماً أمام
المجنون وأخبره بعقد قران ليلي فأدعى فؤاده — أن يأسو ذلك الجرح
بمرهم الحب ، فتوجه صوب ذلك الجبل على أثر علمه بوفاة الزوج ، وأمعن
فى البحث عن ذلك الهائم على وجهه حتى عثر أخيراً على أثره : وقال له :
لدىّ لك بشارة أقولها إذا أذنت لى فى القول : ما كان قد اعترض طريقك
من شوك أصابت فؤادك به طعنة قاتلة حين سقطت لك خبره قد أزاحه
ريح الأجل من الطريق ، ولم يبق له فى الطريق من أثر . فقد خرج زوجها
من حدود الدنيا موطن الآلام . ونجا ذلك الفتى الوسيم مما كان يعاني من
أسى ، ووهبك بماته البقاء .

وسمع المجنون حديث موته ، وعلم أنه اسلم الروح ، فتلوّى ألماً ، وأخذ
يمكى بكاء السحب فى الربيع ، واسترسل فى البكاء حتى تسامد جليسه عن
سبب بكائه فى فصيح من القول : يا سيد العاشقين ، ويا خبيراً بدقائق
أسرار العشق ، سمعت فيما مضى عقد زواجه ، فزقت ثيابك من الغصة .
واليوم وقد سيق إليك خبر موته ، وعلمت انقضاء أجله ، ترسل نائماً نفس
البكاء والزفرات . فكيف وفقت بين الحالين ؟ إذ عقلى قاصر عن إدراك السر .
فأجاب المجنون : بكيت فى ذلك اليوم لما أصاب روحى من تلف

بزواجها . ومن لا تنهل دموعه حين تحز به الشدة فهو حجر ، وإن كان آدمى المولد . واليوم أنثر الدمع لما ألهم فؤادى من نار بذلك الخبر . وذلك أن زوجها قامر فخر ، ولم يفقد فى صفقته ذهباً وفضة وكفى ، بل خسر ما كان يملك جملة ، وكان خلى الفؤاد بما سواها ، وكان طائر وردتها النضرة ، وشربكها فى المسكن ، يستمد نور باصريه من بقائها ، وقد قضى نحبه محروماً من وصالها ، وأسلم الروح من تياريح عشقها . وأنا المقروح السكيد المكروب الفؤاد ، وآلاف الفراسخ بينى وبين أحضانها . أضرب كل يوم فى عرض الديار ، وأقبع الليل فى زاوية غار ، فلقائى لها خيال ، وقربنى منها محال ، سوى أننا كليتنا من سكان عالم واحد ، ودوتنا سماء واحدة ، وتمس أقدامنا وجه أرض واحدة ، ونعيش فى عصر واحد . وأنت تدرى أنى سأقضى نحبى فى النحيب ، ذليلاً على سرير الحجر ، مشغل الصدر بعبء فادح وسأخر صريعاً فوق الصخور والأشواك ، مهجوراً من الحبيب نائياً من الناس ، لا رفيق لى غير ظباء الصحراء ، ولا محرم لى سوى قطعان الحيوان . وسأكون فى مكرات الموت كغزال ثمل ، وسأخرج يدي من جيب هوسى لأحتضن غزالاً على صدرى ، وأنزع شعري يدي ، ثم أفقد الوعى ، وتشدُّ روحى فى طريقها الرحال ، ويضحك من موتى الدهر القاسى وتنوح على الأطباء فى مرقدى ، ويشيعننى إلى مشوى القبر ، وسأوى إلى اللحد حتى القيامة من أجل ذلك الظبى الذى لم يبال بما نال من غرم . وحاشا لمثلئى - وأمامه من المستقبل ما وصفت ورحه نهب لذلك الأسى - أن يطرب بموت الأعداء ، أو يسر بانقضاء أجلهم . وكيف أضحك مسروراً حين يصاب آخر بألم أشكو منه وأضيق به ؟ ومتى نسى

نصيبَ امرئ الفلك' الدوار والطاغية الجبار ؟ فإذا كان قد جرى بالأمس
بمصائب عدو ، ففي غد دورى ليحطمني تحطيم الزجاج . وخير لمن يسر بالأم
الناس ألا يعيش ، وأولى له أن يبيكى على محنة نفسه . فالحكيم في دار الهوم
هو الذي لا يفرح بما يصيب سواه . »

هكذا قال ونهض محيياً ، واستأذن في طريق سلوك محنته ، فشد ذلك
الرجل رحله إلى قبيلته ، وبقي هو مع عشيرته من الحيوان .

(٤٢)

في طريق المجنون إلى ديار ليلي

القطب الطريد

نظم راوى هذه القصة فيما نظم جواهر الكلام فقال :

كان قيس غريقاً في أحضان المحيط الزاخر العباب ، نهيب العقل سليل
الرشد ، تسكرت سفينة عافيته فتعلق منها بلوح ، فحين سمع ببشرى موت
عدوه سرعان ما فكر في نفسه ، فأدرك أن عقبة أزيحت من الطريق فصار
الوصول أقرب منالاً . فالبدر في مهده ولا حراس دونه ، والوردة
بعده نضرة لم يعرها ذبول الخريف . فخذها به الشوق إلى ديار الحبيب
عاديا كراحلة تسابق الريح ، أو كفرس سموح ، حتى وصل إلى حي حبيبه
الوفية ، فتلفت حيران ذات اليمين وذات الشمال يقتفي أثرها ، وإذا به يرى من
بعيد كلباً (١) سقط إعياء وعجز عن السعى ، ووهنت ساقه وكلّ مخله عن
الصيد . يقف شعره إن عوى ثعالب ، ويموده خوف الوحوش . قد هزل
حتى بدت ضلوعه من جانبيه ، وصار جراباً بداخله عظام ، أو كعبة مليئة
بالقسي . وختل يداه من الشعر ، واشتبكتا حلقة في شكل الثعبان .
وخلّا جوفه من الطعام ، وحمل عليه الجوع ، فقضت أسنانه ، حتى ينخل
أنه جعل من عظامها طعامه . وبدت في جسمه من الأرض الخشنة جراح
سال منها دم غمر جنبه ويديه ، وكان كل جرح في جلده فم ، وفيه القيح

(١) لهذا الوصف الواقعي المثير نظير في الأدب الفرنسي في وصف بودلير للجيفة :

Une Charogne : (Baudelaire : Les Fleurs du Mal· XX 1 X)

كاللسان ، وتطل من بينها بيض العظام كالأسنان ؛ لابل صار جلده منها كشبكة عيونها مليئة بما يشبه الخمر لونا ، وليست بشبكة للصيد ، بل هي مجلبة للذباب يطلب قوته . وكأن الثعلب يخاطبه كل لحظة في لهجة الساخر المتكبر أن هيا أنشب أظفارك - أيها السبع المفترس النثور - في هذا الثعالب المسكين . حتى متى ترقد عريان على وجه الأرض ؟ ألا فابحث بمخلبك لك عن فرأى ورأى المجنون منظر ذلك الكلب فجرى إليه ، جريان الدموع من عينيه ، ووقع كالظل دونه ، وقبل ألف قبلة تراب ساقيه ، وغسل بدموعه أقدامه ، وفرش له من الرمل الناعم سريراً ، وجعل من ركبتيه وسادته ، وأظله من حر الشمس ، وضمد بدمعه جراحه ، وأزال عن جسمه الأدران براحتيه ، ونفض الغبار عن رأسه ووجهه ، وطرده الذباب عن ظهره وجوانبه . وبعد أن مهد له مرقداً أطلق صوته بهذا اللحن الجميل :

يا من قلادته طوق الوفاء ، فـداءً لك ليوث الأرض . أنت تفضل الإنسان ولاء ، وتفوق المحارم إخلاصاً . لا تصد عن يطعمك من يده لقمة واو رماك بعدها بمائة حجر . وأنت في الليل حارس ، وفي النهار راع ؛ يمل اللص منك مهنته ، والذئب منك أسير مخلب سبع ، نباحك يوهن قلوب اللصوص ، إذ يهيب بالعسس أن يمسكوا بعصيتهم . ولشعرة منك في ميدان العراق بألف حارس لدى الألباء . إذا غدوت في طريقك أسد القلب ، فالعسس دون الكلب . وكم ضال في حالك الليالى هديته إلى الدار بنباحك . صوتك ليلاً نغم عذب يحلو لمسمع ابن السبيل . فإذا وصل نباحك إليه من ديار الحبيب فقد انفك إسار روحه . فإذا انصرفت للصيد كان صيدك للملوك ، يطلقونك من سواعدهم قوساً ، ويرمونك من قبضتهم أنشودة أحبوتهم ، وأنت إذ ذاك مكسو بالخز والديباج ، في عنقك قلائد

الذهب والجوهر . ومن يعجز منهم عن اللحاق بك عدواً يقف على أثرك بحصانه ، فلا يزال يتبعك حتى تجود عليه من طعام مائدتك . وما بك من تقصير حين تعدو لجلب فريسة ، بل تخلف وراءك ظل باز الصيد . وسواء وقع الطير لك فريسة أم أطلقتته الريح من كروب إيسارك ، فكم ثعالب ما كرهت اختراق جلد مخابلك ، وهي اليوم معروضة في دكان الفرء . ويرهب النمر قوة مخابلك من قبل أن يُبْنَى بسطونك ، فيبقى معتصماً بقلة الجبل على ماله من صولة يرّرع بها سلاحاً واقياً . وسمع الأسد بمكر فتواري خائفاً في اليراع ، وانصرف عن نزالك على ماله من رماح مسددة من لبدته . وأنت آفة الغزلان . وما قوى الظباء المسكينة إلى قتوتك ؟ ! ولا ينجي حمر الوحش حين تبلوها بصولاتك ما اشتهرت به من سرعة العدو . وإذيراك الأرنب الجبلي نائماً يهرب خوفاً من عينيه النوم .

هذه هي قصة شبابك ، وتاريخ حياتك الطاهرة . والآن وقد حطم الدهر قواك ، وفقدت مخابلك قواها ، يهجرونك مهيناً محقوراً ، لم يقيم إنسان منهم بحقك عليه . وسأظل رفيقك حتى الموت ، ثم حاشا أن أنساك بعد . فقد أقيمت زماناً على أعتاب ليلي ، وكنت دهرأ حارسها ليلاً . فهما تخلي عنك هذا الشرف ، وسقطت دونك الرتبة ، فأنا الأسيان على سوء مصيرك ؛ وسأجعل من حلقة ذيلك لى قلادة ؛ فابسط إلى يد الصداقة ، ومد بها حول عنق طوق السعادة . وأنا القائم لك بحق الوفاء ، أضع وجهي على تراب أقدامك ، إذ سارت أقدامك في ديارها ، وطالما جرت على أثرها ، ولم تسترح ليلاً في حراستها ، بل كنت تظل تدور حول خيمتها . وأقبل عينيكم إذ طالما نظرت بهما إلى محياها ، وقد اكتحلتما — من ريح طريق تلك الطاهرة العرض — بميل الشوك وأعواد العشب . وأعقد على ذيلك

جواهر الدمع ، فكم طرقت بحلقته ذلك الباب ، وأود أن ألصق قلبي على ما وسّمتك ليلى به من علامة حتى تصير ناره برداً وسلاماً . وموجز القول أنك من رأسك حتى القدم كنت غارقاً في نور جمالها ، وأريد أن أخلي لك مكاناً في قلبي العامر بها ، فكن دواء الجراح التي أرسل منها أناقي . ولست إلا تراباً في طريق وفائك يامن جبل على الوفاء . فأماناً وعهداً وألف أمان ؛ وأسألك - إذا وصلت يوماً إلى تلك الديار وعدت إلى ورود أهارها ، ومررت بديار الحبيبة ، وكان لك شرف المثل على أعتابها ، وجلّ مفرقك غبار طريقها - أن تقبّل لي آثار أقدامها أينما وجدت الآثار ، وأن تمرغ من أجلى رأسك في تلك الأرض . وإذا وقفت ضيفناً على مائدتها ، ورمت إليك بعظمة من بقايا طعامها وطابت بها نفسك ، فتذكرني ضيفنا مثلك على مائدة نوالها . وحين تتردد ليلاً على أعتابها ، وتراها في لباس نومها ، فذكرها بي ساهداً في أرض الهوان ، نائياً عن تلك الأعتاب . وحين نهى أمطار الربيع فتغمر أردان خيمتها ، فجذبني على بشرح قصة عيني الهامتين بالدموع من أجلها . وضع طوق منتك في عنقي مذكرا لها بأني كأوتاد خيمتها المشدود عنقها بالاطناب ، ففي عنقي مثل هذه الحلقات من الجبال ، وأنا بعد أرزح تحت أعباء من الأهوال . وإذا أصابها الأرق يوماً فخرجت تتنزه في ضوء القمر ، فاتخذت علة أنك تهدّها للنوم ، لتحكي لها هذه القصة على لسان الحب الواله : « يا شبيهة الليث في الصيد ، والغزال في الحسن ، وبهاء جمالك مشهر كالسيف في لون دم الأبطال من ضحاياها ؛ حتام أظل غريباً صريع الوجد ، أضرب هاتماً في الجبال والسهول . قضيت عمري بعيداً من بابك ، رفيق الظباء وحر الوحش . واليوم أمثل للقرب منك . ولكن ناظري مظلم من غبار الهجر . وأخاف أن أتقدم خطوة

إليك ، فتصيب أشجانك بحُسمتها قلبي . وإذا كانت عقبة قد أزيحت من
الطريق فهناك مائة أخرى مهياة . ومهما يكن البطل ليثاقهارا فهو في خطر
الوقوع في حيلة ثعلب مُسنّ محتمل . وقد يصيب الثعلب الأعرج برائش
الليث المحطّمة للأحجار . وأنا الجسور المقدام في غابة تلك الديار عرين
الآساد ، وإنما أسمى في طريق الوصال ، وأتصيد لحظات قربك ، كي أظفر
بصيد وصالك ، وأتخذ عرينك مقاماً . فإن لم أصل ظِلَلْتُ كما عهدتني
يظلني خيال الموت دون القصد ، وسأقضى نحبي ، فتخلصين من أمرى ،
وأخلص أنا من نفسي .

(٤٣)

المجنون يزور ليلى متخفياً بين القطعان

راوى هذه القصة بقضتها وقضيضها ، قد استخرج هكذا لبها من قشرها ، فقال :

حين وصل قيس إلى ديار الحبيب — وهو الخبير بمآتى الأمور النافذة إلى لها ، والواصل من قشورها إلى لبابها — دق عليه الأمر دقة الشعرة . فلا لديه إجازة بالمشول أمام الحبيب ، ولا صبر له فى البعد عن تلك الديار . وقد اشتد به الشوق لقرب الدار ، وأمامه ألف عقبة دون الوصال . فهام فى ديار الحبيب والهاً على غير قرار . وكلما رأى شخصاً فى تلك الديار ، أو صادف امرأ فى الطريق ، بحث لديه عن حيلة فى أمره ، وطلب منه دواء لقلبه المصاب . وذات يوم كان يدور حول ذلك السهل إذا قطيع يمر على بُعد ، وحول القطيع نفح عبير ينبىء عن ريح الحبيب ؛ وعلى وجه الراعى شبه لمعة نور من أنوار ليلى تتألق من بعيد ، فأضاء مصباح هواه على رؤية تلك الإشرافة وقال : ياذا العباءة السوداء ، ومنك ينبعث نور كنور موسى الحكيم^(١) ؛ كل جبل بمقدمك طور ، وفى الطور من نارك نور . يا من بك هذه الأرض كالوادی الآيمن ، ومن ترهبُ السموات عصاك ؛ فأينما تلق بعصاك من كفك تنزل بها ضربة فى عراك الحيوان ؛ ومهما بدت فى يدك فى صورة العصا ، فهى ثعبان^(٢) مبین فى عين الخصم .

(١) من الواضح أن الشاعر يقتبس معانيه من قصة موسى ورعيه الغنم ، انظر مثلاً سورة القصص فى القرآن الكريم آية ٢٨ — ٣٣ .
(٢) فى الأصل أثردها ، وترجمتها بثعبان مبین لمناسبة السياق فى الاقتباس من قصة موسى .
(م ١١ — ليل والمجنون)

وصوتُ مقلعك أمان للمروّع من الوحش . وحينما تسدد أحجار
مقلعك بقوة عضدك ، يُولّ الذئب عن قطعانك ، هارباً ينهض من خوفه
ويقع . ولو كان صيدك فوق بروج الأفلاك التي تعيا بها آلات الحرب
فصوبت إليه أحجارك ، لهُوى الصيد مرتعداً خوفاً من فوق البروج . يامن
كموس ألبانك مائدة ميسوطة يطعم منها الناس ؛ والصبح كأنه كهل
أشيب يقدم من فيض تلك الألبان غذاء لصغار الضأن والمعز . أو تبخلُ
على برّى مائدتك وأنا الظامى . الأسير ؟ فلا تكن حرباً كالدهر على ظامى .
الشفاه ، وجُدْ على فى المحترق بجرعة من ريّك . وما نى حاجة إلى غذاء
الجسد من الألبان ، بل إلى ذلك الغذاء الروحى . ولا يغيب عن لطفك
وودادك مرادى . فافتح لى باب ديار ليلي ، واحملنى خفية إليها ، حتى أجالس
فى ركن أتأمل جمالها المحتجب دونى . وأطيب نفساً منك بطوق تقودنى به
إليها كـكـلب فى القطيع ، فلمعلى أستطيع فى جملة كلابها أن أمرغ يدى على
على أعتابها . أو امنحنى كرمأ منك ووفاء فراء نعجة ألبسه فوق جسمى
المهدم الهزيل ، لا جلد به ولا لحم ، وإنما هو عظام فى جراب . فقدنى إليها
عظاماً فى ذلك الجلد وسط قطيع جعلت فداها من قطيع . على فى حريم
ديار الحبيب أنتظم فى عداد صغار النعاج . وحين يغشى القطيع ذلك الحريم
ستلقى عليه ليلي نظراتها ، فتشمنى كذلك هذه النظرات وأنظر إليها
أنا بدورى ، فأرى وجهاً يحترق قلبى شوقاً من فراقه .

هكذا قال ، وسقط كالأطل إعياء فاقد الوعى ، كأنه ميت تبوأ فوق
الثرى مرقد . واستمر دهرأ على هذا المنوال ، وكانت عيناه تسيلان دموعاً
وتنطلق من كبده المحترقة آهاته . وقام الراعى على رأسه باكى العين محطم
القلب . وحين عاد إلى نفسه من إغماءة ، وغمره من جديد فيض أساه ،

تسكّم الراعى فى لهجة المشفق عليه وقال له : أيها المفشود الوهّان ، طب نفساً فالوقت وقت إسعاد ، وهذا الليل هو ليل الوصال .

وأحضر له فراء قائلاً : ليكن هذا لك حجاباً حتى بيت الحبيب ، فالبسّ جذلان ضاحكاً ، وارقص به طرباً بين النعاج ، فعسى يطوف القطيع بتلك الغانية هذا المساء ، كما يحدث كل مساء ، فتكتشف أمرك بين العجهاوات فتسير إليك من دون القطيع .

وكان المجنون قد سمع بتعلق ليلي بذلك القطيع . فلما رأى المسكين الفراء نهض وارتداه ، وصنع له منه قدماً أخرى . وكان قلبه دائماً أسير شجى العشق ، فكيف تقصر فى طريق العشق أقدامه ؟ ولكنه أضاف إلى ساقيه قدمين آخرين من يديه . ثم قوَّس كالقطيع ظهراً سبق أن حناه عبء الهم . وأضحى رفيق القطيع وشبيهه سيراً وعدواً وظهراً . وحداه بالآمل للسير على قدميه ويديه ليظفر بالآمل . وأخذ يهمس قائلاً : يارب فاجعل حظى بهذه الخلعة الجديدة الليلة ليتن الملبس حملاً ، وإن تكن هى منجائية خشنة الملبس . لو أن هذا الأمر وصل إلى حبيبي لتهد منه خجلاً ؛ وستكون الخلعة فى وقعها عليه شوكة فى جانبه ، على أنها فوق ظهري لينة الملبس . وأنا فى هذا الجلد كناجفة الظية جفافاً ، فيالكاب شبيهه بغزال الصين^(١) وليس هذا اللباس أهلاً لكل قَدّ ، فهو لباسى حتى تعود لى الروح وكفى . وقد زدت بمقدار ألف فراء إثر سرورى بلبس هذا الفراء . وبهذا الإهاب أبحث عن سعادة الوصال ، وسأخرج اليوم من نطاق إهابى طرباً .

وبينما يحدث نفسه بهذا القول وصل الراعى إلى البيت . وخرجت ليلي من خدرها تامة الحسن كالبدن التمام . توسوس حليتها عالية الرنين ، وتحلو نغمات خلخالها بساقها ، ويتموج شعرها ذو الغدائر المشناة الملتفة ، يعطر

(١) غزال الصين معروف بكبر ناخفته .

أرجاء العالم بمنبره الخالص . ودارت حول القطيع وألقت عليه أنظارها ،
 ومر القطيع ضائناً ومعزاً أمامها ، حتى جاء دور المسكين ، فنظر إليها من تحت
 فرائه ، فلم يبق له صبر ولا قرار ، وذهب من يديه زمام الاختيار . فأطلق
 صيحة وخر في الطريق صريعاً كالظل . وسمعت أيسلي الصوت فعرفت
 من هو الذي وقع في طريقها . وجلست فرأت فراء خشناً ملوئاً بدم كبد
 محترق كنافخة المسك . وقد ذهب عنه العقل فلم يعد يرى ولا يسمع ، فجعلت
 وسادة رأسه صدرها ، وغسلت عن وجهه الغبار بدموع عينيها . وحين عاد
 لوعيه وفتح عينيه وقع ساجداً أمام بحاياها ، قائلاً : يا إنسان عين ذوى البصائر ،
 ويا قبلة الدلال لذوى الدلال ، ويا بستان الورد المزهو بأزهاره ، ويا نور
 المصباح الثمين ، أنت عرش في الأعلى وأنا الأرض ، فهيات أن تكوني
 حيث أكون . هذا ولا أعتقد أنى وقعت بعيداً ، فهأنت ذى واقفة على
 رأسى . وأنت مرفوعة الرأس في أوج العرش في علمين ، فحاشا أن تتخذى
 من أرضى فرشاً ! لمس أذبالك على كفى محال ، فهذا اللقاء إذاً من قبيل
 الخيال . والسكارى الذين يرون فى أمسياتهم أنواعاً من الخيال ، يتصورون
 فى أحلامهم مائة محال . وحسن طالعى على ما أقول دليل ، فهذه الواقعة
 من ذاك القبيل . وإن حلماً فيه أرى حياك ، وأجلس معك مطمئناً لحلم فيه
 يقظة جدى ، ومنه نور عيني .

ورأت ليلي منه هذا التضرع ، وسمعت منه هذه اللطائف التى طابت بها
 نفسها ، فقالت : يا من أنت ضيفى هذه الليلة ، قد سكنت بك روحى هذا
 المساء . وهذا الإهاب حائل دون الحبيب ، فلا تقنع من الحبيب بالإهاب ،
 واطرحه عن عنقك ، واجلس بلا إهاب مثل اللب ذهب عنه القشر . وحتام
 التسكلم من وراء ستار ؟ وفى النية الإفضاء إليك ببعض الأسرار .

وأضاء الليل ، وطلع القمر ، وأسرعت محنتهما في طريق الزوال ، وبقيا
معاً حتى الصباح ، لم يكفيا عن الكلام لحظة واحدة . فكم حكياً من قصة
ملؤها الآهات والزفرات . وكم اشتكياً من الأشجان فيما مضى من السنوات .
وكان قد بقي أمامهما مشات من طرائف القول ، وإذا الطائر يغرد بلحن
الفراق . ونشر الصبح علماً من ذنب السرحان ، ونام الكلب وغردت
الديكة . وعلى صياحها ودع كلاهما الآخر ، فنصبت ليلى قامتها سائرة نحو
خيمتها ، ومشى قيس صوب الصحراء ، وهو من البكاء كإحدى الشقائق .
نعم هذا شأن الدهر . إذا وجد كليم القلب مفطور السكبد طريقه إلى
حبيبه بعد آلاف من الآلام والجهد ، فلا يكاد يلقى بنظره على محيا حبيبته
حتى يحول الدهر بينهما مهيباً به أن أسرع بالانصراف .

(٤٤)

المجنون مع السائلين في ضيافة ليلى

حين فرغ ذو القول العذب من حديث السحر في قصة الفراء ، كشف في سياق قصته عن لباب البيان قائلا :

قد ضل في السهول والجبال زماناً ذلك الهزيل كالدف تلبعث منه
الأنات على ضربات الهجر . وقد ظل قانعاً من الحبيبة بذلك الفراء ، يحمله
لذكرها ، ويحد فيه لحاظه سكناً . ولكن حين أبلى الدهر منه الإهاب ،
ولم يبق في كفه حتى تلك البقية من الحبيب ، صار أمره إلى ما يشتهي
العدو . فلا حبيبة في أحضانه ، ولا ذلك الفراء على جسمه . وماذا يبق
من سليلب الروح بدون الحبيب ؟ وما العظام بلا إهاب ؟ ! وما إن مر عليه
زمن على هذه الحال حتى تصاعد الدخان من حريق قلبه الحزين .

وذات يوم كان يحترق لوعة إذا هو أمام الراعى وقت الظهيرة ، فسقط
دون قدمه كالظل ، وأطلق من صدره صيحة قائلا : أيها الآسى كلوم الفؤاد ،
حظى بمقدمك عجبٌ ، ألا فانظر بعين العطف إلى ما يعانى الفؤاد ،
لستطبتنى ياذا المروءة من داء الفراق . فقد كنت قتيل الهجر ، مسلم الروح
للأجل ، ولستكنك نفثت في من أنفاس لطفك ، وأعدتني كالنسيم إلى الحياة .
فنظرة أخرى منك إلى حالى ، فأنا اليوم متعلق منك بالأمل .

فبكى الراعى وقال : أيها الفتى الغريق فى الهم من رأسه حتى القدم ،
قد قرح أساك كبدى ، وأجرت آلامك دم دموعى . ألا ليسعفك الحظ
كما تشاء ، كي تنبوا عرش مرادك . ولم يبدُ لي من قبل وجهه فى علاج

أمرك ومأتى دوائك ، وليكن ليلى — تلك التى أبدع القلم الإلهى فى تصوير بدائعها ، العذبة المحضر كالشهد ، بل من الشهد أطيب — تطهروا كل أسبوع من ثمن قطيعها طعاماً خاصاً تقدمه مساء المساكين الذين حرموا مائدة السماء ، فيتوجه إلى أعتابها من تلك النواحي كل من خلت يده من موائد الرزق ، ليشتد غداؤه من نوال مائدتها . وهى التى تشمر عن ساعدها لتقسم بينهم الطعام بنفسها ، وتعرف منه لتضع فى إناء كل امرئ نصيبه . ويمر الجميع آنذاك ، سواء منهم المعارف والغرباء . وهذا المساء هو وقت الأمل فى العطاء ، وموعد النوال للمحرومين . فاهض وفى كنفك الوعاء ، وانتظم فى سلك ذلك الصف ؛ عسى أن تنال فى انتظامك بين السائلين على تلك المائدة بعض النوال .

وسمع المجنون تلك البشارة ، فقام ممتثلاً للإشارة ، وأخذ فى نحيل كفه كأسه ، وانطلق فى ديار الحبيبة حتى وصل والهاً إلى ذلك المكان ، فرأى أمامه هناك ألف محب ، كل منهم يمد يده بوعائه ، يطلب كالحبيب النوال على مائدة إنعامها ، وينال ما قسم له من رزق . ورآها المجنون من بعيد ، فولّى عقله من رأسه ، وطارت روحه من جسمه ، وضعفت ساقاه عن احتمالها ، واحتمل بكل قواه ليظل منتصباً على ساقيه . وأتت نوبته ، فقدم كالآخرين كأسه . ورأته ابلى فلم تعامله معاملة الآخرين ، فبدل أن تعطيه نصيبه من الطعام ضربت بالمغرفة كأسه فانكسر . ورأى المجنون كأسه محطمة فوقع فى خاطره أن الأمر يسير على وفق ما أراد . وكان صوت تحطيم الكأس فى أذنه حلواً لأنغام فوقع به ثملاً ، ونظم لنفسه أنشودة جعل يرقص على ألحانها قائلاً : من كان عيشه ميسراً فعيشى كذلك جدّ ميسر : فلم تنلنى كالآخرين حاجة ، وحطمت بحجر الظلم كأسى ، واختصتني وحدى

بأنظارها ، وحطمت كأسى من دون الآخرين . ومن قبلُ حطمتُ دون
سبب قلبي ، ولكن أمرى مستقيم من هذا التحطيم . وياليت الحجر الذى
أصابته به جهرة كأسى ، كان قد حطّم كأس سرى ، حتى يبقى ذاك السر
فى صف الواقفين مرفوع الرأس . ولا أطلب لى خلاصاً فى سوى تحطيم
كأسى على يد الحبيب . وليس علىّ بذلك من جور ، بل لى لأرجو به
النصر . ألا فداءً لذلك التحطيم ألف رأس ، ولتكن الأرواح جزاء تلك
اليد . وقلبي مقطّع النياط بخنجر حبها ، وقلبي خال من كل شىء سوى حبها .

(٤٥)

المجنون يفقد عقله كله

موقع عذب هذا النغم ، ومغنى لحن هذه القصة ، هكذا ضرب على أوتار الأعواد من بيانه فقال :

وقع قيس من جديد فى محنة الهجر ، وهوى فريسة آلام الصبر ، وذلك أنه عندما زایل رأسه طرب كأسه ، فارق السرور قلبه . فأخذ يحترق فى نائرة الفراق ، ويكتوى بشعلة الاشتياق . وكأن قدمه - أينما حل - فوق مقلاة ، فلا هو بذائق للنوم طعما فى عرض المروج ، ولا هو بمستسيغ عذب المينابيع شراباً . لا صبر عنده ولا قرار ؛ ينطلق أنينه على الأشواك والحشرات . يشد فى كل شىء عونا ، ويطلب لنفسه الخلاص مما دهمه من خطر . وذات يوم فى الظهيرة كان يهب هواء تموز لاخفا كالنار المتقدة ، واتجه هو إلى خيمة الأذلاء ، أى إلى ظل شجرة من شجر الطلح ، يُسرح طرفه من هناك فى كل صوب . وفجأة عمر السهل عليه بقوم من عالية الناس ، ذوى مخفات وهوادج . فسرعان ما نصبوا هناك مائة خيمة ، وأقاموا لهم منازل كالقصور . وعلى ما يرد عادة فى خيال العاشقين وهو سبهم فى التعلق بالمحال ، مر فى خيال المجنون تلك الأمنية المحالة : وهى أن يكون هؤلاء القوم ليلي وقومها ، وأن تكون هذه رحالهم ومظاهر جاههم وما لهم . ثم عاد وقال : هذا هوس وخيال ، وتعلق من الحظ بالمحال . وبينما هو يردد لنفسه هذه الفكرة وذاك الأمل إذ ظهر من الخيم جمع من النجوم يتوسطهن قمر ، خرجن متنزهات منطلقات شطر الصحراء ، متجهات إليه يجرن أذيالهن

دلالا فنظر إليهن قائلا في نفسه : من هؤلاء ؟ أمصدر نفع أم مثار أذى ؟
وهن مسرعات نحوه يتساءلان : من هو ذاك الوحيد في الفلاة ؟ حتى إذا
وصلن إليه رأى جلياً كلاهما الآخر . فوقع نظر المسكين على ليلي مع جمع
من نساء قومها . ورأى قدماً مستوياً ممشوقاً ، فأخذ ينهض ويقع على غير
وعى . ثم فارقه الوعي ، فجرت ليلي إليه ، ووقفت على رأسه ، واسندت
رأسه إلى ركبته ، ونثرت دمعاً مخضباً بالدم من عين قد قرحها البكاء .
وصبّت عليه من دموعها ماء الورد ، فردته من نومته الطيبة إلى رقدة
المستيقظ . وأخذ كل منهما يتأمل في جمال الآخر ، وانحى بمحضره ملال
الآخر . وتحادثا في قديم مكنون الضمائر ، وأفاضا في القول بكل درمشقوب .
وفي وقت الوداع كانا بحيث لا يتمنى أحد أن يذوق امرؤ محترق القلب
مثل هذا الجحيم . وقال لها المجنون : يانور القلب وناره ! لقد مررت
بأرضي اليوم وسط حشد من الهموم وحرق الوجد ، فخبّرني كيف
أراك فيما بعد ؟

فأجابت : سأمر كذلك في وقت عودتي بهذه الأرض . وإذا ظلمت
في مقامك هذا فأتمل في رؤيتي . وسيتبدل أساك بطلعتي سروراً ، وسأتحرق
برؤيتك من ربة المحنة .

وانصرفت ليلي من المكان وبقي به قيس كالميت ، كأنما انفصلت عن
جسمه الروح وأخذت تنأى عن أنظاره حاملة معها قلبه ، وهو يتابعها
بعينين ملوئهما الحسرات . لم يكده يبقى له في روحه من رفق ، وظل يردد
القصائد في الفراق . وبموجب الوعد الذي سمعه منها لم يتحرك من مكانه .
وفي حيرة عشقه بأسرة قلبه لم يجلس ، بل ظل منتصباً كالشجرة . فكانت
الطير تجثم على رأسه بعض الوقت ، ويظل هو ثابتاً كأنه شجرة أحكيم

في الأرض أصلها . واسترسلت شعوره متهدلة متشابكة كأنها الأغصان .
وظل على هذه الحال عهداً ، فاتخذ طائر من رأسه عشاً ، وبدأ شعره متهدلاً
كأنه فوق تمثال جسده نقاب أسود كالملك ، مرصع بجواهر البيض . وفسق
البيض عن صغار تطير ، تغرد بألحان العشق . ومر به حيناً على هذه الحال ،
فعادت ليلي في طريقها إلى ديارها ، ونزلت في ذلك المنزل المبارك وحطت
فيه رحلها . وقال كل امرئ من قومها ناشداً في النوم راحته من مشقة
الرحلة . ونهضت هي في الظهيرة كأنها الشمس مضيئة الحيا . وانتعلت في قدميها
الريقتين أديماً محلي بالذهب . وبدت في ثياب من الخز الأزرق المحلي بأوسمة
يمنية . وخرجت في زينتها بوجه كالجنة ، يتجلى فيه أمل كل أمل ، وقدر
أهيف ممشوق كالسروة يجذب القلوب ، وتهادت كالجلجلة حتى وقفت على
رأس المجنون ، فوجدته ولهاً قد خرج من نطاق العقل ، ولم تبق منه فيه
ذرة ؛ واستغرق في العشق من رأسه حتى القدم ؛ عيناه إلى الأرض ،
يلتمسان كالأنجم المبهوتة التي أخذت تتوارى في ضوء الشمس . وطالما دَعَتْهُ
الهيئنة بصوتها فلم يعد إلى وعيه . فرددت نداءها له بصوت مرتفع قائلة :
يامن ديدنه الوفاء ، انظر إلى من جبل على وفائك .

فأجابها قائلاً : من أنت ؟ ومن أين ؟ عبثاً ما قدِمْتُ إلى .

فقالت له : أنا مرادك ، وأمل فؤادك ، وبهاء روحك ، أنا ليلي ، من
أنت بها ثمل ، وأنت هنا أسير قيد غرامها .

فأجابها : إليك عني ! فقد أشعل عشقك اليوم في جوانحي ناراً تلتهم
أرجاء الأرض ، فامسحت من نظري مادة الصورة . ولن أتصيد بعد
رؤية الصورة . فعشقي سفينة سبحت في موج الدماء ، ثم نَفَتَ عنها
العاشق والمعشوق . وفي أول العهد بالعشق ، حين تأخذ سورة جذبة

العشق بنفس العاشق ، رغبةً في أن يتجه بطبعه إلى القضاء على ميوله ، يولّى وجهه شطر الحبيب ، ناشداً في رضاه عوضاً عن العالم ، فإذا اشتدت به جذبة العشق ، برأ صدره من كل وسواس ، ليسقط في موج يحيط العشق ، ويفقد وعيه على تلاطم أمواج العشق . ثم يشدُّ الرحالَ كلا العاشقين عن الآخر ، فبعد أن كانت أنظار كل منهما خالصة إلى صاحبه بعض الوقت ، إذا أنظاره تنصرف عنه ، متحررة من معنى الذات والغير ، سالمة من صراع الشائبة ، لتبقى والعشق إلى القيامة ^(١) .

وعلى سماع هذه الكلمات فرغ فؤاد ليلى من الصبر والقرار ، وعلمت عن يقين حاله ، وجلست تنشج بكاء قائلة : « والمن أسلم عن يد دينه ولبه لوقوعه في شرك حبيباً !! وأشاح بوجهه عن مبنى الأمل ، وجدّ في إثر دائم البلاء فوقع فيه صريعاً ، إذ لم يحظ من مائدتي بنوال . وهيهات أن أجالسه مرة أخرى ، أو أن أحظى في لقاء برؤية جماله بعد الفراق . »

وفرغت من قولها فعادت أدراجها في الطريق ، وأقامت مأتم الفراق . وانصرفت وملء صدرها الآلام والآهات ، تقول وعيناها تهميان بالدموع : واحسرتا من دهر طاغية ، مورد عيشه رنق لا يطيب ، وقدح شرابه مُتَرَع بالسم ، يتبدى في مظهر القهر لطفه . كنا حبيبين طابت بالصدقة نفوسنا ، بعيدين من هموم الزمان ؛ يدور الفلك بما نشتهي ، ويناولنا الساقى كأس الطرب : فسقطنا صريعين على يد اللثام ، وافترق كل منا عن صاحبه . فهو

(١) يتحدث المجنون هنا عن العشق الإنساني حين يبدأ طاهراً فينتجه الحب إلى التضحية والفداء في سبيل حبيبه ، ثم لا يلبث أن يتذكر الله مبدع هذا الجمال وهو مصدر كل جمال ، فيشيخ بوجهه عن المخلوق إلى الخالق ، وينصرف بكيته عن طريق العشق الإنساني إلى العشق الأزلي . انظر فصل ٤٨ من هذه القصة ، ثم انظر الفصل الثاني من الباب الثالث من كتابي : الحب العذري وحب المتصوفة .

على شفا الموت في النأى منى ، وأنا في البعاد منه كالشجرة هز الا . فهو مولد
وجبه شطر وادى العدم ، وأنا سائرة إلى مضيق الآسى . وهو بدونى مشرف
على الهلاك ، صريع فى وحل الدم من دموعه . وأنا بدونه فى سبيل الزول ،
لا أبحث بدونه عن خيال للجمال . واليوم قطعتُ منه الأمل ، ووطنت قلبي
على هجره إلى الأبد . قد ذهب من كان له وصالى ، وآن للقلب أن تبلغ
به مُزَقّ الجوى مداها . فلا رأى إنسان ما قاسينا من حرقة ، ولا عانى
ما تصاعد من مصباح قلوبنا المحترقين من دخان .

هكذا قالت ، وشدت رحلها محطمة القلب ، ورحل المجنون كذلك
من موطن آلامه إلى موطن آخر . فحين انتهى من وعد حبيبته رحل بعبء
همومه من تلك الأرض ، ودأب على حياته التى ألفها من قبل فى صحبة
الوعول والظباء .

(٤٦)

بدوى في زيارة المجنون

من نصب المحفة لعروس هذا السر هكذا حداها بأنغامه قائلاً :

كان في ديار العرب بدوى على حظ من العقل ، رقيق الحاشية ، طاهر الذيل في ساحة العشق ، ساحر البيان في طرائف نظمه ، بهيج عذب صوته الأشواق ، ويبلغ إلى أعماق القلوب من ذوى الأذواق . سمع هذا البدوى بقصة المجنون ، وبصيته في نظم الغزل كالدرالمكنون ، فاجتذب الشوق إليه عنان روحه ، فركب ناقة عدامة كالريح ، وقطع الطريق ، وجاب السهل حتى وصل كالريح إلى قوم بنى عامر ، وتحادث معهم مستخبراً عن آثار المجنون ؛ فقالوا له : إنه معتزل للخلق ، قد أنس بوحوش الصحراء فصار مثلها وحشى الطبع ، وغنى بالأئس بها عن الأئس ، وقد استراح إلى صحبة الوعول والظباء ، فهيات أن يأنس إلى أهل القبيلة .

وسمع البدوى ذلك الكلام ، فلوى عن العامرين عنانه ، وشمر عن ساعد الجد في خوض الأعاصير وقطع الجبال والسهول ، واجتياز النجاد والوهاد ، وكم قاسى من خوف مخاتلة الوحوش ؛ وإذا به يرى سرباً من الظباء ، وبينها قيس كالراعى ، منتصب القامة دون انحناء ، كالألف المجردة ؛ وهو أسود كالألف من أثر سموم الضحى . وهو يسير وسط الظباء لا يستره إلا بضعة أعواد من العشب من الأمام ومن الخلف . ومن رأسه يتهدل شعره الفاحم على صدره كأنه شعاره الأسود ، وهو من ضعفه وسواد لونه نحيل كأنه شمرة بين شمره الفاحم .

ورآه البدوى على تلك الحال فأقبل عليه محيياً بالسلام . وحنأ ظهره للسلام ، فذعرت أسراب الظباء وفرت على تحيته . فقلاه المجنون ورفع ليرميه حجراً ، وشن عليه حرباً لا صلاح فيها . وقال له : لِمَ تكلمت أيها الغر ؟ ولم تجاوزت في طريقك حدك ؟ قد أذعرت منى أصدقائى ، وجعلتهم يفلتون من شبكة وفائى . فإياك وهذا الهوس ، وامض لشأنك ودعنى وشأنى . فأنت أسير نفسك ، وقد تحررت أنا منها ، وأنت مستريح إلى طبعك ، وقد تخلصت أنا منه . وأنت فى طرب العرس ، وأنا فى ماتم ، فكيف تتفق ؟

فلم يجد سبيلاً إلى صحبته بجديته ، فبدأ يردد عليه من آلامه ، منشداً له أنواع الألحان من عال ومنخفض ، فوفر له حظاً من غذاء الروح . وطاب خاطر قيس على سماعه إياه . ولم يلو عنانه من صحبته . وتعلق كل منهما بالآخر ، وتوافقاً كاللبن والشهد ، وأخذوا يتساجلان الأشعار والغزل ، وكم قرأ عليه المجنون من رسائل أشجانه ، ونثر مئات من عقد حواهرة . وصار البدوى صدفاً لجوهره ، وأصبح كله أذنأ ، ولا شئ مع الأذن غير عين الفطنة . وكل ما وصل إلى أذنه من دُرِّ نظمته هو فى سلك الحفظ . وهكذا كان عمله من الصباح حتى الليل ، وكان يجهد ليلاً فى ترتيب هذه الآيات . فكان فى النهار يتصيد منه ما يتاح له ، ويمضى الليل ساهداً يكرر ما حصله لينظمه فى سلك الحفظ . ولكن ما لبثت أن خلت راحلته بعد بضعة أيام من الماء والزاد ، فاضطر لوداع تلك البقعة ، قاطعاً أواصر الصحبة ، وفى خاطره كثير من القصائد ، كل بيت منها يستدر بتلاوته الدمع من قلب سامعه .

(٤٧)

موت المجنون

مُسَطَّر عنوان رسالة الفراق ، هكذا جاد بفيض قلبه قائلاً :

إن ذلك البدوى الذى ألف النجاد والوهاد ، وكان قدوة فى بكاء الاطلال والدمن ، بعد أن مر عليه حين فى دياره مشغولاً بأمره وأعباء عيشه ، راجع قلبه هوى لرؤية المجنون ، فخرج من منزله على راحلته السريعة العدو ، ومر أولاً بالعامريين ، مستخبراً من كل امرئ عما نى إليه من أخبار المجنون فقالوا له : منذ قرابة أسبوعين وقلب هذه القبيلة مصاب من أجله ، فلم ير أحده له أثراً ، ولم يسمع عنه خبراً . وعسى أن يسفر انقطاع الأخبار عن خير إن شاء الله .

فنهض الأعرابي مسرعاً ، وتوجه من مساكنهم شطر الصحراء ، ولم يَدْعُ جبلاً أو سهلاً إلا مر عليه مر الريح . وقطع الأرض شبراً شبراً ينقب عن ذلك الصديق الكريم . وبعد بحث استغرق يومين أو ثلاثة كان البدوى يسير فى طريقه يائساً ، وإذا هو بقطعان من الوحوش دون الجبل . فأسرع بالذهاب صوبها ، فرأى فى وسطبجها المجنون ، مع ظبي ناصع البياض ، شبيهه ليلي عيناً وجيداً ، وقد تعانقا فى حفيرة ، ورقدا رقدة أعوزتها الرعاية هى رقدة الموت ، على وسادة من الأرض وسرير من الشوك . وكان قيس قد أسلم الروح من حرقة الفراق ، ورأى ضجيعه فى الحفرة ما حل به فمات وفاء له . وحوله حلقة من الحيوان قد كسرت غصن الطرب . فمن صدر الظبي تسترسل الآهات ، ومن عيون الوعلة ينصب الدمع ، ومزق

الشعلب فروته . ونثر بمخلبه على رأسه تراب الآسى . وأخذت الذئاب
تمزق من هول المصيبة وجه الأرض بأظفارها . ووقفت حمر الوحش
في دماء دموعها بما دهاها بعد أن كانت آمنة في كنفه .

ولما رأى البدوى تلك الواقعة ، وأنها خراب في ركن حياته ، استرجع ،
وأسال من أهذاب جفونه الدموع . وأخذ يئن وفاء ، ومرغ وجهه على
أقدام المجنون وهو في صراع مع أشجانته . ثم ألقى نظرة حوله ، فرأى خلف
ظهره هذه العبارات مخطوطة بإصبعه على الرمال :

واحسرتا أن مت بجوى العشق ، فلم تَسَلْم على سرير الموت روحى ،
وغدت شمس الزمان برداً على أعضائى . ولم أنل من أحد في هذا العالم
مرحمة . وقد قصمت مصابرة الليالى ظهري ، وقضت على الأيام بسيف
الهجر . ولا أحد مثلى مقتولا بلا دية ، ومحروماً من كل تعزية . فلا على
رأسى بكى صديق ، ولا غَسِيل من الغبار وجهى . ولم يحمل لى امرؤ
من حبيبي السلام ، ولم يُنْه إلى منه رسالة . وقد أسلمت نفسى عن يد
إلى طبيب الفلك ، فلم يداونى فى رفق . بل أفرغ قدح شرابى من الماء ،
وأبدلنيها برشح دم القلب . وقد قرح كبدى تفكبرى فى غدئى ، ففى كل
غَدِى نى مزقة فى الكبد . ولم يمان أحد من هم غده ما عانيت ، ولم يمت
أحد فى مثل حظى . ويضيق قلبى بقبة الفلك كأنها حوله زجاجة ،
فتحطمت بها زجاجة حياتى على صخرة القدر . وسيلبقى من تلك الزجاجة
حتى الحشر ما يكون وقعه على الأفتدة السكيمة شديداً كلدغة الحمة .

وقرأ الأعرابى هذه القصيدة ، فرُوع قلبه واتقد بنار الآسى . وكان
معنى كل بيت كالزيت يقع على نار صدره ، وأطلق من جوى قلبه صيحات .

وامتطى راحته العالية السوق ، وسار بها حتى ألقى ظل رحله في بني عامر ؛
ولكنه لم يُلْتَقَ في ديارهم ظلاً ، بل شعلا من نار اتقدت بها أرواحهم
وقلوبهم ، فإنه بذلك الخبر أورى نارا ذات ألسنة أحرقت عالمهم . ومزق
أهل الحى جميعاً على سماع الخبر ثيابهم ، ورموا بعمائمهم إلى الأرض ،
وقطعوا الشعور وخذشوا الوجوه . وماذا أقول عن الأب والأم ؟
كل ما أقول قاصر عن وصف حالهم . لقد خرج أبوه المسكين عن وعيه ،
وارفض جسمه بفيض دم كبده . وعرت روح الأم من ذاك المصاب
حرقة . وكأنما أُلْقِيَتْ نار على كل أخ من إخوته . وبدا أهل الحى وقد
أعيت بهم الحيلة على ما هم عليه من صدق الدخيلة . وساروا إلى ما دون
قمة الجبل متجهين شطر المجنون ، وفي صدورهم من الهم آلاف الجبال .
فالقلوب مليئة بالأسى والشجن ، والعيون مليئة بدموع من الدم . ورأوه
ووقعوا على مرآة فريسة الأحزان ، وأطلقوا صيحات الأشجان .
وسلك كل منهم طريقاً في حداده ، وسطر على قلبه معنى لآسى فقده ، فمنهم
من عانى حسرة على شبابه ، ومنهم من صاح أسياناً على عجزه وحرمانه ؛
وقام منهم من ذكر القوم بضلال الحيلة في طبه ، ووفى آخر القول
في سوء حظه ، وتحدث بعضهم عن طبعه الفياض بالطرائف ، وتحدث
آخرون عن نظمه الذى يسمو بالروح . ومنهم من تلا حديثه الطاهر ،
ومنهم من قص مأساته الأليمة . وظلت أمه تلتحب من وقع المصاب ،
وتلصق وجهها بمحياه الشاحب . وكان أبوه يصب من دمع عينيه دما يختلط
بثرى قدمه . ولما سكن جليلهم وصياحهم أنزلوا المجنون في مغيب نعشه
كالقمر ، ووضعوا بجانبه الطبشى الذى قضى معه وفاء له . وحمل العامريون

تبعشه إجلالا له على الأعناق والأكتاف متوجهين إلى محلتهم . وكانوا
يتركون في كل خطوة خَطْوَهَا مائة عين ماء من فيض عيونهم ، وكلما
نقلوا به خطوهم كانوا يرسلون مئات الصيحات ، وخلفو وراءهم في كل ميل
قطعوه نهراً آخر كدِجَلَة ، ونيلاً بعد نيل . والوحوش على أثرهم تحشو
الثرى على الروس ، وتمشى الهوينا مطلقاً أنواع صيحاتها بأنغام الأسى ،
وظلوا كذلك طوال الطريق حتى وصلوا . فغسله الباكون بفيض عيونهم ،
وخضبوا بدم دموعهم وجهه ، لأنه طلّ دمه فقتل بسيف العشق . ثم
حفروا له في باطن الثرى حفرة ، وغيّبوا ذلك القلب الطاهر ، فخلص
بذلك من الهم صدره ، وملئوا باطن الأرض بكبره . ورقد معه دون
قدميه ذلك الظبي الذي قضى في هواه . وأوى المجنون إلى منزل لا عيد فيه ،
في صحبة لا ثقة به من الظبي والقبر . ومنذ نفص المحبون أذيا لهم من ترابه
اضحى مقامه مزاراً لكل بائس مجروح من جور الدهر ، يصب فوق قبره
درر الدمع ، وتقصده الوحوش تطلب لها قراراً وسكناً ، وتُسَكِّحُ
الظباءُ سواد عيونها النجل بغبار ضريحه ، وتسترسل في تقبيل حافة
الضريح ، حتى يتقوس ظهرها مثل القبر . وقد نبت العشب الأخضر
في ثرى القبر المرتوى من دموع الظباء ، ورفّت في حواشيه الشقائق .
وفي ضوء ذاك المزار المليء بالنور تنأى الوحوش عن طباعها السوء . فقد
أزال الثعلب بذيلة غبار الحيلة من طريقه ، وبدأ الأسد وكأنه يخاف
الذئب ، إذ نفي عنه كل أثر للكبرياء .

نعم إن العاشق العف الطاهر الدخيلة ليس عشقه من عالم المجاز ، فترابه
ترياق مجرب ، وعشقه الطاهر إكسير الوجود ، ينتزع الزيف من زائفي

القلوب ، ويُصَيِّر نحاس قلوبهم ذهباً خالصاً . فقد صار المجنون بعد أن
توارى في الثرى كنز كرم لجميع الناس . فكل من وقع فريسة الأسي
والآلم مدَّ يده إلى أعتاب ذلك الكنز ، فأصاب من معدن الكرم
مراده ، بل وجد مائة مراد فوق مراده . فحظيرته روضة الروح ، وذخيرته
رضوانها . ولذا فوجوه الخلق جميعاً إلى حظيرته ، وعيونهم على ذخيرته .
الاطوبى للقصاص إذ يؤمن تلك الحظيرة ، وطوبى للنفوس بتلك
الذخيرة .

(٤٨)

المجنون وجد طريق الحقيقة (١)

حذار أن تظن أن المجنون قد فُتِنَ بحسن المجاز (٢) . فعلى الرغم من أنه صبا أولا لنيل جرعة من جام ليلي حين وقع ثملاً بحبها ، فقد رمى آخرأ بالجام من يده فتحطم . فَتَمَّامَةُ إِنَّمَا كَانَ مِنَ الْخَمْرِ (٣) لا من الجام . إذ أنه

(١) قد أحب المجنون ليلي حباً صوفياً في قصة الجامي ، لأنه هام بها أولا وصبا إليها ، ولسكنه ارتقى من الحب الجسدي إلى الحب الروحي ، فنقذ من وراء جمال الجسد إلى ما يدل عليه ذلك الجمال من معان روحية ، وأسمى هذه المعاني دلالاته على جمال مصدره واهب كل جمال ، وهو وحده أهل لأن يحب لأنه ذو الجمال الذي يجبل عن السكيف ، وما جمال المخلوقات إلا دليل على جماله ، يهتدى به من سمى أرواحهم في سلوك طريق الحقيقة . وحين انتقل المجنون من مرحلة فتنته بجمال ليلي إلى تلك المرحلة الروحية السامية كان قد برىء من الحب الإنساني ، ولم تعد ليلي في عينيه شيئاً ذا بال . (انظر فصل ٥ ، من هذه القصة) . ولسكنها ظلت رمزاً مدلوله الجمال الخالد ، وبقيت لذلك طريقه إلى الوجد ، فكان ينطق باسمها وقصده الذات الإلهية (كشعراء الصوفية انظر ديبوان بن الفارض مثلاً) وقد مر المجنون في عشقه بالمراحل التي يجتازها كل محب صوفي حين ينتقل من حب الجمال الفاني إلى الهيام بالجمال الخالد . وقد تأثر الصوفية من المسلمين في هذه النظرة إلى الحب بأراء أفلاطون وأفلوطين في الجمال ، انظر الفصل الثاني من الباب الثالث من كتابي : (الحب العذري وحب المتصوفة) .

(٢) حسن المجاز : الحسن الحسي في هذا العالم لأنه وسيلة يجوز بها العاقل الحكيم إلى حسن الحقيقة ، أي يهتدى بهذا الحسن إلى معناه الأسمى كما سبق أن شرحنا . لأن جمال المخلوقات دليل على جمال ذي الجلال : يقول أحد شعراء الصوفية :

جمالك في كل الخفائق سافر وليس له إلا جمالك سائر
تجليت للا كوان خلف ستورها فنمت بما تحفى عليه السرائر

(أحمد السكشخانوى النقشبندى : جامع الأصول طبعة القاهرة ١٣٣١ هـ من ٥٧) .

(٣) الخمر رمز للوجد ، وكانت ليلي سبباً لهذا الوجد الصوفي الذي يسكر فيه المحب لظفره بلذة الحقيقة ، والسكر لا يكون سببه إلا المكاشفة بنعت الجمال لأنه طرب الروح وهيام القلب : (المرجع السابق من ١٦٣) .

هرب في عقبى أمره من الجاه ، فتفتحت في بستان سرّ من أزهار المجاز أزهار الحقيقة . فالعين التي انبجست تهرّر من شق حجر قد صارت بحر أو غطت الحجر . فكانت ليلي طلبته في هذا الجيشان ، ولكن توارى وجهها عن قصد العاشق . وكان يحلو في فمه تردد ذلك الاسم ، ولكنه كان يرمي من نطقه إلى مقصود آخر . فالعاشق الذي يضنّي من هيامه بحبيبه يقول : « القمر » وقصده وجه الحبيب .

يحكى أن صوفيا نقي السريرة رفع عنه الحجاب في نومه ، فظهر له المجنون بوجهه ، على حقيقته ظهورا لا لبس فيه ، فقال له الصوفي : يا من ظلمات على حال يأس وهلاك ، أغنى بالأمك في مجاز الفتنة ثلاثين عاما ، حينما نازلك الحمام ، ماذا فعل بك معشوق الأزل ؟ .

فأجاب المجنون : « قد دعاني إلى حظيرته ، وأجلسني في صدر سرير قربته ، وقال لي : أيها الجسور في ميدان العشق ، ألم تستح من أنك في تلك الدار كنت تحمسي الراح من كأس ليلي ، وكنت تناديننا باسم ليلي ؟ ولم يحجر عليّ سوى هذا العتاب ، عند ما فتح لي باب الخطاب » .

أي جامي ! تأمل في الخليفة ، فكل ذرة منها في عيون أهل الحقيقة جام مباركة مترعة من نبع الأزل^(١) ، سطر عليها من كل جوانبها اسم . وذلك

(١) أي أن الجمال في كل المخلوقات دليل على جمال مصدره ، فهي مظاهر مقتضية لمراتب وصفات غير متناهية ، كما قال أحد شعراء الصوفية :

لأنقل دارها بشرق نجد كل نجد للعامة دار
وله منزل على كل ماء وعلى كل دمنة آثار

(أحمد الكمشخانو : جامع الأصول ص ٥٨) .

الجام ماهو؟ هو جام الباقي . وذلك الاسم ماهو؟ هو اسم الساقى . فمن الجام
انشد الراحة بخمره ، ومن الاسم تطلّع إلى صاحب الاسم ، منزلها إياه
عن السمات ؛ وبالسكّر غبّ بنفسك عن هذا العالم ، حتى تتحرر من وجودك
الخاص ، ومن ظلمة الزهو بنفسك ، فتصل إلى مكانة لا سبيل إلى تجاوزها ،
ولا خبر عنها إلا بانقطاع أخبارها — وقد حدهتُك عن عالم
لا معالم له ، وأخبرتُك بما يدل عليه ، وعليك أنت أن تدرك .

نَعَى المجنون إلى ليلي

(٤٩)

مَسَّطَرَعُونَ هذه الجريدة هكذا خَطَّ في خاتمتها قائلاً :

حين فرغ ذلك الأعرابي الرزين من دفن صديقه المجنون امتطى ناقة
جَمَزَى كالغزال عدواً ، وتوجه برحله نحو ديار حبيبته ، فوصل إليها
وقلبه وروحه نهب الأسي ، وأخذ يسأل منزلاً منزلاً ، ويدور في الحى منقباً
عن ليلي فريدة دهرها ، حتى وجد طريقه لخيمتها ، فرآها دون الخيمة كالبدن ،
وليسَتْ بدراً بل هي شمس تضيء العالم . وليست بشمس بل هي نار تحرق
هياماً بها قلوب العالم . وليكنها مع ذلك كالبدن جمالاً ، والمشتري زينة ،
والخور شهباً ، والملائكة شمائل . وعرفها الأعرابي من بعيد ، وليكنه
تظاهر بأنه لم يعرفها . وسألها قائلاً : أيتها الغانية الكريمة ، ومن أنتِ
هنا مقيمة ، ليلي ذات الطلعة كبدر التمام ، أين مأواها والمقام ؟

فأجابته : « أنا هي » وما كادت تتم إجابتها حتى أشاحت بوجهها
وعيناها تهيمان بالدموع . ثم قالت : إن قلبي — وهو مأوى حبه — لم يلبثني
قط بسوى الحق ، وهو يحدثني في كل لحظة قائلاً : إن ذلك القعيد بالأعراف
الممزق الأردان ، الهائم من أجلك في السهول ، والجوَّاب في سبيلك
للجبال والوديان ، قد قضى من محنة فرقتك ، وأسلم الروح وحيداً غريباً .
فوا أسفاً لما قاسى من حرمان وعزلة وغربة !!

فصاح الأعرابي باكياً : « يا من تراب أقدامها للسماء قر ، والله لقد

حدثك قلبك حقاً ، وأصاب فيما نَقَبَ به لك جوهر هذا السر . قد قضى المجنون مسكيناً بما حملته من شجن ، ولم يقوَ على الحياة في هجر . واحتمس شربة الأجل على ذكراك محتصناً غزالاً . ولم يقف على رأسه سوى قطعان الحيوان ، وليس من أسى أشد من تلك الوحدة . وقد وصلت أنا إليه ووقفتُ على رأسه ميتاً ، ورأيتُه وحيداً غريباً . فذهبت في نفس اليوم محترق الفؤاد إلى قبيلته . وسلكنا خاشعين في طريق وفائه ، وأنزلناه مكانه من القبر . وتوجهت إليك من تلك الأرض وعلى جبينى من غبار اللحد .

وعلى سماع هذا الخبر وضعت ليلي رأسها في موطئ القدم . وسقطت صريعة في هاطل من الدموع ، فكأنها هوت برأسها في عين ماء ، قد ملئت الحياة وسُئمت البقاء . ثم فقدت الوعي طويلاً . وحين عادت إلى نفسها أخذ تردد طرفة هذا اللحن : واأسفاه أن ولى أمل الروح ، وذهبت السكينة عن قلبي المهض ١١ وقد كنتُ جسماً روحه قيس ، فكيف لي بالعيش بلا روح ؟ وما قد دق لروحي طبل الرحيل ، وما ندى مقفية على أثر روحي . وحين أقضى نحيي غارقة في البكاء بعيدة عنه ، وأناى بجاني عن شئون هذا العالم ، ليسكن مرقدى قريباً منه حتى أضع رأسى على كف قدميه ، مُطالِقة من قلبي الحسرات على فوت حظه ، وسأطبع مئات القبلات على تراب هذه القدم . وحين يبلى جسمى المهض جلدُه ونَحْ عظامه ، ويصبح جسدى كاليراعة في ذلك المسكن ، به من سهام البلاء آلاف الثقوب ، حينذاك سيكون كل نَقَب منها فماً يصبح أسى وشجنا محدثاً قيساً عن عميق الأسرار ، شارحاً له ماضى الكروب . وكلما ارتفع من

عظامي صوت أجاب هو عليه بنفس اللحن . ونبق معاً نتناجى في غير
مغرم حتى القيامة . ويوم يُصَبّ ماء الحياة على أجسام الموتي فينهضون
من قبورهم سيفتقد كل منا الآخر، وسأقوم من القبر يدي في يده، وسنكون
معاً في المواقف حيث يقف كل امرئ على ما كتب له . وسنقتسم معاً المصير،
أئما في جنة وأئما في نار، وننعم معاً فإرغى الببال .

هكذا قالت وانصرفت إلى خيمتها جاعلة منها مأوى الحزن ،
وظلت حزينة ما بقيت في هذا العالم ، فكانت رفيق المحنة والأشجان . وأى
امرئ لم يعثره مثل ما عراها من الأسى بفقد الأحباب ؟ فيارب لا كان
في مصائب الدهر ما له من سنة في فجيعتنا بفراق الأبد !!

(٥٠)

ليلى تَضُنِّي وَتَسْتَعَصِي عَلَى نَصِيحِ صَدِيقَاتِهَا

أضحت ليلى كشقائق النعمان ، غريقة في دم الخرقه والأشجان ، قد ضاقت
على قلبها الأرض بما رُحِبَتْ ، ورَمَتْ بِكَأْسِ عَيْشِهَا عَلَى حَجَرِ الْأَسَى .
وفقدت في صراعها مع الآلام لذة المطعم وراحة المنام . وذهب عن بدرها
المشرق الضوء ، وانفَضَّ عن وَرْدَتِهَا الغضة ماءُ الرونق ؛ وصار قلبها كبرعمة
مضرَّجه بدم الأحزان ، وكانت دموعُها في لون شقائق النعمان . ثم غَزَتْ
جسمها أخيراً الحُمَى ، فَتَهَبَّتْ وردها وياسمينها . واستهدفت الحُمَى روحها ،
فلم تترك في خدودها لون عافية ؛ بل رَمَتْهَا بِسَهْمٍ مِنْ قَوْسِهَا ، فأحالت
حمره وجنتيها اصفراراً ، فغدا دينار جمالها درهما نقشسه آهات الألم .
وصنعت بُشُورُ الحُمَى على شفقتها خالاً ، واتسع عن ساقها الخناخال . وعلى
وسادتها بلغت بها الأنان المدي ، وغدا سريرها كموضع جراح ، وهي فوقه
نخيلة الجسم واهنة كالشجرة الحُمة وسدى . ونمت في حديقة جسمها زهرة
الأسى الزرقاء . وذهب عن قدَّها رونق السَّرو ، وعن صبغتها بهاء
الأرجوان ، وآد قلبها عبُّ الأسى ، فقوَّس صنوبر قدَّها . وعلمت
صديقاتها — وهن موضع سرها ونجواها — بأنها وقعت مريضة على
سرير الأشجان عقب موت ذلك الغريب الثريد فأولن ما وسعهن أن
يجدن لها دواء في نصائحهن ، فقلن لها جميعاً في حادب : يا شجرة الورد
في حديقة الأمانى ، ويا سروة روض الحياة ، ويا ديباجة سجل الجمال ،
وعنوان صحيفة الحسن ، ومن مُجِبَّتِ في أمرك طريق الوفاء ، وكنت

راسخة القدم في 'خلق الحب والولاء'. في ذلك العهد الذي كان يعيش فيه المجنون، كان مقامك في بيت الهموم لا تبرحينه، وكان هو سالكا بروحه لك طريق الوفاء؛ لم يرض بك بديلا. وما أطيّب ما كان منه لك من وفاء، ومن ثبوت قدمه على حبك. ولهذا يلد الحبُّ الحبَّ، ومن ديدن الوفاء أن يزيد جزاؤه وفاء. ولكن اليوم، وقد شدَّ رحله من هذه الدار وولى وجهه شطر العالم الآخر، أي جدوى من هذا الحب والوفاء؟ وماذا ترُدُّ عليك هذه المحنة التي تعانين؟ فلا تعيشي بالحداد مع الميت، فليس المرء يحى على الحداد والنحيب. وأُخِلي بالك من الوسواس، وأفرغي قلبك من هذا الشجن. ولا تُذري على الريح شبابك، ولا تزهدي في صفاء العيش.

فلما سمعتُ حديثهن نظوت إليهن وقالت: أيتها الغافلات عما بي من نار وعن حرقة قلبي ومآتي بالآثي، لا تحيرقن على الدوام قلبي بهذا الشمع المشتموم الذي تشعلنه، وأنا المتقدمة الجوانح من فراق الحبيب، فماذا انتفاعي بحرقه أخرى؟ فقد كنتُ أحييا على ديج قيس حتى سمعت قصة موته فضيقتُ بالحياة ذرعاً، وصرتُ غريبة عن سعادة الشباب. وكان بستان عمري به مورقاً، واليوم يطالغني بريحه الموت. فلا خلاص لي من الكرب الذي أشعل الجوانح بسوى الموت. فعسى الوصال الذي قبض يده عنا في مضيق هذا العالم يبسط يده لنا في العالم الآخر، وما أطيّب النجاة من الهموم لأحظى بالحبيب خالصة له، وأنعم وإياه بالسعادة في عيش السرور الخالد.

(٥١)

وفاة ليلى

أقبل الخريف برؤحه ، فخلعت الأشجار على مهب ريحه ثيابها ؛
وتعسرت من خيلعها الخضر ، وفارقها رونق الربيع وبهاء أوراقه . وصارت
حديقة الورد زهرها وعشبهافي لون العنب حين يخرج من المعصرة ، وتجلت
آلاف الألوان عرضها صباغ الفلك من مصدر واحد . ورمى طاووس الشجر
بثامه ، وطرح سلطان المروج درع أوراقه . وأصبحت الأشجار بما نالها
من القبة الزرقاء قليلة الحوة ^(١) كثيرة الاصفرار . وذوى البستان على
برد الريح ، وذهبت رعشة الحمى التي انتابته بماله من رونق ؛ ودليل
ما يعانيه من سقم دوامة أوراقه على عصف الريح . وكان كل غصن من
الأغصان العارية من الورق والشمار ، ثعبان الضحاك ^(٢) فوق كتف الأشجار ؛
وبدا الرمان ضاحكا على ماتجرع من دم الآسى ، تترامى أسنانه مضرجة
بما يشبه الدم ، وظهر كالعاشقين ذا حدود صفر عليها ما يشبه الغبار من
الآلم ، وتبدى النّار نّج أمام الراقي كأنه كرات ذهب صولجائها من البلور

(١) الحوة : بالضم سواد إلى الخضرة ، والأحوى : الأسود ، والنبات الضارب إلى
السواد لشدة خضرته . وهذا هو المراد من كلمة سيهي أو سيامي في النص الفارسي .
(٢) الضحاك من ملوك الدولة الپشدادية في تاريخ إيران الأسطوري وقدهم كإيران ألف
سنة ، ويصوره مؤرخو العرب وكذلك الفردوسي في شكل إنسان قد نبت على كل كتف من
كتفيه ثعبان ، وهذان الثعبانان لا يتغذيان إلا بأفخاخ الناس ، انظر مثلا : تاريخ الطبری الجزء
الأول من ٢٢٦ من طبعه de Goje ، وانظر :

Christensen : L'Iran Sous Les Sassanides, p. 502—503.

الأخضر . والعُنَّاب مطبل من بين الأوراق الصفراء كالدموع على وجه العاشقين .

وصارت غصون الكرم ذهبية اللون تبدو حيناً منها العناقيد دراً خالصاً على سواعد حور ، وأحياناً تتدلى تلك العناقيد من عرائش الكرم زنجية نقية اللون . وقد تدنو قوافها للتعجيل كأنها أصابع العروس أول عهد لها بالعرس . وجلست الكمثرى على غصنها ، منتحية جانباً بين الأعواد . والفستق مستوي على سوقه ينظر في كل صوب نظرة الغيران . وخلت الحديقة من الورد والزهر ، وتبدلت بغدادها إلى كوفة ^(١) ، فاتسمت بسمي الكوفة من رضاها بالذسور والبوم ، فهي في زاوية الزوال ، كما أن العالم من الخريف مقوض الأركان . وكانت ليلي — تلك الغانية التي يغار عنها ورديات الحدود من غانيات بغداد ، وتلك الوردية ربينة المروج — طريحة على الأشواك أشواك الموت ، منهية لتسلم الروح . وأخذت تبكي وتقول لأمها : أينما الأم الحميدة ، الطاهرة الفراش العفة النقاب ، يامرهم المهد ، وصافية الحب ، وشبيهة ببلقيس في صباحة الوجه ، اعطني على لحظة بحبك وطوق جيدي بفضلك ، وضمي على وجهي وجهك الشفوق ، وانظري إلى بعين كرمك . فقد كنت من قبل — لقليل الناس وقالهم — غير عطوف على . ولم تسعى في عقد آصرتي بالحبيب حتى رمتني فرقة بالموت . لقد

(١) يتلاعب الشاعر هنا بالألفاظ على حسب اشتقاق معانيها ، فبغداد في الأصل مكونة من كلمتين باغ = حديقة ، داد = اسم رجل على أحد الأقوال وقيل غير ذلك ؛ بينما الكوفة كلمة عربية مرادفة لكوفان وكلاهما اسم المدينة المعروفة ، ومن معانيهما : الرملة الحمراء المستديرة ، أو كل رملة تحاطبها حصباء ، أو الدغل من القصب والخشب ، أو سميت المدينة كذلك باسم جبل لأنهم سهلوه وبنوا عليه ، فهي في أصل اشتقاقها تدل على أرض تصلح لسكنى البوم ، هذا والكوف بالفارسية : البوم (راجع القاموس المحيط مادة الكوفة ، والقاموس الفارسي تأليف Desmaison ، ودائرة المعارف الإسلامية ثم معجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٢٣١ - ٢٣١) .

قضى هو من غم الفراق ، وهأنذى على الأثر أسلم الروح والبدن لداعى
الآجل . فيومى بدونه مشرفٌ على ليل العدم ، والروح متهيئة للخروج من
الشفاه . وحين تشدد الروح رحلتها ستمُدين من أجل بساط المآتم . فانظري
مقامى غريقة فى دم الأشجان ، واغسلى جسمى من مسيل الأجفان ، واجعلى
كفنى من خلعة طهرى وعفتى ، وليكن فى لون ياقوت دموى . ولفنى به
وجهى الأبيض ، فى ذلك دليلُ أنى شهيدة الحب . واتخذى من نار صدرى
بجرا ، وخذى عطر طيبى من دخان كبدى المحترقة . ولست بحاجة إلى عصا
على الرأس ، فاتركينى مرفوعة الرأس بالعشق ، وانحى عن وجهى كل أمارة
لحرقة الفراق ، لتسطرى لى بذلك منال السعادة ، وتذكرى ما أستقبل من
حبيب ، فجملى موكبى ، وتوجهى لى فى سفرى شطر قبره ، وأنزلىنى جانباً
من ضريحه الطاهر . وليكن مكانى فى حفرة دون قدميه فى ثرى لحده البهيج .
واجعلى رأسى تحت كف قدمه لتكون لرأسى تاجاً ، وسأقيم على الوفاء
له حتى الحشر ، ويومذاك أنفض طيبة الخاطر من تراب قدميه .

وحين سمعت الأم رغبته ، وضعت من الأسى وجهها على وجه ابنتها
وبكت قائلة : أى بلىتى المباركة الشئال ، القاطعة عنى حبل ودادها . إذا
كنتُ لم أنزل على وفق مرادك فيما مضى ، فلا يكن فى قلبك موجدةٌ
على ، فى ذلك العهد لم يكن لى فى أمرى اختيار ، أما اليوم ولى الخيار
فسأقوم بما فيه ترغيبين .

ورأت ليلى أنها أجيبت إلى طلبتها ، فطابت بذلك نفساً ، وصحكت
كالوردة الغضة ، وتوجهت بوجهها إلى ديار حبيبها القديم ، وأسلمت فى
بسمتها روحها الغالية . ورأت أمها روحها تفيض ، فاحترقت حسرة على
شبابها . وأخذت تقتلع يديها من رأسها شعورها ، وتلطم بكفيها على خدها

وكانت تخدش وجهها بأظفارها ، وتقليم أظفارها واحداً بعد الآخر ، وتمزق
 بآهاتها صدرها ، وتقرع باب الهلاك لنفسها ، وكانت تضع يدها على قلبها ،
 ثم تضرب بقبضتها على فؤادها الحكيم . وإنما كانت تضع راحتها على قلبها
 بغية تسكين جراحه ؛ وحين كان يضيق قلبها بضربها عليه كانت تدق بالحجر
 على صدرها ، وتعلوها حتى الجهد من الضرب بالحجر فيذوب الحجر ليناً
 في يديها . وفرغت من مظاهر حرقتها وبكائها في يوم لا رأى لإنسان مثله ،
 فاشتغلت بتشجيع ابنتها ، وشرعت في الاستعداد لتجهيزها ، وزيت نعشها
 على وفق ما أبدت من رغبة . وربطوا على النعش من سعف النخيل ، بعد
 أن نزعوا عنه أوراق الخريف ، يرمزون بذلك إلى أن تلك الوردة اللطيفة
 أصيبت بآفة الخريف . فلم تتجاوز بعد ربيع حياتها حتى نفذت إلى روحها
 سهام الخريف . وكانت في نعشها كالعروس في هودجها ، وعلى أثرها
 أمها تقبل الثرى . وهى سائرة على أكتاف المحبين ، والام تتبعهم تنثر الدمع ؛
 وركبها في طريقه لوصال الحبيب ، بينما أمها مثقلة القلب بحجر الفراق .
 وخرجوا بها من قبيلتها ، غير معرجين ، في طريقهم إلى حظيرة المجنون ،
 وفروا لقبرها بجوار الحبيب ، وغيبوها في الثرى جوهرية . ونامت هاتان
 الجوهرتان النقيتان جنباً لجنب فوق سرير الثرى . وصارت روضة هذين
 القتيلين من الأشجان مزاراً للعاشقين من كل أنحاء العالم ، ألا فلتعقد عليهما
 الرحمة ، وليسكن مزارهما موئل السعادة . فقد شهدا الرحال من عالم الأحياء ،
 ونحن كذلك على الأثر . فلا يليق بامرئ في هذه الدنيا حرص الطمع ،
 ولن يخلد في هذه الدار إنسان . والدهر مسدد قوسه ، مصوب نحونا
 سهامه ، يقبض الأرواح خبط عشواء . نخير لنا — قبل أن نعاني سهم هذا
 القوس النافذ إلى القلب — أن نهزل جانباً ، لنسجن السنابل من مزرعة

هذه الحياة ، ونصنع منها زاداً لنا فيما سدد سلك من طريق النجاة ، لنظفر بحياة
الآبد بعد أن نفقد هذا الوجود . والعمى في هذا العيش الفانى برق فى سحاب
الحياة . ولا يستطيع نشر الصحف على لمح البرق ، ولا يمكن الاعتماد على
ضوءه . فانشد نور الازل والآبد ، وقتر عينا إذا ظفرت به . وهذا النور
خبيء فى طيبتك ، متألق فى مشرق قلبك . فلا تتركت صفو القلب بخيال
المادة ، ولا تسد ذلك المنفذ بأدران طيبتك . فإنك إن سدّدته ظلمت
فى ظلمة مادة جسمك من ماء وطين ، فيحال بينك وبين نورك بهذا الحجاب .
نخبرنى إذن : أى جدوى تناولها من النور ؟ يا من تتطلع إلى النور الأزل ،
أشح بوجهك عن الظلمات ؛ وخير لك أن تبقى الظلمة بعيدة عن ناظريك ،
لأنها حجاب دون النور . وما أطيب أن تكون من رأسك حتى القدم
كالذرة غارقاً فى الأضواء من شمس نفسك ، ومهما بحثت عن علامة على
ذاتك فقلها تعثر على تلك العلامة ولو بالغت فى البحث . فإن غسّلت قلبك
اليقظ بضوء الشمس وجدت نفسك كلها شمساً . وصار عودك مورقاً
كل الإبراق بعد أن كان عارياً من الورق ، وأصبحت فى مأمن من آفة
الموت . وسيلبغ قلبك مقاماً لا يموت فيه أحد سوى الموت . وتلك حياة
الخلود ، وقد دلتك على رمز لها لو تعلم .

(٥٢)

هوان شأن هذا العالم

راحة القلب من المحال ، في عالم هو مقام الزوال وموطن الحداد ، مظلم ضيق الجوانب ، وزهرة زوفاه^(١) لا لون لها ولا رائحة . ويتمزق قلب كل وردة نمت في طينته من أشواك الآسى . وكل شقيقة من شقائق النعمان في بستانه تحمل في صدرها منه حرقه الفناء . وشجر سرّوه الذى يناطح برأسه فبة الفلك يهوى صريعاً من قدميه على ربح الأجل .

والفلك مدار السنين 'مر' تَدَحْدَاداً على نفسه ثوبه الأزرق . وبالشمس المعتصمة بحصن الفلك رعشة الخوف من الزوال . والنجوم فى تلك القبة العالية فى يأس وحيرة بحرقه الاحتراق .

وقد صدّع الأركان المعقودة البناء فى هذا العالم كره الليل والنهار . وحيناً يُخْمدُ الريحُ نارَ المصباح ، وحيناً يهبُ بسموم لا تطيب . وآناً يلتصر النراب على الماء فيرد جوهره مظلماً مثله . وآناً يصير الماء سيولا عاتية فيمزق صدر الأرض مُزَقّاً كثيرة . فإذا سالتك الأيام برهة دون أن تنال منك غرضاً فمالتها تلك غير خالدة ، فهى شبكة تتبع طائر الحياة ، ثم تمزق فى لحظة الشبكة فينفصل عنها الطائر ويهرب من محبسه . فالطائر الحكيم لا يستسلم بجناحيه للشبكة ، بل يظل مشتغلاً فى حلقاتها بأمر نفسه . فيفتح لنفسه طريقاً مستسراً يصل به إلى متنزه الخلود . فإذا انتزعت عليه الشبكة من مدخلها ، وأُخِذَتْ عليه أركان طرقها ، ذهب هو كذلك من مكانه الخاص به وخلص من ضيق القفص إلى المروج ،

(١) الزوفى : زهرة زرقاء ذات رائحة .

وغيرد بأحسان العيش الخالد في منأى من مضيق الأمل والخوف^(١). أما الطائر
اللاحق الذي لم يدر ما الشبكة فإنه لا يلتقي بنظره إلى رياض الروح ، فيسد
الطريق دون ماله من خلاق ، ويعشق محبسه من الشراك ويجعل من حبة
خال الحبيبة وشراك ذوائها قيداً يرتبط منه برباط عشق خالد ، فإذا حجبت
الممشوقة وجهها دونه ، جهد في قطع طريق الفراق وحرّم وصاها ، فتجاوزت
صيحات آلامه العيوق^(٢) . ولكن ما جدوى الصيحات والانات حين
يَحْسَمُ الفراق ؟ فلا هو ظفر بالعشيق في أحضانه ، ولا كان له منها غير
الحسرات والآلام . وحين يصل من حظه إلى ذلك الوبال فالطمأنينة
عليه محال .

أى جامى ! لا تعقد صلة بإنسان ، إذ في عاقبة الأمر لا محيد من أن
تنتزع منه قلبك . وكن جليس نفسك دون الخلق ، وأنيس نفسك
في حالات الوحدة ، وعش غريباً عن هذا العالم ، وتعرّف فيه على جوهر
نفسك . ضارباً صفحاً عن الأغيار ، معانقاً لجوهر نفسك . ومن جوهر
ذاتك انشد مرآة معشوق الأزل في قلبك . وكل ما تشنّ من حرب على
غير نفسك يتحول على مرآتك صدأ . وكلما رآك الصدا على مرآتك ضاق
بك الطريق لمتعة الوصال . فاجلّ الصدا عن مرآة نفسك يفتتح لك الطريق
لحرّم الوصال . ولا ينفسح لك ذلك الطريق إلا حين تصير مرآتك مجلوة .
وكلما نأيت بمرآتك عن الأغيار أشرقت في قلبك لوامع النور ، فيتحرر
بذلك لبابك من غلاف الجسد ، وتتجرد من غشاء مادتك لتبقى والحبيب .
كلا ، بل لن تظل أنت كذلك على حالة البقاء ، لأنك ستكون مع الحبيب
مجبوباً عن نفسك .

(١) كناية عن هذا العالم .

(٢) العيوق : نجم أحمر مضيء في طرف المجرة الأيمن يتلو الثريا لا يتقدمها (القاموس

المحيط) وهي نفس الكلمة في الأصل الفارسي .

(٥٣)

نصيحة إلى الابن العزيز^(١)

أى حديث العهد بالنظر فى لوح الكونين ، ومن أنت قرّة العين وإنسانها ؛ على الرغم من أن عمرك سبعة أعوام أو ثمانية فقلبك عزوف عن الهوى . وهذا اللطف الذى جُبات عليه يجعلنى أرجو من الله أن يتيح لك عهداً تصير فيه مرفوع الرأس بحكمتك وذكاء فؤادك ، وأن يهبك من الفضل والأدب القبول ، ويُجسّبك طريق الفضول . فإننا أبجوهرك الطاهر عن كل ما لا يحمد وما لا يليق . وابدُلْ فى كسب السكّال الجهد ، واقض عمرك فى طلب الأفضل ؛ ودائرة دوّامة الطلب وسيعة ، وبحر العلوم بعيد الأغوار ، فلا تقنع بكل ما تجد ، وأسرع من الحسن إلى الأحسن . ولا تمحُ بتمهرك فى الدرس صفحات التقوى من الله ، ولا تُدخل الفلسفة فى أمر الدين ، فتكون مثل الفلاسفة نابذى الدين . أمامك الرموز السماوية^(٢) ، فلماذا تقرأ أكاذيب أهل الأرض ؟ ودونك يثرب ، فلا تكن مثل السفلة تطلب الإكسير من قبور اليونان .

وإذا كان العالم بالدين غير أحق فلن يتجاوز سور مدينة الدين ، فكما أن ناجفة المسك فى سُرة الظبية ، فكذلك فى قلب المدينة مسك الدين

(١) فى هذا الفصل ينصح الشاعر ابنه له ، ومن الطريف أن يكون من بين نصائح الجاهى لابنه ألا يقرأ الفلسفة ، وأن يكتب بالدين وكتبه ، والجاهى نفسه خير مثل لمن قرأ الفلسفة ومزجها بالدين فى كثير من آرائه كما أتيج لنا أن نشير إلى ذلك فى تعليقاتنا على هذا الكتاب ، وقد شرحنا ذلك فى الباب الثانى من كتاب : ليلى والمجنون فى الأدبين العربى والفارسى أو الحب العذرى والحب الصوفى .

(٢) لعله يقصد القرآن .

حيث شجّت تلك الناجفة ، فتَضَوّع أريجها وعم الشرق والغرب ؛ ولكن
أرباب الهوى منه في زكام مستحكم ، فشائمهم من نكته خالية . فاتخذ لك
من ساكن هذا الحرم قدوة ، واجعل رأسك في طريق الاقتدابه قدماً .
واتجه بأنظارك إلى راحلة الشرع ، فأينما تضع هي القدم فضع أنت الرأس .
وإذا سلكت هذا المنحى في الاقتداه ، فستصل بك تلك الراحلة في النهاية
إلى الغاية .

وكن يقظاً ، إذ سيصادفك في الطريق آلاف الحفر من الحشمة والجاه ؛
فلا تضل الطريق عن عمى قلب ، فتقع في بئر من تلك الآبار كعمى
القلوب . وكن يقظاً ، إذ سيرض لك قطاع طريق الخير ليجعلوا من الذهب
والفضة لك قيوداً ؛ فلا تتقيد بقيود الذهب والفضة ، ولا تفر عن السير
في الطريق . وكن يقظاً ، فكل من وقف عن السير اعترضه غول وسط
الطريق . ولا تستسلم بفكرك إلى خيال الباطل فتقصي عن الطريق .
ولا طريق سوى ما سلكه الرسول بقدم الحق حتى مقعد الصدق ؛ فتفقد
طريقه واسلكه ، وانظر إلى آثار أقدامه في الطريق وسر على أثره . ومل
بنفسك عن كل طريق ليست به آثاره ، إذ ليس بها غير هلاك النفس .
وإذا كان من طبعك قبول النصيحة ، وقع ما سقته لك من نصيحة موقع القبول .
وقد قلت ما كان يلغى أن يقال ، ونظمت في سلك الشعر ما كان على أن
أنظمه من جوهر القول . وقد فرغ من الأمر لساني ويدي ، فهيمت
وحطمت القلم .

(٥٤)

ختم الكتاب وخاتمة الخطاب

أى جامى ! مهما عانيتَ من مرارة الجهد فى اجتياز محيط الأمانى
فَسَبِّكَ هذا منالا ، إذ وصلتَ إلى الساحل السفينة ، بعد أن اجتازتْ
أمواج المعانى التى جاش بها صدرك . وهذه السفينة أكثرُ بُعْثاً من سفينة
نوح ، راحةٌ للقلب وسكينةٌ للروح . ومن كرم طبع كل جواد أن يقف
على جودى جودها . كلا ، فمن وقف دون بحر الجود فهو كمن قاد
سفينة على اليابسة ، تظل شفاهه جـدبة لا تروى ولو جاب كالفلك
البحار السبعة .

وهذه القصة شمس مشرقة من مطلع الهمة ، ومنتقاة من كتاب الدهر ؛
با كورة الثمار من حديقة الأمانى ، ورأس مال العيش الخالد ؛ وهى السحر
لسجرة الكون بياناً . وهى قصة العاشقين الواهين ، وحكاية عذبة عن حال
البائسين ، وحديث طريف لمن عى لسانهم عن البيان ، ومرهم شاف لحرقه
مفطورى القلوب ، وتسكين لآلام من حرموا القرار . وهى ماشطه الجمال
للغيد الحسان ، ودالة طبائع المحبين . وهى طائر فى فضاء حديقة الأسرار ،
يترنم بلحن حديقة الشوق ، والنفوس مصغية إلى ألحانه ، والأرواح منها
فى أريجية ونشوة . وسوق الغيد الملائكية الحدود بها رائجة ؛ وهى مثار
آهات القلوب من العاشقين القائمين بالأسحار . فأنت تشمُّ من اطائف
أمرها خاصة الربيع ، إذ تُصَيِّرُ الورد ضاحكاً طرباً ، وتستمطر الدموع
من عيون السحاب . وهى السحـر وليد القيام بالأسحار ، وهى البحر

مستودع الدرر ؛ وهى سكر عذب المذاق طازج من عصير قصبه القلم ؛
ونصف قطرة من هذا العصير المقطر من القلم بمائة قطرة من
السكر الخالص .

فأين من نظامي^(١) طائر فصاحته الحلوا الحديث ، الذى آخذ عنه عذب القول
وثمينه ، ليشرب من رشح هذه الكأس ماء الورد ، وايصير ريقه حلوا
على مذاق هذا الشهد ؟ فعلى ماله من مئات البحار ذخيرة فالماء يعاف
متى كان فى حوزة صاحبه . وقد يعاف الظامى الكوز القديم ولو كان من
ذهب خالص ، ويشرب من الجرة لأنها جديدة .

وأين خسرو^(٢) فى دار الملك الدهلوى ، وفى لطف خلقة الجبلى ،
ليحمل إلى تحفة تاجه وعرشه ، ويأتى إلى بالخراج من إقليمه ، وينثر على
مقالى جواهر من كنز خاطره الفياض بالطرف ؟

سبحان الله ! وما جدوى هذا القول ؟ ومن ذا يتكلم بمثل هذا
الكلام ؟ وعادة الخلق أن يرتفعوا بمتاعهم إلى أعلى من درجته ، فيصيح بائع
الخرز منادياً : مائتا فيروزة^(٣) بدانق ، فيسمى الخرز فيروزا ليستميل إليه
طبع العوام . وهكذا جمعت عدداً من صغار الخرز ، وافتننت فى نظمها بعضها
ببعض ، ثم صرت بائعاً لخرزى ، سالها مسلك باعة الجواهر . وكل من
يشتريها بكلمة استحسان فله جزاء الخَيْر . ومهما يكن كلامى غير سامى
القدر فإن اختياري يتجه إليه دون كل كلام . وميل الغربان إلى صغارها
أكثر من ميلها إلى صغار البغاوات . والشعر الذى يتولد من خاطر
العاقل مثل الابن . ومهما يكن الابن قبيح الصورة فهو فى عين والده
جميل الخلقة .

(١) انظر ص ٣-٤ ، ١١ من هذا الكتاب

(٢) الفيروز : حجر ثمين أزرق

وهذه القصة من صنع شبابة القلم الماضية ، وقد قامت بما يقوم به المغزل لعروس الطبع . فاكْتُتِبْ بالشبابة خطأ جميلاً ، وانسج بذلك المغزل خطوط المسك ، وسَطَّر الحروف على لوح من الانصاف ، وانسج دُرَاعَةَ المقسَّـتَرِّ على العيب . وإذا كان الشعر جميلاً وكتب بخط حسن فإنه يكتسب جمالا على جمال ، لكنه إن اكتسى من الخط بلباس غير جميل صار معيياً في نظر متتبع العيوب . فإذا لم تكن بحيث تزيد في جماله ، فاقصد في جعله غرضاً لعيب من ضل رأيهم ، فلا تفسد القلم الجميل عبثاً ، ولا تُلطِّخ به الصحائف الجميلة . وما تخطه من حرف ردىء فإما تدوِّن به كل عيوبك . فإذا كنت تعد عيوبى فقسَّـتَرِّ على عيوب نفسك . وإذا لم تبذل الجهد في جودة الخط ، فبالله إلا أَعْمَلْتَ حَادَّ ذَكَائِكَ في وضع ما تكتب من حرف في مكانه الصواب ، فالصواب خير الفضائل ، وحين تتم الكتابة قَابِلٌ ما كَتَبْتَ على نسخة صحيحة ، وإذا كنت قد فعلت في البدء خطأ فلا تكل أمر إصلاحه إلى الآخرين . وكانت نهاية هذا البناء الأشم عام تسع وثمانين وثمانمائة . وإذا وُفِّقْتَ في عدد هذه الآيات كانت ستين وثمانمائة وثلاثة آلاف . وقد استغرق عرضها من طبع خصب بأفكاره طوال أربعة أشهر تنقص قليلاً أو تزيد ، وفي بضع ساعات في كل يوم منها كان طبعي عظيم الجِد سعيد الطالع . فإذا جمعت هذه الساعات لبعضها فلن تزيد على أسبوعين أو ثلاثة . ومهما ضؤل قدر هذا الضعيف فقد انتهى من هذا النظم بحمده ورديئه . ألا فلتكن علبة الفلك درجا لجوهره ، وليبق صيته ملء الزمن ، وليطلب الصالحون لى من الله العفو في صلاة الفجر .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	١
١ - فى معنى عشق الصادقين وصدق العاشقين	٩
٢ - سبب نظم الكتاب وباعث ترتيب هذا الخطاب	١١
٣ - ذكر بعض من خرجوا من دائرة الزمان ، ودعاء بعض من حلوا فى مركز نقطة الحال	١٣
٤ - الحلقة الاولى فى قصة عشق ليلى والمجنون	١٨
٥ - غرام قيس قبل تعرفه بليلى	٢١
٦ - وقوع قيس عن اختيار فى حب ليلى	٢٤
٧ - ليلى المحب	٢٧
٨ - عاقبة	٢٩
٩ - الناقة ورضيعها	٣٣
١٠ - برهان المحبة	٣٦
١١ - عهد الوفاء	٣٩
١٢ - قبيلة قيس تكشف المكنون من حبه	٤٢
١٣ - نصيحة والدقيس له	٤٥
١٤ - نصيحة العامرين لوالدقيس بتزويجه بأخرى	٤٩
١٥ - الوشاية	٥٣
١٦ - نذر الحج	٥٧

الموضوع

الصفحة

- ١٧ — الذهاب إلى الحج بعد إجازة ليلى ٦٠
- ١٨ — منع ليلى من ملاقة المجنون ٦٣
- ١٩ — عقاب والد ليلى لما حين علم بلباقائها المجنون ٦٧
- ٢٠ — الجارة الأرملة ٦٩
- ٢١ — شكوى والد ليلى إلى الخليفة ٧٢
- ٢٢ — والد المجنون يخطب ليلى له ٧٥
- ٢٣ — رضى والد ليلى خطبة قيس ٧٩
- ٢٤ — نوفل يعد قيساً بتزويجه من ليلى ٨٣
- ٢٥ — إحصار في الصحراء ٩١
- ٢٦ — الظبية ٩٥
- ٢٧ — لقاء مع راعى ليلى ٩٩
- ٢٨ — المجنون وكثير أمام الخليفة ١٠٣
- ٢٩ — الروضة ١٠٧
- ٣٠ — دعوة الخليفة لقيس ١١٠
- ٣١ — في قافلة ليلى ١١٥
- ٣٢ — لقاء في منامك الحج ١١٨
- ٣٣ — زفاف ليلى إلى شاب من بنى ثقيف ١٢١
- ٣٤ — المجنون يعلم بزواج ليلى ١٢٦
- ٣٥ — أسى المجنون بعد زواج ليلى ١٣٠
- ٣٦ — الحمامة المطوقة ١٣٤
- ٣٧ — رسالة ليلى إلى قيس تعتذر عن زواجها ١٣٩

٣٨ —	قيس يتسلم رسالة ليلى	١٤٣
٣٩ —	رسالة المجنون إلى ليلى	١٤٨
٤٠ —	وفاة زوج ليلى	١٥١
٤١ —	بكاء المجنون على غريمه	١٥٣
٤٢ —	في طريق المجنون إلى ديار ليلى « الكلب الطريد »	١٥٦
٤٣ —	المجنون يزور ليلى متخفياً بين القطعان	١٦١
٤٤ —	المجنون مع السائلين في ضيافة ليلى	١٦٦
٤٥ —	المجنون يفقد عقله كله	١٦٩
٤٦ —	بدوي في زيارة المجنون	١٧٤
٤٧ —	موت المجنون	١٧٦
٤٨ —	المجنون وجد طريق الحقيقة	١٨١
٤٩ —	نعى المجنون إلى ليلى	١٨٤
٥٠ —	ليلى ترضى وتستعصى على نصيح صديقاتها	١٨٧
٥١ —	وفاة ليلى	١٨٩
٥٢ —	هوان شأن هذا العالم	١٩٤
٥٣ —	نصيحة إلى الابن العزيز	١٩٦
٥٤ —	ختم الكتاب وخاتمة الخطاب	١٩٨
٢٠٤	تصويب	

تصويب

وقعت في الطبع أخطاء لا تخفى على إدراك القارىء، وننبه هنا إلى ما يجب استدراكه منها :

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١	٥	لسعد الدين	لسعدى
١	١٢	عام ١٩٤٦	عام ١٤٤٦ م
٢	١	تم	أنتم
١٠	٩	هده	هذه
١٥	٢٤ هامش	المقولة	المغولية
١٦	٦	ادع	دع
١٨	٤	أفوج	أوج
١٩	٢١	الحجلان	الحجل
٢١	٢	طبلته	طبلته
٢١	٣	لوجه	لوجه
٢٤ سقط رقم الفصل وهو — ٧ — في صدر الصفحة			
٢٨	٢	برقياه	برقاه
٣٦	٣	تسبر	تسبر
٤٦	١٩	إذ	إذا
٤٧	١٠	افرع	أفرغ

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥٣	رقم الفصل	١٤	١٥
٥٨	٦	فأعظم	فأعظم
٦١	١٣	بلسم	دواء
٦٤	١٥	الخدر	الخدر
٦٦	١	تعرض	تعرض
٨٣	٦	حجل	حجل
٨٤	٧	بنذان	بينان
٨٤	١٢	بكنز	بكنز
١١٨	٥	سميلي	سميل
١١٨	١٦	قفسى أثرها	قفسى على أثرها
١٢٢	١٦	سعيد	سعيدا
١٣٢	١٤	العنيد	العنيد
١٣٤	١٦	بده	يده
١٣٦	٧	نات	أناث
١٤٣	رقم الفصل	٣٧	٣٨
١٤٤	٩	مائد	مائدة
١٤٨	٤	قاصها	وقابضها
١٤٨	١٨	رونها	دونها
١٥٠	٧	ولئك أسباب	أولئك أسباب
١٥٢	١٩	م لاسنة	الاسنة

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٦١	٢٠ هامش	أثردھا	أژدھا
١٧٣	٣	الزول	الزوال
١٧٤	٤	يـجـجـ	يـجـجـ
١٧٥	١٣	جواھر	جواھرہ
١٧٦	١٤	وسطحھا	وسطھا
١٧٩	١٨	بذیلہ	بذیلہ
١٨٦	٧	بقت	بقیت
١٨٧	١٠	المحی	الحمی
١٨٨	١١	نظوت	نظرت
١٩١	٢	فیومی	فیومی

للمؤلف

- (1) L' Influence de la Prose Arabe Sur la Prose Persane
Aux Ve et VIe Siecles del' hégire (X1e et X11e siecles
après J. C.) Paris 1952.
- (2) le Thème d' Hypatie dans la littérature Française et
Anglaise du XV111e Siècle au XXe Siècle, Paris 1952

وهما رسالتان لدكتوراه الدولة في الأدب المقارن من السوربون

سنة ١٩٥٢

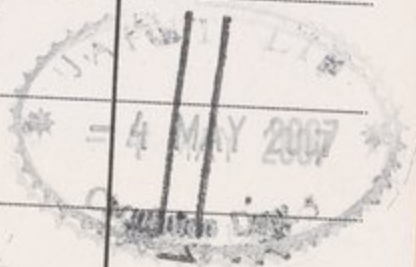
(٣) الأدب المقارن القاهرة ١٩٥٣ .

(٤) ليلى وانجنون في الأدبين العربي والفارسي : دراسات نقد ومقارنة

في نشأة الحب العذري ثم الحب الصوفي وتأثره بالفلسفة ، القاهرة ١٩٥٤ .



DATE DUE



891.553:J27LAh:c.1
الجامي، عبد الرحمن بن احمد
ليلي والمجنون او الحب الصوفي

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01036420



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

